روايات الهلال

غادة الكاميليا

اسكندر دماس "الابن"



غادة الكاميليا



غـــادة الكـــاميليا

بقلم
إسكندر ديماس (الابن)
ترجمة
محمد عبد المنعم جلال

مقدمة

أسكندر ديماس اسم لثلاثة رجال: الأب والابن والحفيد.

أما الأب فهو الكونت اسكندر دافي دي لا بابيتري، وقد ولد في جزيرة سانتو دومينجو في سنة 1762 ومات في مدينة فيليه توتريه في سنة 1806، وقد أبلى بلاء حسنا في الحرب التي دارت بين فرنسا والنمسا، ودافع وحده عن جسر بريكسن أمام فرقة كاملة من الجنود النمسويين.

والابن، وقد اشتهر بعد ذلك باسم اسكندر ديماس الأب، وهو روائي مشهور كان يتمتع بخيال خصب ومن أشهر مؤلفاته الفرسان الثلاثة والكونت دي مونت كريستو، وكتب ما يزيد عن ثلاثمائة رواية عاونه فيها لفيف من الأدباء المشهورين منهم أوجست ماكيه وجيرار دي نوفال وأميل سوفستر.

أما الثالث فهو الحفيد ويعرف باسم اسكندر ديماس الابن، وقد ولد في باريس سنة 1824 ومات بها سنة 1895. وما أن تخرج حتى سار على نهج أبيه واكتسب شهرة كبيرة في عالم الشعر والروايات، واختير عضوًا في الأكاديمية فرانسيز سنة 1874، ورواياته ومسرحياته تمتاز بالحبكة ومتانة البناء وروعة الحوار، وتدور كلها حول الأخلاقيات والمشكلات النفسية والاجتماعية. ومن مؤلفاته غادة الكاميليا وصديق السيدات ونصف العالم والابن الطبيعي والأب الطائش والأميرة جورج وغيرها.

وقد كتب رواية غادة الكاميليا في سنة 1852، وهذا اللقب ليس من نسج الخيال وإنما هو لقب حقيقي عرفت به فتاة تدعي الفونسين دي بليس واشتهرت باسم ماري، ولدت في مدينة نوناه سنة 1824 وماتت في باريس سنة 1847، ماتت أمها وهي لم تبلغ الثامنة من عمرها وتركتها مع أخت لها تكبرها بعامين في رعاية أبيهما. وكانت الفونسين تتمتع بجمال باهر أخاذ، وأذ رأى أبوها ذلك، وكان فاسد الأخلاق، استغلها في أغراضه المشينة، طمعًا في المال، وهي لا تزال في سن مبكرة.

ولكن لم يلبث أن مات أبوها وتركها في السابعة عشر من عمرها فانتقلت إلى باريس وساعدها ذكاؤها فامتهنت المهنة التي حذقتها واختلفت إلى الصالونات والمسارح، وتسارع عليه القوم إلى خطب ودها، وكانت تحرص على الظهور في كل مكان وفي يدها باقة من زهور الكاميليا كانت تشتريها من بائع يرجع إليه الفضل في أن أطلق عليها هذا اللقب. وكانت تحرص على أن تكون زهرة الكاميليا بيضاء اللون طوال خمسة وعشرين يوما من كل شهر، أما الأيام الخمسة الباقية فكانت الزهور حمراء اللون، ولم يعرف أحد أبدًا سبب اختلاف اللونين.

وماتت الفرنسيين في سنة 1847، أي وهي في الثالثة والعشرين من عمرها، وقد اشتهر بجمالها وبدائها وبموتها المبكر، وتدين بشهرتها على وجه الخصوص لاسكندر ديماس فقد كتب قصتها تحت اسم مرجريت جوتييه، ويسود الاعتقاد بأن أسكندر ديماس هو بالذات أرمان دوفال الذي أحب مرجريت جوتييه، أو بوجه أصح الفونسين، ويتضح ذلك من العبارة ألتي بدأ بها قصته إذ يقول «ولما لم أكد قد بلغت السن التي تتيح لي الخلق والابتكار فأنني اكتفي بأن أكون راوية وأرجو القارئ أن يؤمن بصدق هذه القصة التي ما زال أشخاصها أحياء يرزقون فيما عدا البطلة».

وقد كتب اسكندر ديماس هذه القصة في سنة 1852، وما كادت تصدر حتى تخاطفتها الأيدي ونالت شهرة كبيرة في أنحاء العالم، وطبعت ثلاث مرات في نفس السنة. وقد أثارت أكبر الاهتمام بحيث أن الناقد الفني والأديب المشهور جول جاتان الذي عاصر اسكندر ديماس كتب دراسة وافية وصدر بها الطبعة الثانية وأصبحت هذه الدراسة جزءًا لا يتجزأ منها بعد ذلك في

كل الطبعات التالية.

(1)

أعتقد أنه لا يمكن لأحد أن يخلق شخصيات روائية إلا بعد أن يدرس البشر دراسة وافية، تمامًا كما أنه لا يستطيع أن يتكلم لغة ما إلا بعد أن يتقنها كل الإتقان.

ولما لم يكن قد بلغت السن التي تتيح لي الخلق والابتكار فإنني اكتفى بأن أكون راويًا، وأرجو من القارئ أن يؤمن بصدق هذه القصة التي ما زال أشخاصها أحياء يرزقون، فيما عدا البطلة. وفي باريس أناس كثيرون يشهدون بصحة كل الحقائق التي جمعتها هنا، ويمكنهم أن يؤكدوها للقارئ، هذا إذا كانت شهادتي لا تكفي. وأستطيع أنا وحدي، لظروف خاصة، أن أكتبها، لأنني كنت الوحيد الذي أؤتمن على نقاطها الأخير التي لولاها لتعذر على أن أقدم رواية مكتملة الأحداث مثيرة الجوانب.

وأسوق لكم الآن كيف جاءتني تفاصيل هذه القصة، فقد قرأت في اليوم الثاني عشر من شهر مارس سنة 1847 أعلانًا كبيرًا أصفر اللون في شارع لافيت يقول أن رياشا ومفروشات ثمينة ستباع بالمزاد العلني، وأن هذه الرياش والمفروشات تباع بسبب موت صاحبها، ولم يذكر العنوان أسمه وإنما اكتفى بأن قال أن المزاد سيقام بالبيت رقم 9 بشارع انتان في اليوم السادس عشر من الشهر، ابتداء من الظهر حتى الساعة الخامسة.

وجاء في الإعلان فضلا عن ذلك أن في الإمكان رؤية الأثاث يومي 13و 14 مارس.

وأنا من هواه التحف الدائمين، ولهذا عقدت العزم على ألا تضيع مني هذه الفرصة، وأن أشهد المزاد على الأقل أن لم استطع الشراء.

ومضيت في اليوم التالي إلى شارع انتان رقم 9.

ومع أن الوقت كان مبكرًا، فقد كان المسكن يعج بالزائرين والزائرات، وعلى الرغم من أن الأخيرات كان يرتدين المخمل ويتدثرن بالكشمير، وعلى الرغم من أن مركباتهم الفاخرة كانت تنتظرهن في الخارج فقد رحن يتأملن بدهشة مظاهر البذخ التي تطالع أعينهن.

وقد أدركت فيما بعد سر هذه الدهشة، وهذا الإعجاب، فبينما كنت أطوف بالغرف أنا الآخر، فاحصا، عرفت بسهولة أنني في بيت امرأة من الغانيات، وإذا كان هناك شيء تشتاق نساء المجتمع إلى رؤيته فهو ذلك المنزل الخاص الذي تعيش فيه هذه الغانيات اللاتي ينافسنهن في بذخهن ويجاورنهن في مقصوراتهن بالأوبرا والمسرح الإيطالي ويعرضهن في باريس جمالهن الفائق ومجوهراتهن ونصائحهن.

وتلك التي كنت أطوف بمسكنها قد توفيت، وأصبح في استطاعة أكثر النساء عفة وطهرا أن يدخلن مخدعها بالذات، فقد طهر الموت جو تلك الغرفة الدنسة الفاخرة، ثم أنه كان لهن عذرًا آخر، إذا كان لابد من ذلك، وهو أنهن قد أقبلهن لحضور مزاد علني دون أن يعرفن من هي صاحبة البيت، فقد قرأن الإعلان وأردن مشاهدة تلك الروائع التي يتحدث عنها لكي يخترن منها ما يروق لهن مسبقًا، وليس هناك أسهل من ذلك، كما أنه ليس هناك ما يمنعهن من البحث بين هذه الروائع عن آثار الحياة التي كانت هذه الغانية تحياها والتي سمعن عنها أغرب القصص.

ولسوء الحظ أن هذه الأسرار قد ماتت مع ربة البيت، وعلى الرغم من كل أرادتهن الطيبة فأنهن لم يكتشفهن ألا ما عرض للبيع بعد الوفاة، ولم يرين شيئا مما بيع في حياة صاحبة البيت.

ثم أنه كان هناك الكثير من التحف التي يروق للمرء أن يحظى بها. وكان الأثاث والرياش فاخرًا، فقطع الموبيليا من الخشب الوردي الذي اشتهرت به مدينة بول، والغازات من مدينة سيفر ومن الصين، كما هناك تماثيل من الخزف وثياب من الساتان والمخمل والدانتلا .. لم يكن

ينقص البيت أي شيء.
ورحت أجول في المسكن، وراء النبيلات الفضوليات اللاتي سبقنني، ورأيت غرفة عليها ستارة فارسية. وهممت بأن أدخل بدوري عندما أسرعن بالخروج وهن يبتسمن، كما لو أنهن قد تملكهن الحياء والخجل من هذا الفضول الجديد. وازدادت رغبتي في الدخول عندئذ. كانت غرفة زينة يدل كل ما فيها على ما كانت تنعم به صاحبتها من عز وترف.
وعلى منضدة كبيرة بجوار الحائط، عرضها ثلاثة أقدام وطولها ستة، كانت تبرق كل الكنوز التي اشتهرت بها محلات أوكوك وأوديو. كانت عبارة عن مجموعة رائعة لا تقل عن ألف تحفة، من تلك التحف الضرورية لزينة امرأة، كتلك التي في بيتها، وكانت كلها من الذهب أو الفضة. ومع ذلك فإن مثل هذه المجموعة لا يمكن أن تكون قد اكتملت هكذا سريعا مرة واحدة، وإنما شيئا فشيئا، ولا يمكن أن تكون ق تلقتها صاحبتها من عاشق واحد.
ولما لم أكن من أولئك الذين يفزعون من رؤية أدوات زينة الغانيات، فقد راق لي أن أفحص كل كبيرة وصغيرة، ولم البث أن لاحظت أن كل هذه الأدوات النفيسة تحمل الحروف الأولى من أسماء أناس مختلفين وشعارات متنوعة.
رحت أنظر إلى كل هذه الأشياء التي ينم كل منها على دعارة الفتاة التعسة، وقلقت لنفسي أن الله كان رحيما بها لأنه لم يشأ أن يمد في أجلها حتى تجد القصاص العادي، وأنه تركها تموت بذخها وجمالها قبل الشيخوخة، وهي الميتة الأولى للغانيات.
والواقع أنه ليس هناك أسوأ ولا أمر من الشيخوخة الرذيلة، خصوصًا عند المرأة، فليس فيها أية كرامة ولا توحي بأي اهتمام، وذلك الندم الخالد، لا عن طريق السوء الذي اتبعته وإنما عن سوء تقديراتها، والمال الذي لم تحسن استخدامه إنما هو من أشد الأمور المحزنة التي يمكن سماعها.
عادت إلى ذهني ذكرى صاحبة هذا البيت وأنا أتأمل أدوات الزينة الفضية والذهبية، وكان الوقت قد مر بي على ما يبدو وأنا في تأملاتي هذه، لأنه لم يعد بالمسكن أحد غيري وغير حارس وقف بالباب ينظر إلي في اهتمام كما لو كان يخشى أن أسرق شيئًا.
واقتربت من ذلك الرجل الشهم الذي أوحيت إليه بمثل هذا القلق الكبير وسألته: أيمكنك أن تذكر لي اسم الشخص الذي كان يقيم هنا؟
- الآنسة مرجريت جوتييه.
وكنت قد رأيت هذه الفتاة وأعرف أسمها فقلت للحارس: كيف ذلك؟ ... هل ماتت مرجريت جوتييه؟
- نعم يا سيدي، منذ ثلاثة أسابيع.
- ولماذا يعرضون بيتها للزيارة؟
- لأن الدائنين خطر لهم أن الناس أذا شاهدوا الرياش والمفروشات مقدمًا فقد يشجعهم هذا على الشراء، وبهذا تتضاعف قيمة المعروضات ..
- كانت مدينة أذن؟
- نعم يا سيدي، ومبالغ جسيمة.
- ولكن لا ريب أن المبيعات ستغطي الديون؟
- وتزيد.
- وإلى من تؤول المبالغ الزائدة؟
- إلى أسرتها.

- أذن فلها أسرة؟

- هذا ما يبدو.

- شكرًا لك.

وأذ أطمأن الرجل إلى نواياي الطيبة حياني، وانصرفت.

وقلت لنفسي وأنا أعود إلى بيتي: يا للفتاة المسكينة! لا ريب أنها ماتت ميتة حزينة، فلا أصدقاء لمثلها إلا إذا كانت تتمتع بصحة جيدة. ورثيت لمصير مرجريت جوتييه رغما عني.

وأن هذا ليبدو أمرًا مضحكًا لكثير من الناس ولكنني أتمتع بتسامح لا ينضب نحو بنات الهوى والغائبات، ولا أكلف نفسي عناه الجدل في هذا التسامح.

(2)

كنت قد عدت في ذلك اليوم من السفر، فكان من الطبيعي إلا أعلم بموت جوتييه، فهو لم يكن من الأبناء العامة التي قد يسارع أصدقاؤها إلى إعلانه لمن يعود من سفر طويل. وكانت مرجريت جميلة، ولكن يقدر ما تثير حياة هؤلاء الناس من ضحية بقدر ما يمر موتهن دون اهتمام يذكر، فهن من تلك الشموس التي تغيب كما تشرق، دون تألق وعندما يطويهن الموت وهن في ميعة الصبا والشباب ينتشر نبأ موتهن بين جميع عشاقهن في نفس الوقت، لأن عشاق فتاة واحدة يعيشون في باريس في صداقة حميمة تقريبًا، ويتبادلون بعض الذكريات بخصوصها ثم تستمر حياتهم بعد ذلك دون أن يعكرها هذا الحادث حتى بدمعة واحدة.

وفي أيامنا هذه، وعندما يكون المرء في الخامسة والعشرين من عمره فإن الدموع تصبح شيئا عزيزًا لا يمكن أن يذرفها على أي شخص. وإذا كنا نبكي آباءنا فإننا نبكيهم لأنهم يدفعون لنا الثمن بما يخلفونه لنا.

أما أنا، فعلى الرغم من أن الحروف الأولى من أسمي لا توجد على أي من أدوات مرجريت فإن تسامحي الفريزي وتلك الشفقة الطبيعية التي اعترفت بها منذ قليل جعلتني أفكر في موتها أكثر مما قد تستحق.

وأذكر أننى التقيت بمرجريت مرارًا في الشانزليزيه، حيث كانت تذهب كل يوم في عربة صغيرة مكشوفة زرقاء اللون يجرها جوادان كريمان، ولحظت فيها ميزة قلما توجد في مثيلاتها، وهي ميزة جسدها جمالها الرائع.

والواقع أنه كان من المحال أن ترى جمالاً أروع وأفتن من جمال مرجريت، فقد كانت طويلة القامة، نحيلة العود إلى حد الإفراط، وكانت تعرف إلى حد كبير كيف تخفي السهو، الذي فرضته عليها الطبيعة، بحسن اختيارها لثيابها. وكان معطفها الذي يكاد طرفه يلمس الأرض يكشف من كل ناحية عن حاشية ثوب من الحرير، والفرو السميك الذي تغطي به يديها وتضعه على صدرها تحوطه طيات محاكة مهارة فائقة بحيث لا يمكن للعين مهما كانت متشددة أن تعيب رشاقتها.

أما الرأس فهي أعجوبة لوها سحرها الخاص. كانت صغيرة جدًا، وبها عينان سوداوان فوقهما حاجبان، كل منهما يبدو كما لو كان قوسا مرسومًا، ولها أهداف طويلة، إذا ما انخفضت ألقت ظلال على وجنتيها المتوردتين، وأنف دقيق مستقيم، وفم رقيق يفتر عن أسنان جميلة بيضاء كاللبن، وبشرة ناعمة نعومة الخوخ الذي لم تمتد إليه يد.

والشعر أسود كالكهرمان، له تموجات طبيعية، ويتفتح فوق الجبين ضفرتين كبيرتين تتهدلان خلف الرأس وتكشفان عن شحمتي الأذنين اللتين تلمع في كل منهما ماسة ثمينة يتراوح ثمنها ما بين أربعة وخمسة آلاف فرنك.

أما كيف تركت هذه الحياة المحتدمة على وجه مرجريت ذلك التعبير العذري والصبياني الذي يميزها فذلك ما سوف نسجله هنا دون أن نفهمه.

كان لمرجريت صورة رسمها لها فيدال، وهو الرجل الوحيد الذي كان في استطاعته أن يصورها ويظهرها على طبيعتها، وقد استطعت الحصول لبضعة أيام على هذه الصورة بعد موتها، وكانت تشبهها شبها عجيبا بحيث أفادتني في ذكر الأوصاف التي ما كانت ذاكرتي لتستطيع استيعابها.

وبعض نقاط هذا الفصل لم ترق إلى علمي فيما بعد، ولكنني اكتبها الآن حتى لا أضطر إلى العودة فيما بعد، عندما تبدأ قصة هذه المرأة الغريبة الأطوار.

كانت مرجريت تحضر الحفلات لكل العروض المسرحية، وتقضي كل سهراتها أما في المسرح وأما في المرقص، وفي كل مرة تعرض فيها مسرحية جديدة كان من المؤكد أن تراها ومعها ثلاثة أشياء لا تفارقها أبدًا وهي منظارها المبكر وكيس من الحلوى وباقة من زهور الكاميليا.

وطوال خمسة وعشرين يومًا من كل شهر كانت زهور الكاميليا بيضاء اللون، أما في الأيام الخمسة الأخيرة فكانت حمراء، ولم يعرف أحد أبدًا سبب اختلاف اللونين، وأنا أسجل ذلك الآن دون أن أستطيع تبريره، وقد لحظت أصدقاؤها الذين يختلفون إلى المسارح هذا الأمر مثلى تمامًا.

ولم ير أحد أبدًا مع مرجريت زهورًا أخرى غير الكاميليا، ولهذا أطلق عمال محل الزهور الذي يمدها بها عليها اسم غادة الكاميليا، ولم يلبث أن عرفها الجميع بهذا الاسم.

وقد علمت فوق ذلك، كما علم الذين يعيشون في عالم خاص بباريس أن مرجريت كانت عشيقة لنخبة من أشد الشباب أناقة، وكانت تصرح بذلك دون خجل. وكانوا هم أنفسهم يتباهون بذلك؛ وكان هذا دليلاً على أن العشاق والعشيقة كانوا مغتبطين بعضهم ببعض.

ومع ذلك، فمنذ أن انتقلت إلى بانيير وهي لم تعد تعيش إلا مع دوق متقدم في السن، واسع الثراء، حاول أن ينقذها بقدر الإمكان من حياتها الماضية، وبدأ أنها انصاعت لما يريد بطيب خاطر.

وإليكم ما قيل لي في هذا الصدد.

في ربيع سنة 1842، كانت مرجريت من الضعف والوهن بحيث أن الأطباء وصفوا لها المياه المعدنية، ولهذا انتقلت إلى مدينة بانيير.

وكانت ابنة الدوق بين المرضى، ولم تكن مريضة بنفس الداء فحسب وإنما كان لها وجه مرجريت وملامحها بحيث أنه كان يمكن لمن يراهما معا أن يظن أنهما شقيقتان، ولكن الدوقة الشابة كانت قد بلغت مرحلة الخطر من السل وماتت بعد قدوم مرجريت ببضعة أيام.

وفي ذات يوم، رأى الدوق، وقدان قد بقي في بانيير كما يبقى المرء في الأرض التي تضم جزءا من القلب، رأى مرجريت في منعطف الطريق فخيل إليه أنه يرى شبح ابنته فمضي إليها وأخذ يديها وقبلهما وهو يبكي، ومن غير أن يسألها من هي توسل إليها أن تسمح له برؤيتها وأن يحب فيها الصورة الحية لابنته الميتة.

وكانت مرجريت وحدها في بانيير برفقة وصيفتها، ولم تكن تخشى أن تعرض نفسها للشبهة فمنحت الدوق ما يطلبه.

وكان في بانيير أناس يعرفون مرجريت فمضوا إلى الدوق وأوقفوه على حقيقة الآنسة جوتييه. وكانت صدمة للشيخ، فقد انقطع هنا الشبه من ابنته، ولكن كان السيف قد سبق العزل، فإن المرأة الشابة أصبحت ضرورة لقلبه، وغدت حجته الوحيدة وسببه الوحيد للتمسك بالحياة.

ولم يوجه إليها أي لوم فلم يكن يحق له ذلك. ولكنه طلب منها أن تغير طريقة حياتها أن كانت تستطيع ذلك، وعرض عليها مقابل هذه التضحية كل التعويضات التي يمكن تريد، فوعدته بذلك.

ويجب القول أن مرجريت كانت في ذلك الوقت، على الرغم من كلفها بالحياة، مريضة. وبدأ لها ماضيها كأحد الأسباب الرئيسية لهذا المرض، وتوهمت أن الله سيترك لها الجمال والصحة مقابل ندمها وتوبتها.

والواقع أن المياه المعدنية والمتنزهات والتعب الليلي والنوم، كل ذلك ساعد على شفائها عندما أوشك الصيف على الانتهاء.

ورافقتها الدوق إلى باريس حيث راح يزورها كما كان يفعل في بانيير.

هذه العلاقة التي لم يعرف أحد أصلها الحقيقي ولا سببها الحقيقي كان لها تأثير كبير في باريس لأن الدوق كان مشهورًا بثروته الطائلة فأصبح الآن مشهورًا بسفهه، ورماه الناس بالفجور وظنوا به كل الظنون إلا الحقيقة.

ومع ذلك فإن شعور هذا الأب نحو مرجريت كان له سبب طاهر بحيث أن كل علاقة أخرى غير علاقات القلب كانت تبدو له عملاً فاسقًا ولم يقل فيها أبدًا نابية لا يحق لا بنته أن تسمعها.

وليس في نيتي أن أجعل من بطلتي شيئًا آخر غير ما هي عليه، ولهذا أقول أنه لم يتعذر عليها الوفاء بوعدها للدوق أثناء أقامتها في بانيير، ولكنها ما أن عادت إلى باريس حتى خيل لهذه الفتاة التي ألفت حياة اللهو والحفلات الراقصة والعربدة، ولم تعتد حياة الوحدة التي لا تقطعها إلا زيارات الدوق العادية أنها ستموت من الضجر والملل وعصفت برأسها وقلبها نسمات حياتها الملتهبة السابقة.

أضف إلى ذلك أنها عادت من هذه الرحلة وقد ازدادت جمالا عن ذي قبل وأنها كانت في العشرين من عمرها، وأن المرض الذي هجع ولم يقهر راح يغذى فيها تلك الرغبات المحمومة التي تكون عادة نتيجة أمراض الصدر.

وتألم الدوق أشد الألم عندما جاءه أصدقاؤه الذين راحوا يترصدون المرأة الشابة للوقوف على فضائحها وأخبروه بالحجة والبيئة بأنها تستقبل عديًا من الرجال في بيتها في الوقت الذي تتأكد فيه أنه لن يأتي لزيارتها، وأن هذه الزيارات تطول في بعض الأحيان حتى صباح اليوم التالي.

واعترفت مرجريت بكل شيء للدوق عندما سألها، ونصحته مخلصة بأن يكلف عن الاهتمام بها لأنها لا تشعر بالقوة للوفاء بوعدها له، ولا تريد أن تقبل بعد اليوم هدايا من رجل تخدعه.

وبقي الدوق أسبوعًا دون أن يظهر. وكان هذا كل ما استطاع أن يفعله، فقد جاء في اليوم الثامن وتوسل إلى مرجريت أن تتقبله ووعدها أن يقبلها بدوره كما هي، شريطة أن يراها، وأقسم لها بأنه لن يوجه إليها كلمة عتاب واحدة ولو أدى ذلك إلى موته.

هكذا كانت الأمور بعد ثلاثة شهور من عودة مرجريت، وكان ذلك في نوفمبر أو ديسمبر من سنة 1842.

(3)

مضيت إلى شارع أنتان في الساعة الواحدة من اليوم السادس عشر، وتناهي إلى من الباب الخارجي صوت الدلالين. وكان المنزل يزدحم بالفضوليين، وبينهم كل شهيرات الرذيلة الأنيقات، وقد راحت بعض السيدات المجتمع يتأملن فاحصات ومتذرعات بحجة الربيع لكي يشهدن عن قرب هؤلاء النسوة اللاتي لا تسمح لهن الظروف بمحادثتهن ويحسدنهن سرًا لملذاتهن السهلة.

كانت الدوقة دي ف .... تقف بجوار الآنسة ا ... إحدى المحن الحزينة لغانياتنا الحديثة، والمركزية دي ت ... تتردد في شراء قطعة من الموبيليا تزايد عليها مدام د .... التي اشتهرت بخيانة زوجها مع علية القوم، وحتى الدوق دي ي ... الذي يتنقل بين مدريد وباريس ويلقي بالنقود ذات اليمين وذات الشمال حتى ليخشى الناس أن يصيبه الإفلاس في حين أنه لا ينفق نصف دخله، كان واقفا يتحدث إلى مدام م ... الكاتبة المشهورة ويلقي نظرات خاصة إلى مدام ن ... الغانية الجميلة التي تقضي كل وقتها في التنزه في الشانزليزيه مرتدية ثوبا ورديًا أو أزرق في حين تنتظرها عربتها ذات الجوادين التي باعها لها توني .. وقبض الثمن. وأخيرًا الآنسة ر ... التي استطاعت أن تجني بموهبتها ضعف ما جنته نساء المجتمع بمهرهن وضعفي ما تستطيع الأخريات أن تجنيه بمغامراتهن الغرامية، جاءت على الرغم مما تشكو من زكام لكي تشتري ما قد يروق لها، وكانت هي الأخرى محط أنظار الجميع.

ويمكننا أيضًا أن نذكر الحروف الأولى من أسماء أناس كثيرين ممن اجتمعوا في هذا الصالون، تجمع بينهم الدهشة لتواجدهم معًا، ولكننا نخشى أن نتسبب في ملل القارئ.

وبحسبنا أن نقول أن الجميع كانوا يشعرون بمرح جنوني، وأن الكثير من الحاضرات كن يعرفن مرجريت وأن كان يبدو الآن من هيئتهن أنهم لا يتذكرنها.

كان الجميع يضحكون والدلالون يصيحون والتجار الذين احتلوا المقاعد الأمامية يحاولون فرض الصمت عبثا لكي يتمكنوا من الشراء في هدوء. لم أر أبدأ مثل هذا الجمع الصاخب الهادر.

وتسللت بين هذا الصخب المحزن وأنا أفكر في أن كل هذا يدور بجوار الغرفة التي لفظت فيها المخلوقة التعسة رمقها الأخير، وأنهم يبيعون الآن مفروشاتها وأثاثها لتسديد ما عليها من ديون، ولم أكن قد أتيت بقصد الشراء وإنما لمجرد الفرجة ورحت أنظر إلى وجوه الدائنين الذين تنبسط أساريرهم غبطة وسرورًا حين تباع إحدى المعروضات بثمن أعلا مما كانوا يتوقعون.

أناس شرفاء ضاربوا بأموالهم في عهر وفجور هذه المرأة وربحوا معها مئة في مئة، وطاردوها بأوراقهم المدموغة في لحظاتها الأخيرة، وجاءوا الآن بعد وفاتها ليجبنوا ثمار تدبيراتهم الشريفة مع فوائدهم المخجلة.

بيعت الثياب والمعاطف والمجوهرات بسرعة مدهشة، ولم يكن هناك ما يناسبني في كل هذا، ورحت انتظر.

وفجأة سمعت أحد الدلالين يقول: وهذا كتاب مجلد بالجلد وبالحروف الذهبية. أنه نسخة من مانون ليسكو، وعلى صفحته الأولى بضع كلمات ... عشرة فرنكات.

قال قائل بعد صمت غير قليل: أثنى عشر فرنكا.

قلت: خمسة عشر.

لماذا قلت ذلك؟ ... لا أدري. لا ريب أن ذلك كان بسبب الكلمات المكتوبة. وقال المزايد الأولى

في صوت يدل على أنه اغتاظ أن يزايد عليه أحد آخر:
- ثلاثون.
قلت وقد راعتي تحديه: خمسة وثلاثون.
- أربعون.
- خمسون.
- ستون.
- مئة.
وأعترف إنني أردت أن أبهر الحاضرين، وقد أفلحت في ذلك تماما، فقد أعقب ذلك صمت طويل، وتحولت جميع الأنظار إلى لمعرفة هذا السيد الذي صمم على الحصول على ذلك الكتاب.
ويبدو أن اللهجة التي نطقت بها كلمتي الأخيرة أقنعت منافسي فآثر أن ينسحب من معركة ما كانت لتسفر إلا عن أن تحملني على أن أدفع في هذا الكتاب عشرة أضعاف قيمته، فانحني وقال في رقة جاءت متأخرة: إنني أتنازل لك عنه يا سيدي.
وإذا لم يقل أحد شيئا بعد ذلك أصبح الكتاب من حقي.
وخشيت أن يتملكني إصرار آخر تقودني إليه كرامتي على الرغم مني ويكلفني أكثر من طاقتي فذكرت اسمه وتركت الكتاب وخرجت. ولا ريب أنني أثرت فضول الحاضرين، ولا ريب أنهم راحوا يتساءلون عن السبب الذي حملني على أن أدفع مئة فرنك في كتاب أستطيع أن أشتريه بعشرة فرنكات على الأكثر.
وبعد ساعة أرسلت بمن جاءني بالكتاب، ورأيت على صفحته الأولى بضع كلمات مكتوبة بالحبر وبخط جميل، عبارة عن إهداء هذا نصه:

من مانون إلى مرجريت
بكل خزي وتواضع

وكان التوقيع: أرمان دوفال.
ما معني هذه الكلمات... بكل خزي وتواضع؟
أكان معناها اعترافا من مانون بأن مرجريت، على رأى أرمان دوفال تفوقها في عهرها أو أنها تفوقها في حبها؟
كان الافتراض الثاني هو الأقرب إلى المعقول لأن الأول لم يكن إلا صراحة وقحة ما كانت مرجريت لترضي بها على الرغم من رأيها في نفسها بالذات.
وخرجت من جديد ولم أعد أهتم بهذا الكتاب إلا ليلا وقبيل النوم.
ولا شك أن قصة مانون قصة مؤثرة لا تغيب عني نقطة من نقاطها، ومع ذلك فأنني عندما أجد هذا الكتاب تحت يدي يتملكني تأثير غريب، وأفتحه وأعيش للمرة المائة مع بطلة الأب بريفو، وهي بطلة حقيقة بحيث يخيل لي أنني عرفتها. والمقارنة بينها وبين مرجريت في هذه الظروف الجديدة أغرتني بقراءتها من جديد. وأحسست إلى جانب تسامحي بشفقة تكاد تكون حبا للفتاة التعسة التي ورثت عنها هذا الكتاب. وصحيح أن مانون ماتت في الصحراء ولكنها ماتت بين ذراعي الرجل الذي أحبها بكل ما في روحه من قوة، وحفر لها قبرا بعد أن ماتت ورواه بدموعه ودفن قلبه معها، في حين أن مرجريت، وهي خاطئة مثلها، ماتت في كنف الترف والبذخ كما رأيت، في فراش ماضيها، ولكن وسط صحراء القلب، وهي صحراء أشد جدبا وأكثر رحابة واقسي من تلك التي ماتت مانون فيها.
والواقع أن مرجريت، كما علمت من بعض أصدقائها المطلعين على ظروف حياتها الأخيرة لم تجد من يجلس إلى فراشها ويواسيها طوال الشهرين اللذين قضتهما في احتضارها المؤلم.

ثم انتقلت أفكاري من مانون ومرجريت إلى فتيات أخريات كنت أعرفهن وأراهن يمضين في ركب الحياة إلى نفس المصير تقريبا.
يا للمخلوقات التعسات!.. إذا كان من الخطأ أن نحبهن فلا أقل من أن نرثي لهن.. إنك ترثي للأعمى الذي لم ير نور النهار أبدا وللأصم الذي لم يسمع أنغام الطبيعة أبدا، وللأبكم الذي لا يستطيع أبدا الإفصاح عما يجول بنفسه، وتتذرع بالاحتشام وتأبي أن ترثي لعمي القلب وصمم الروح وصمت الضمير، مع أن هذه الأمور مجتمعة من شأنها أن تبعث الجنون إلى المريضة التعسة وتجعلها تعجز رغما عنها رؤية الخير وعن سماع الرب وعن النطق بلسان الحب الطاهر والإيمان.
لقد كتب هوجو قصة ماريون ديلورم وكتب موسيه قصة برنريت، وكتب اسكندر ديماس قصة فرناند، وأسبع المفكرون والشعراء قرابين شفقتهم على الغانية، وفي بعض الأحيان، رد عدد كبير من الرجال اليهن اعتبارهن بحبهم لهن، بل ومنحوهن أسماءهم، وإذا كنت أصر على هذه النقطة فذلك لأن كثيرا ممن سيقرأون هذا الكتاب قد يهمون بطرحه جانبا خوفا منهم من أن يروا فيه تبريرا للرذيلة ودفاعا عن البغاء. وقد تشجع القارئ في تعليل هذا الخوف، وعلى هؤلاء أن يطرحوا عنهم مثل هذه الظنون وأن يواصلوا قراءته إذا لم يمنعهم من ذلك إلا هذا الخوف.
وإني أؤمن بكل بساطة بمبدأ هو أن المرأة التي لم تتعلم ما هو الخير يفتح الله لها دائما طريقين يدفعهما إليها، وهما الألم والحب، وهما طريقان وعران من تسلكهما تدمي قدماها وتتمزق يداها، ولكنها تترك في نفس الوقت على أشواك الطريق مباذل الرذيلة وتصل إلى الغاية بهذا الذي لا يمكن أن تخجل منه أمام الخالق.
وأولئك الذي يلتقون بمثل هؤلاء السافرات يجب أن يمدوا إليهن يد العون وأن يقولوا للجميع أنهم التقوا بهن لأنهم بقولهم هذا ينيرون الطريق.
ولا يكفي أن نضع على مدخل الحياة لوحتين تحمل أحداهما عبارة ((طريق الخير)) والأخرى هذا الإنذار ((طريق الشر)) وأن نقول للآتي يتقدمن ((اخترن ما تشئن)) وإنما يجب أ نفعل كما فعل المسيح فترشد الذين ضلوا سواء السبيل إلى الطريق الذي يعيدهم من الباب الثاني إلى الباب الأول، ولا يجب على الخصوص أن تكون بداية هذه الطرقات مؤلمة جدا ولا أن تبدو عسيرة جدا.
وقد جاءتنا المسيحية بحكمتها عن الابن الضال لكي تنصحنا بالتسامح والغفران، وكان قلب اليسوع يزخر بالحب لتلك النفوس التي جرحتها شهوات الرجال، وكان يضمد هذه الجروح ببلسم يستخرجه من الجرح ذاته، وقد قال لمريم المجدلية ((أن الله سيغفر لك خطاياك لأنك أحببت كثيرا..)) وهذا غفران جليل جدير بإيقاظ إيمان جليل.
فلماذا نتشدد أذن ونكون أكثر صرامة من المسيح؟.. ولماذا نتمسك في إصرار بآراء هذه الدنيا التي تقسو لكي تبدو قوية، ونلقي معها أرواحا تدميها أحيانا جروح تتدفق من شرور ماضيهم تدفق الدم الخبيث في المريض ولا تنظر إلا يدا صديقة تضمدها وتعيد إليها شفاء القلب؟
إنني أخاطب أبناء جيلي، أولئك الذين لا يؤمنون بعد بنظريات فولتير لحسن الخط، أولئك الذين يفهمون مثلي أن البشرية تعيش أحدى وثباتها الجريئة منذ خمسة عشر عاما، وإنها عرفت ما هو الخير وما هو الشر. لقد عاد الإيمان إلى نفوسنا وأصبحنا نحترم الأشياء المقدسة، إذا كانت الدنيا ليست خيرا تمام فهي أفضل على الأقل، وأن جهود المجتمع الذكي تميل إلى نفس الغاية، وكل الإرادات الكبرى ترتبط بنفس المبدأ. فلنكن أخياراً، ولنكن صادقين فإن الشر غرور، وليكن لنا كبرياء الخير، ولنطرح اليأس من نفوسنا ولنعمل على ألا نحتقر المرأة التي لا هي أم ولا

ابنة ولا زوجة، ولنضفي احترامنا وتقديرنا على الجميع سواسية، ولنغلب السماحة على الأنانية، وما دامت السماء تفرح لتوبة خاطئ أكثر من فرحتها لمائة منصف لم يأثم منهم أحد قط، فلنحاول أن نفرح السماء، فإنها يمكن أن تعيد لنا هذه الفرحة مضاعفة. لنترك على طريقنا حسنة غفراننا لأولئك الذين ضلتهم الرغبات الدنيوية والذين قد ينقذهم أمل إلهي. وكما تقول النساء العجائز حين يصفن وصفة على طريقتهن: إذا كان هذا لا ينفع فإنه لا يضر.

وإنها لجرأة مني حقا إذ أريد أن أخلص بهذه النتائج الكبيرة من القضية الهزيلة التي أعالجها، ولكنني من أولئك الذين يؤمنون بأن كل عظيم وجليل في أوله هزيل صغير، فإن الطفل صغير ولكنه يضم الرجل في حناياه والمخ ضيق ولكنه يضم العقل والعين نقطة صغيرة ولكنها تشمل أميالا وأميالا.

(4)

انتهي البيع بعد يومين وبلغت حصيلته مئة وخمسين ألف فرنك.

واقتسم الدائنون ثلثي هذا المبلغ وورثت الأسرة، وتتكون من أخت وابنها باقي التركة، وقد اتسعت عينا هذه الأخت عندما كتب لها المحامي يخبرها بأنها ورثت خمسين ألف فرنك.

وكان قد مضي نحو ست أو سبع سنوات لم تر فيه هذه الفتاة أختها، وكانت هذه الأخيرة قد اختفت ذات يوم، ولم تدر الأخت أو أي أحد آخر أي شيء عن حياتها منذ اللحظة التي اختفت فيها.

وقد أقبلت إلى باريس على عجل، وأصبحت غنية دون أن تدري حتى مصدر هذه الثروة التي لم تكن تحلم بها.

وقد قيل لي بعد ذلك إنها عادت إلى قريتها وهي تشعر بحزن كبير لموت أختها، وهو موت عوضها عنه المبلغ الكبير الذي ورثته على كل حال.

كل هذه الظروف المتكررة في باريس، مدينة الفضائح بدأ الناس يتناسونها، وكدت أنا نفسي أنسي كيف اتفق لي المشاركة في هذه الظروف عندما وقع حادث صغير عرفت منه كل حياة مرجريت وظروفها المؤثرة بحيث أحسست بالرغبة في كتابة قصتها، وهذا هو ما أفعله الآن.

كان مسكنها قد خلا من مفروشاته ورياشه منذ ثلاثة أو أربعة أيام ومعروضا للإيجار عندما طرق أحدهم بابي ذات يوم.

ومضي الخادم، أو بوجه أصح، البواب الذي يقوم على خدمتي في نفس الوقت لكي يفتح الباب، وعاد ومعه بطاقة قائلا أن الشاب الذي أعطاها له يريد مقابلتي.

وألقيت نظرة على البطاقة، وكانت تحمل هذا الاسم: أرمان دوفال. وتساءلت أين سمعت بهذا الاسم، ولم ألبث أن تذكرت إنني قرأته في الصفحة الأولى من كتاب مانون ليسكو.

ما الذي يريده مني ذلك الشاب الذي أهدي هذا الكتاب لمرجريت؟.. وقلت للخادم أن يدعوه للدخول.

ورأيت عندئذ شابا أشقر، طويل القامة، شاحب اللون، يرتدي بذلة سفر يبدو أنه لم يستبدله منذ بضعة أيام، فقد كان الغبار يعلوها بصورة ظاهرة، ولم يهتم حتى بإزالته.

وكان مسيو دوفال بادي الانفعال، ولم يبذل أي جهد لإخفاء انفعاله، وقال وفي عينيه دموع وفي صوته رجفة:

- سيدي. ألتمس معذرتك عن زيارتي وثيابي، ولكن لما كانت مثل هذه الأمور لا تقلق الشباب، ولما كنت أريد أن أراك اليوم قبل أي شيء آخر فإنني لم أهتم بالذهاب إلى الفندق الذي أرسلت إليه حقائبي لاستبدال ثيابي، وأسرعت إليك إشفاقا من ألا أجدك مع أن الوقت لا يزال مبكرا.

رجوت مسيو دوفال أن يجلس بجوار النار، فجلس وهو يخرج من جيبه منديلا أخفي فيه وجهه لحظة ثم قال وهو يتنهد:

- إنك لتتساءل ما الذي يريده منك زائر مجهول في مثل هذه الساعة وفي مثل هذا الزى وهو يبكي هكذا... إنني إنما أتيت أطلب منك معروفا كبيرا يا سيدي.

- تكلم يا سيدي فإنني رهن أمرك.

- إنك كنت موجودا أثناء بيع محتويات مسكن مرجريت جوتييه.

وازداد انفعال الشاب وهو ينطق بهذه الكلمات حتى غلبه الأمر وأضطر أن يرفع يديه إلى عينيه، وأردف يقول:

- لا ريب إنني أبدو لك سخيفا يا سيدي، وأرجو أن تعذرني لذلك أيضا، وصدقني أنني لن أنسي أبدا ما تبدي نحوى من صبر.

أحببته: سيدي، إذا كان المعروف الذي يبدو إنني أستطيع أن أسديه لك كفيلا بأن يخفف شيئا من هذا الحزن الذي تشعر به فأرجو أن تسارع وتخبرني ماذا أستطيع أن أفعل، وسوف يسعدني جدا أن أخدمك.

كان حزن مسيو دوفال مؤثرا، وقد أردت أن أخفف عنه رغما عني، وقال لي عندئذ: إنك اشتريت شيئا في ذلك المزاد.

- **نعم أيها السيد... ابتعت كتابا.**
- **مانون ليسكو؟**
- **هو ذلك.**
- **أما زال هذا الكتاب معك؟**
- **إنه في غرفة نومي.**

وما أن سمع دوفال قولي هذا حتى تنهد في ارتياح كان حملا ثقيلا قد أزيح عن كاهله، وكما لو أنني أسديت له خدمة كبيرة باحتفاظي بهذا الكتاب.

ونهضت من مكاني عندئذ ومضيت إلى غرفة نومي وعدت بالكتاب وناولته إياه، فقال وهو ينظر إلى الإهداء المكتوب.

- نعم. هذا هو... هذا هو.

وانحدرت دمعتان كبيرتان فوق صفحات الكتاب.

وقال وهو يرفع رأسه إلى دون أن يحاول أن يخفي عني أنه بكي:

- **حسنا يا سيدي... هل تتمسك بالاحتفاظ بهذا الكتاب؟**
- **لماذا يا سيدي؟**
- **لآني أتيتك راجيا أن تتنازل لي عنه.**

قلت عندئذ: اغفر لي فضولي، ولكن هل أفهم من هذا إنك أنت الذي أهديت هذا الكتاب لمرجريت جوتييه؟

- **نعم**
- **هذا الكتاب لك إذن يا سيدي، وتستطيع أن تأخذه.**

قال مسيو دوفال في ارتباك: ولكن يجب أن أرد لك الثمن الذي اشتريته به على الأقل.

- أسمح لي أن أقدمه لك. أن ثمن كتاب واحد في مزاد كهذا لزهيد، ولا أذكر كم دفعت فيه.

- إنك دفعت فيه مئة فرنك.

قلت وقد تملكتني الحيرة بدوري: هذا صحيح. كيف عرفت ذلك؟

- أن الأمر بسيط. كنت أرجو الوصول إلى باريس في الوقت المناسب لحضور المزاد، ولكنني لم أصل إلا صباح اليوم، وكنت أريد الحصول على شيء منها بأي ثمن، فأسرعت إلى الدلال ورجوته أن يريني قائمة الأشياء المباعة وأسماء المشترين، ورأيت إنك اشتريت هذا الكتاب فعقدت العزم على أن أتوسل إليك أن تتنازل لي عنه على الرغم من أن الثمن الذي دفعته فيه جعلني أخشي أن تكون قد ابتعته لذكري خاصة في نفسك.

وبدا لي من لهجته أنه يخشي حقا أن أكون قد عرفت مرجريت جوتييه كما عرفها هو فسارعت إلى طمأنته قائلا:

- إنني لم أعرف الآنسة جوتييه شخصيا وإنما رأيتها بضع مرات فحسب، وقد أحزنني موتها كما يحزن أي شاب لموت فتاة جميلة كان يسره أن يلتقي بها. وقد أردت أن ابتاع شيئا من حاجياتها وأصررت على الحصول على هذا الكتاب وزايدت عليه دون أن أدري لذلك سببا، ولا ريب أنني فعلت ذلك لاغاظة رجل صمم على الحصول عليه وبدا أنه يتحداني. وأعود فأكرر يا سيدي أن هذا الكتاب تحت تصرفك، وأرجوك أن تقبله هدية مني لكي يكون عربون صداقة متينة ودائمة.

قال أرمان وهو يشد على يدي: ليكن ما تريد يا سيدي. إنني أقبل وسأكون ممتنا لك طوال حياتي.

وددت أن أسأله عن مرجريت لأن إهداء الكتاب ورحلة الشاب ورغبته في الحصول عليه، كل ذلك أثار فضولي. ولكنني خشيت إذا سألته أن أبدو كأني رفضت نقوده ليحق لي التدخل في شئونه.

ويبدو أنه ضمن رغبتي هذه لأنه قال: هل قرأت هذا الكتاب؟

- نعم.

- ماذا خطر لك بشأن السطرين اللذين كتبتهما؟

- أدركت على الفور إنك ترى في الفتاة التي أهديتها هذا الكتاب أنها تخرج عن الطبقة العادية لأنني لم أشأ أن أرى في هذين السطرين مجرد مجاملة مبتذلة.

- وأنت على حق في هذا يا سيدي فان هذه الفتاة ملاك.

وأردف يقول وهو يناولني رسالة يبدو من مظهرها إنها قرأت أكثر من مرة: اقرأ هذه.

وأخذتها وقرأت فيها ما يلي:

((عزيزي أرمان. تسلمت خطابك وإنك لرجل كرمي وأشكر الله على ذلك. نعم يا صديقي، إنني مريضة، ومرضي من هذه الأمراض التي لا ترحم. ولكن الاهتمام الذي ما زلت تبديه نحوى يخفف الكثير من آلامي. ولا ريب أن الأجل لن يمتد بى لكي أسعد مرة أخرى بأن أضغط على اليد التي كتبت هذه الرسالة الكريمة التي تسلمتها الآن والتي ستشفينى كلماتها إذا كان هناك ما يمكن أن يشفيني. لن أراك لأنني موشكة على الموت ولأن هناك مئات من الأميال تفصلك عني. أن حبيبتك مرجريت التي عرفتها فيما سبق قد تغيرت، ولعل من الأفضل إلا تراها أبدا من أن تراها كما هي الآن. إنك تسألني أن كنت أصفح عنك.. أواه... إنني أصفح عنك من سويداء القلب يا صديقي لأن الشر الذي أردت أن تلحقه بي أنما هو دليل على حبك لي. أنني ألازم الفراش منذ شهر وأحصر كل الحرص على تقديرك بحيث أدون يومياتي منذ اللحظة التي افترقنا فيها حتى تلك التي لن أجد القوة على مواصلة الكتابة.

((وإذا كنت مهتما بي حقا يا أرمان فامض إلى جوليا دوبرا بمجرد عودتك، وسوف تسلمك هذه اليوميات، وستجد فيها السبب فيما حدث بيننا والباعث إليه. أن جوليا كريمة جدا معي، ونحن نتحدث معا عنك كثيرا، وكانت معي عندما جاءني خطابك، وقد بكينا معا ونحن نقرأه.

((أما إذا لم تشأ أن تبعث إلى بأنبائك فان مهمتها أن تقدم إليك هذه اليوميات بمجرد عودتك إلى فرنسا، فلا تشكرني عليها. أن العودة اليومية إلى هذه اللحظات السعيدة الوحيدة في حياتي تصيبني بخير كبير، وإذا اتفق ووجدت فيها تبريرا للماضي فإنني أجد فيها عزاء دائما.

((كنت أود أن أترك لك شيئا تذكرني به دائما ولكن الحجز تم على كل ممتلكاتي ولم أعد أملك شيئا.

((هل تفهم يا صديقي؟.. إنني أحتضر وأسمع وأنا في غرفة نومي الحارس الذي أقامه الدائنون

للحراسة وهو يمشي في الصالون لكي لا يأخذ شيئا من البيت، وأرجو أن ينتظر الدائنون حتى أموت.
((أوه... أن الرجال قساة القلوب، أو لعلني أخطئ وأن الله هو الغفور الرحيم.
((أواه!.. ما أتعس هذه الحياة التي أفارقها!
((وأن الله ليكون رحيما وكريما أو سمح لي بأن أراك قبل أن أموت. ولكنني أودعك الآن طبقا لكل الاحتمالات يا صديقي، وأغفر لي أن كنت لا أطيل الكتابة إليك، فان هؤلاء الذين يعالجونني قد أضعفوني بما يأخذونه مني من دم، ويدي لم تعد تطاوعني على الكتابة.
مرجريت جوتييه..
والواقع أن الكلمات الأخيرة كانت مهزوزة تكاد لا تقرأ.
أعدت هذه الرسالة إلى أرمان، ولا شك أنه كان يتابعني في قراءتها بذهنه كما قرأتها أنا على الورق لأنه قال لي وهو يتناولها:
- من الذي يصدق أن فتاة غانية هي التي كتبت هذا؟
واستولي عليه الانفعال من جديد، وجعل يتأمل الخط المكتوب مدة طويلة ثم رفع الرسالة أخيراً إلي شفتيه، وعاد يقول:
- وأذ يخطر بذهني أنها ماتت، وإنني لن أراها أبدا، وإنها بذلت من أجلي مالا يمكن أن تبذله الأخت لا أغفر لنفسي إنني تركتها تموت.
((ماتت... ماتت وهي تفكر في وتكتب إلى... وتنطق باسمي.. حبيبتي المسكينة مرجريت)).
وأطلق أرمان العنان لأفكاره ودموعه. وبسط يده إلى أخيرا وقال:
- لو أن أحدا رآني أندب ميتة كهذه لاعتبرني طفلا سفيها، ولكنه لن يعلم أبدا ما فعلته أنا لهذه المرأة لكي تتألم كل هذا الألم، ولن يعرف مدى قسوتي ومدى طيبتها وإذعانها. كنت أظن إنه يحق لي أن أغفر له، ولكنني أجد إنني لست جديرا بغفرانها الذي منحتني أياه. أوه. إنني لا تنازل عن عشر سنوات من عمري لكي أبكي ساعة عند قدميها.
من العسير أن يواسي شخصا شخص آخر عن حزن لا يشعر هو به. ومع ذلك فقد شعرت بشفقة كبيرة نحو ذلك الشاب، فقد بثني آلامه وأحزانه بكل صراحة بحيث أحسست أن كلماتي لن تضيع هباء وقلت له:
- أليس لك أهل أو أصدقاء؟.. تجمل بالأمل وامض لزيارتهم يواسونك، فإنني لا أستطيع إلا أرثي لك.
قال وهو ينهض ويسير في الغرفة جيئة وذهابا بخطي واسعة:
- هذا صحيح. إنني أثير ضجرك فأرجوك عذرك. لم يخطر لي أبدا أن آلامي لا تهمك في شيء وإنني أضايقك بأمور لا يمكن أن تحفل بها.
- إنك أسأت فهمي. إنني مقدر لشعورك ولكنني آسفت لعجزي عن تخفيف آلامك. وإذا كان يمكن أن تجد العزاء والسلوى في صحبتي وصحبة أصدقائي، وإذا احتجت إلى في أي شيء مهما يكن فإنني أريدك أن تعلم أنه يسرني جدا أرضاؤك.
قال: أرجو المعذرة.. أن الحزن يضاعف الإحساس. أسمح لي بالبقاء بضع دقائق أخرى ريثما أجفف عيني حتى لا أكون أعجوبة للفضوليين إذا ما شاهدوا شابا كبيرا يبكي. إنك أسعدتني كثير بإعطائي هذا الكتاب ولا أدري أبدا كيف أرد لك هذا الدين.
قلت: بأن تمنحني صداقتك وتفصح لي عن سبب حزنك، فإن المرء يشعر بالسلوى والعزاء إذا ما كشف عن آلامه.

- إنك على حق، ولكنني بحاجة كبيرة إلى البكاء اليوم، ولن أنطق إلا بكلمات لا معني لها. سأذكر هذه القصة ذات يوم، وستري عندئذ إذا كانت على حق في تحسري على هذه الفتاة التعسة.

وأردف يقوم وهو يكفكف دموعه مرة أخرى وينظر إلى المرآة:

- أما الآن فقل لي إنك لم تجدني أحمق، وأسمح لي أن أزورك.

كانت نظرة الشاب حلوة رقيقة حتى إنني أوشكت أن أعانقه، أما هو فقد أغرورقت عيناه بالدموع من جديد، وإذ رأي إنني لحظت ذلك حول وجهه عني فقلت: تشجع يا صاحبي.

وقال لي عندئذ: إلى اللقاء.

وبذلك جهدا خارقا لكي لا يبكي، ثم بادر بالفرار.

(5)

مضي وقت طويل قبل أن أسمع عن أرمان، ولكنني، على العكس من ذلك،، سمعت الكثير عن مرجريت.

ولا أدري إذا كنتم قد لحظتم ذلك ولكن يكفي أن يأتي ذكر اسم شخص مجهول منك ولا يهمك أمره في شيء أمامك حتى تتجمع المعلومات شيئا فشيئا حولي وحتى تسمع كل أصدقاءك يحدثونك عن شيء لم يسبق لهم أن تحدثوا به إليك من قبل، وتكتشف عندئذ أن هذا الشخص يعنيك تقريبا وأنه مر بحياتك مرارا من غير أن تلاحظ ذلك، وتجد في الأحداث التي يروونها لك مصادفة وعلاقة حقيقيتين ببعض أحداث حياتك أنت بالذات. ولم أكن قد بلغت هذه المرحلة مع مرجريت، فقد رأيتها والتقيت بها ثم أن أسمها تردد في أذني مرارا بعد أن بيع أثاث بيتها، وجاء اسمها في الفصل السابق كما قلت، فقد تسببت في ذلك الحزن الذي أثار اهتمامي وفضولي، ونتج عن ذلك، إنني لم أكن التقي بأحد من أصدقائي الذين لم أتحدث إليهم عن مرجريت قط إلا وسألته قائلا:

- هل عرفت فتاة تدعي مرجريت جوتييه؟.

- أتعني غادرة الكاميليا؟ عرفتها كثيرا.

وكانت ((كثيرا)) هذه مصحوبة في أكثر الأحيان بابتسامات لا تترك أي شك عن المعني الكامن خلفها.

- حسنا. أي نوع من الفتيات كانت؟

- كانت عاهرة.

- أهذا كل شيء؟

- يا إلهي!.. نعم.. ولكنها أكثر ذكاء وقد تكون أرق قلبا من غيرها.

- ألا تعرف شيئا خاصا عنها؟

- إنها تسببت في إفلاس البارون ج...

- البارون ج... فحسب؟

- وكانت عشيقة الدوق الشيخ دي...

- هل كانت عشيقته حقا؟

- قبل هذا... كان يمنحها الكثير من النقود.

دائما نفس النقاط السخية، ومع ذلك فقد كنت أود أن أسمع شيئا ما عن العلاقة بين مرجريت وأرمان.

وذات يوم التقيت بواحد من هؤلاء الذين يعيشون في صميميات النساء البارزات وسألته: هل عرفت مرجريت جوتييه؟

وأجابني بنفس الكلمة التي طالما سمعتها قبل ذلك: كثيرا.

- أي نوع من الفتيات كانت؟

- كانت جميلة وعاهرة، وقد أحزنني موتها كثيرا.

- ألم يكن لها عشيق يدعي أرمان دوفال؟

- أهو شاب أشقر طويل القامة؟

- نعم.

- هذا صحيح.

- ومن هو ذلك الأرمان؟
- شاب أكل معها القليل الذي كان يملكه، وأظن إنه أضطر أن يهجرها وقيل انه كان مجنونا بها.
- وهي؟
- قيل أنها كانت تحبه كثيرا هي الأخرى، ولكن كما يجب هذا النوع من الفتيات، فلا يجب أن نطالبهن بأكثر مما يستطعن أن يمنحن.
- وماذا حدث لأرمان؟
- لا أدري. إننا لم نعرفه إلا قليلا فقد بقي مع مرجريت خمسة أو ستة شهور، كان ذلك في الريف، وعندما عادت هجرها هو.
- ألم تره بعد ذلك؟
- أبدا.
وأنا الآخر لم أر أرمان بعد رحيله من عندي، وتساءلت إذا لم يكن نبأ موت مرجريت الحديث قد أهاج حبه السابق وأثار أحزانه فجاء لزيارتي لهذا السبب، وقلت لنفسي أنه نسي الفقيدة ونسي وعده لي بأن يعود لزيارتي.
كان هذا الافتراض يبدو معقولا بالنسبة لرجل آخر، ولكن كان في يأس أرمان أنات صادقة، وتصورت في أقصى الحدود أن الحزن والألم انقلبا إلى مرض، وأنه إذا كانت أنباؤه قد انقطعت عني فذلك لأنه أما أن يكون مريضا وأما لأنه مات.
واهتممت لهذا الفتي على الرغم مني، وقد يكون اهتمامي هذا مبنيا على الأنانية، ولعلني رأيت في حزنه هذا قصة غرامية مؤثرة، وأخيرا لعل رغبتي في معرفة هذه القصة ترجع في كثير إلى القلق الذي أحسست به أزاء صمت أرمان.
وإذا رأيت أن مسيو دوفال لم يأت لزيارتي فقد عقدت العزم على أن أمضي إليه، ولم يكن من المتعذر أن أجد الحجة لذلك، ولكنني لسوء الحظ لم أكن أعرف عنوانه، ولم يستطع أحد من كل الذين سألتهم عنه أن يرشدني إليه.
ومضيت إلى شارع إنتان وأنا أعلل نفسي بأن بواب مرجريت ربما يعرف أين يقيم أرمان، ولكنني وجدت بوابا آخر، لم يعرف العنوان مثلي فسألته عندئذ عن المقبرة التي دفنت فيها الآنسة جوتييه فأجابني بأنها مقبرة مونمارتر.
وكان شهر أبريل قد حل، وكان الطقس جميلا ولم يعد للمقابر ذلك المنظر المحزن الموحش الذي يضفيه عليها الشتاء. وأخيرا كان الجو حارا بحيث يتذكر الأحياء الموتى ويسارعون لزيارتهم، ومضيت إلى المقبرة وأنا أقول لنفسي: أن نظرة واحدة لقبر مرجريت كفيلة بأن أعرف إذا كان حزن أرمان لا يزال قائما أم لا، وأنني قد أعرف عندئذ ما حدث له.
ودخلت غرفة الحارس وسألته إذا كانت امرأة تدعي مرجريت جوتييه دفنت في مقبرة مونمارتر 22 فبراير.
وقلب الرجل صفحات سجل ضخم يحوي أسماء الذين جاءوا إلى هذا الملاذ الأخير وأرقام قبورهم. وأجابني أنه حقا دفنت امرأة بهذا الاسم في ظهر يوم 22 فبراير.
رجوته أن يرشدني إلى القبر لأنه كان من المتعذر على أن أهتدي إليه دون دليل في هذه المقبرة الكبيرة بشوارعها التي كانت أشبه بشوارع أحدى المدن. واستدعي الحارس بستانا زوده بالتعليمات الضرورية ولكن البستاني قاطعه قائلا: إنني أعرف...
واستطرد يقول وهو يتحول إلى: أوه... من السهل معرفة هذا القبر.
سألته: لماذا؟

- لأن به زهورا تختلف عن غيرها.
- أأنت الذي تعني به؟
- نعم يا سيدي، وليت كل الأهالي يعنون بموتاهم كهذا الشاب وبعد بضع دورات توقف البستاني وقال: ها نحن أمام القبر.
والواقع أنني رأيت أمامي حوضا من الأزهار ما كنت لأظنه قبرا أولا أنني رأيت فوقه شاهدا رخاميا أبيض يحمل أسما.
كان الشاهد يقوم فوق قطعة من الأرض مسورة بشبكة من الحديد تحديد البقعة المشتراه، وكانت هذه البقعة مكسوة بالزهور. وقال البستاني: ما رأيك في هذا؟
- هذا جميل جدا.
- وكلما ذبلت أحدى زهور الكاميليا لدى أمر باستبدالها.
- ومن الذي أصدر هذا الأمر؟
- شاب بكي كثيرا أول مرة أقبل فيها. لا ريب أنه صديق قديم للفقيدة، لأنه يبدو أنها كانت امرأة مستهترة. وقد قيل لي أنه كانت جميلة جدا. هل عرفها السيد؟
- نعم.
قال البستاني وقد ارتسمت في عينيه ابتسامة خبيثة: كما عرفها الآخر.
- كلا. إنني لم أتحدث إليها قط.
- ومع ذلك تأتي لكي تزور قبرها؟.. هذه مكرمة منك حقا لأن الذين يأتون لزيارته لا يزحمون المقبرة.
- ألا يأتي أحد أذن؟
- لا أحد فيما عدا ذلك الشاب الذي أقبل مرة.
- مرة واحدة.
- نعم يا سيدي.
- ألم يأت بعد ذلك؟
- كلا. ولكنه سيأتي عندما يعود.
- هل أفهم من هذا أنه مسافر؟
- نعم.
- وهل تعرف أين هو؟
- أظن إنه ذهب لمقابلة أخت الآنسة جوتييه.
- لماذا؟
- إنه مضي إليها لكي تسمح له بإخراج الجثة ونقلها إلى مكان آخر.
- ولماذا لا يتركها في هذا القبر؟
- أنت تعلم يا سيدي أن للناس آراء غريبة في الموتى، ونحن نري هذا كل يوم. لقد اشتريت هذه البقعة من الأرض لمدة خمس سنوات فقط، وهذا الشاب يريد حكرا يدوم إلى الأبد، وبقعة أكبر، ومن الأفضل أن يكون ذلك في الحي الجديد.
- وماذا تعني بالحي الجديد؟
- والأراضي الجديدة التي يبيعونها الآن على اليسار. لو أن المقبرة عنى بها باستمرار كما يعني بها الآن لما كان الكثير لكي تبدو كما يجب أن تكون. ثم أن الناس غريبو الأطوار.

سألته: هل تعرف عنوان مسيو أرمان دوفال؟
- نعم. إنه يقيم بشارع... هذا هو العنوان الذي ذهبت إليه على كل حال لكي أتقاضي ثمن هذه الزهور التي تراها.
- شكرا لك يا صديقي.
قال البستاني، وكان يسير بجواري: هل يريد سيدي أن يري مسيو دوفال؟
- نعم.
- ذلك إنني واثق تماما من أنه لم يعد وإلا لكنت قد رأيته.
- أنت أذن مقتنع بأنه لم ينس مرجريت.
- لست مقتنعا فحسب وإنما أراهنك على أن رغبته في تغيير القبر ما هي إلا حجة لكي يراها هي.
- وكيف هذا؟
- كان أول ما نطق به عندما جاء إلى المقبرة هي هذه الكلمات: ما العمل لكي أرها مرة أخرى؟.. وهذا أمر لا يتسني إلا بنقلها من قبرها إلى قبر آخر، فأخبرته بجميع الإجراءات التي لابد من اتخاذها لكي يتمكن من هذا التغيير، ولا ريب إنك تعلم أنه لكي ينقل الموتى من قبر إلى آخر لابد من التحقيق منهم، وأسرة الميت وحدها هي التي يصرح لها بهذه العملية في حضور مأمور البوليس، وقد مضي مسيو دوفال إلى أخت جوتييه للحصول على هذا التصريح.
وكنا قد بلغنا باب المقبرة فشكرت البستاني من جديد ونقدته بعض النقود ثم مضيت إلى العنوان الذي ذكره لي.
ولم يكن أرمان قد عاد بعد.
وتركت له كلمة أرجوه فيها أن يأتي لمقابلتي بمجرد عودته أو أن يخبرني أين استطيع مقابلته.
وفي صباح اليوم التالي جاءتني منه كلمة يخبرني فيها بعودته ويرجوني أن أمضي لزيارته لأنه مرهق جدا ولا يمكنه الخروج.

(6)

وجدت أرمان في فراشه، وما أن رآني حتى بسط إلى يده الملتهبة فقلت له: أنت محموم.

- ليس هذا الشيء... تأثير التعب من رحلة سريعة.

- هل قدمت من عند أخت مرجريت؟

- نعم. من الذي قال لك هذا؟

- أعرف ذلك. وهل حصلت منها على ما تريد؟

- نعم. ولكن من أنباك بأمر هذه الرحلة وبالغرض منها؟

- بستاني المقبرة.

- هل رأيت القبر؟

ولم أقو على الرد، فقد كانت نبرات صوته وهو يلقي على بهذا السؤال تدل على أنه لا يزال يعاني من الانفعال الذي كنت شاهدا له، وأنه كلما فكر في هذا الأمر المحزن، أو كلما أعاده أحد إلى ذهنه يستبد به الحزن والانفعال ولا يستطيع إزاءهما شيئا، واكتفيت بأن أرد عليه بإيماءة من رأسي، فاستطرد: هل عني البستاني به؟

وانحدرت دمعتان كبيرتان على خديه، فأدار رأسه لكي يخفيهما عني. وقلت محاولا تغيير مجرى الحديث: مضت ثلاثة أسابيع منذ أن رحلت عني.

مر أرمان بيده على عينيه وأجاب: نعم. ثلاثة أسابيع حقا.

- كانت رحلتك طويلة.

- أوه، إنني لم أقض المدة كلها في السفر، فقد مرضت أسبوعين، ولولا ذلك لعدت منذ وقت طويل. ولكنني ما كدت أصل هناك حتى وقعت فريسة الحمى، واضطررت إلى ملازمة الفراش!

- وعدت قبل أن تتعافى تماما؟

- لو أنني بقيت ثمانية أيام أخرى لكنت من الهالكين.

- ولكن الآن وقد عدت، لابد لك من أن تعني بنفسك. سوف يأتي أصدقاؤك لزيارتك.. وسأكون أنا أولهم بعد أذنك.

- سأبرح الفراش بعد ساعتين.

- إنها لحماقة.

- لابد من ذلك.

- وما هو العمل العاجل الذي يحملك على ذلك؟

- يجب أن أمضي إلى مأمور البوليس.

- لماذا لا تكلف أحدا غيرك بهذه المهمة التي قد تضاعف مرضك؟

- هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يشفيني. يجب أن أراها. منذ أن علمت بموتها، وعلى الخصوص منذ أن رأيت قبرها وأنا لا أجد إلى النوم سبيلا. لا يمكن أن أتصور أن هذه المرأة التي فارقتها وهي في ريعان الشباب وروعة الفتنة والجمال قد ماتت، يجب أن أتأكد من ذلك بنفسي. يجب أن أرى ما فعله الله بهذه المخلوقة التي أحببتها كل هذا الحب، ولعل تقززي من منظرها يحل محل الذكري. سوف ترافقني.. إذا كان هذا لا يزعجك.

- ماذا قالت لك أختها؟

- لا شيء. دهشت وهي تري رجلا غريبا يريد أن يشتري بقعة من الأرض وأن يبني قبرا لمرجريت، ووقعت على التصريح الذي طلبته منها على الفور.

- صدقني وانتظر حتى تتعافي وتبرا مما أنت فيه قبل أن تقوم بهذه العملية.
- أوه. اطمئن فسوف أكون قويا. ومهما يكن فإنني سأجن لا محالة إذا لم أفرغ من هذه العملية بأسرع ما يمكن، فلعل ذلك يخفف من حزني ولوعتي. أقسم لك إنني لا أستطيع أن أهدأ إلا بعد أن أرى مرجريت، وقد يكون ظمأ الحمى هو الذي يحرقني، أو لعله حلم أرقي وسهادي أو حصيلة هذياني...
قلت أخاطبه: أنني أفهم، وأنا معك قلبا وقالبا. هل رأيت جوليا دوبرا؟
- نعم. أوه، رأيتها في نفس اليوم الذي عدت فيه أول مرة.
- هل سلمتك اليوميات التي تركتها مرجريت معها؟
- ها هي.
وأخرج أرمان من تحت وسادته حزمة من الأوراق ثم أعادها على الفور وهو يقول:
- أنني أعرف ما في هذه الأوراق عن ظهر قلب فمنذ ثلاثة أسابيع وأنا أقرأها عشر مرات كل يوم، وستقرؤها أنت أيضا، ولكن فيما بعد، عندما أكون أكثر هدوءا وعندما استطيع أن أبين لك ما في هذا الاعتراف من قلب وحب، أما الآن فأنني أريد زن أطلب منك خدمة.
- وما هي؟
- أفي الخارج عربة تنتظرك؟
- نعم.
ومضينا إلى مأمور البوليس، وقد أرمان إليه تصريح أخت مرجريت، وأعطاه المأمور بدلا منه إخطارا لحارس المقبرة، وثم الاتفاق على أن تنفذ عملية النقل في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي وأن آتي لاصطحابه قبل ذلك بساعة لكي نمضي إلى المقبرة، وشعرت أا الآخر بفضول كبير يدفعني لحضور هذه العملية، وأعترف بأنه لم يغمض لي جفن طوال الليل.
ونظرا للأفكار التي ألحت على، لابد أن الليلة كانت طويلة جدا لأرمان.
وعندما دخلت غرفته في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي كان شاحب الوجه بصورة مخيفة ولكنه كان يبدو هادئا.
وابتسم لي ومد يده. وبعد نصف ساعة بلغنا مونمارتر. وكان مأمور البوليس في انتظارنا، فمضينا جميعا نحو قبر مرجريت على مهل، وكان المأمور يتقدمنا، أما أنا وأرمان فكنا نمشي بعده.
وتوقفنا قبل القبر بقليل. ووقف أرمان لكي يجفف وجهه الذي تفصد بالعرق. وانتهزت هذه الفرصة لكي التقط أنفاسي لأن قلبي كان منقبضا كما لو أن مكبسا يعصره عصرا.
من أين تأتينا تلك المتعة التي تدفعنا إلى رؤية مثل هذه المناظر؟ كان البستاني قد رفع كل أواني الزهور وأزال الحاجز الحديدي، وكان هناك رجلان يفحران الأرض بمعوليهما.
واستند أرمان إلى شجرة وانتظر، وبدا كان كل حياته تمر أمام عينيه. وفجأة ارتطم أحد المعولين بحجر، وارتد أرمان عند سماعة هذا الصوت. كما لو أن تيارا كهربائيا شديدا مسه، وشد على يدي بقوة آلمتني.
وأخذ أحد الحفارين جاروفا كبيرا وبدأ يزيل التراب، ولم يعد هناك غير الأحجار التي تغطي التابوت، أخذ يلقيها خارج الحفرة الواحد بعد الآخر.
ورحت أراقب أرمان. كان يركز كل احساساته ظاهريا حتى لا يظهر شيء مما يعتمل في أعماقه، ولكنني خشيت أن يغلبه الانفعال فيحطم كل شيء فيه. ألا أنه ظل ينظر باستمرار بعيني ثابتتين متسعتين كما لو أن مسا من الجنون قد أصابه، ورأيت رجفة خفيفة على شفتيه

ووجنتيه نمت هي وحدها على فرط ما يعانيه من انفعال عنيف.
أما أنا فلا يسعني إلا أن أقول شيئا واحدا وهو إنني ندمت على الحضور.
كان التابوت مصنوعا من خشب البلوط الثمين، وراح الرجلان يرفعان المسامير، وكان قد صدأت بتأثير الرطوبة. وانفتح التابوت أخيرا، وانبعثت منه رائحة عفنة على الرغم من الأعشاب العطرية التي تحيط بالجثة.
وتمتم أرمان: أوه... أوه... يا إلهي!
وازداد امتقاع وجهه... حتى الرجلان ارتدا متقززين.
كانت الجثة مكسوة بكفن أبيض كشف عن بعض تموجاتها، وكان قد تآكل تقريبا من أحد طرفيه وبرزت منه أحدى قدمي الجثة.
وشق الأمر علي وكدت أقع من هول المنظر، وفي الساعة التي أكتب فيها هذه السطور ما زال هذا المنظر يؤرقني ويبدو لي في حقيقته البشعة.
قال المأمور: لنسرع.
وتقدم أحد الرجلين عندئذ وراح بفك الكفن ثم شده من أحد طرفيه وكشف عن وجه مرجريت.
كان منظرا بشعا حقا لا يطاوعني القلم على وصفه.
لم تكن العينان غير ثقبين، واختفت الشفتان وتلاحمت الأسنان، والتصق الشعر الطويل الجاف بالصدغين وحجب تجويفتي الخدين شيئا ما. ومع ذلك عرفت في هذا الوجه الأبيض ذي العينين المتوردتين المرحتين الذي سبق أن رأيته مرارا.
ولم يستطع أرمان أن يحول بصره عن هذا الوجه ورفع منديله إلى فمه وراح يجز عليه بأسنانه.
أما أنا فقد خيل لي كأن حلقة من الحديد تطبق على رأسي، وغشيت عيني سحابة وامتلأت أذني بالطنين، وكل ما أمكنني أن أفعل هو إنني فتحت قنينة كنت قد جئت بها معي وأن استنشق الأملاح التي بها في قوة.
ووسط كل هذا الذهول سمعت المأمور يقول لمسيو دوفال: هل تحققت الآن؟
أجاب الشاب في صوت أصم: نعم.
قال المأمور: أغلقا التابوت أذن وانقلاه.
وأعاد اللحادان الكفن فوق وجه الجثة ثم أغلقا التابوت وحملاه معا ومضيا به نحو المكان الذي عين لهما.
أما أرمان فلم يتحرك. كان يحدق بعينيه في الحفرة الفارغة.
كان شاحبا شحوب الجثة التي رأيناها منذ لحظات.
وأدركت ما سوف يقع عندما يخفف الألم نتيجة لغياب الجثة فلا يتحمل ذلك فدنوت من القوميسير وسألته وأنا أشير إلى أرمان.
- هل لابد من وجود هذا السيد بعد الآن؟
أجابني: كلا. وأنصحك أن ترافقه لأنه يبدو مريضا.
وقلت عندئذ لأرمان وأنا آخذه من يده: تعال.
قال وهو ينظر إلى كأنه لا يصدقني: ماذا؟
أردفت: لقد انتهي كل شيء. يبجب أن تنصرف الآن يا صديقي.
انك شاحب ومقهور وستقتل نفسك بانفعالاتك هذه.

أجابني آليا: أنت على صواب. هلم بنا.
ولكنه لم يتحرك. وتأبطت ساعده عندئذ وجررته جرا.
وانقاد لي كما لو كان طفلا وهو يتمتم: هل رأيت عيناها؟
وكان يلتفت إلى الوراء كما لو أن هذه الرؤية تلح عليه.
ومع ذلك فقد راح يمشي في خطوات مهتزة غير منتظمة، وأخذت أسنانه تصطك. وكانت يداه باردتين وانتابته رعشة عصبية هزت كيانه كله.
وكنت أتحدث إليه فلا يجيب، وكل ما استطاع أن يفعل هو انقياده لي. ووجدنا عربة خارج المقبرة. وما كاد يأخذ مكانه منها حتى زادت رعشته وأصابته أزمة عصبية حادة تمتم يقول خلالها وهو يضغط على يدي لكي يطمئنني: ليس بي شيء.. أود أو أن أبكي.
وعندما بلغنا البيت كانت الرعشة وحدها لا تزال تلازمه.
وأرقدته في فراشه بمساعدة الخادم، وأشعلت نارا كبيرة في غرفته، ثم خرجت أبحث عن طبيب رويت له ما حدث.
وأسرع الطبيب معي.
كان أرمان مضطرم الوجه، وكان يهذي ويتلعثم بكلمات لا معني لها لم أميز منها غير اسم مرجريت فقط.
وسألت الطبيب بعد أن فرغ من فحصه: حسنا؟
- انه أصيب بحمي مخية لا أقل ولا أكثر، وهذا من حسن حظه، لأنني أعتقد انه لولا ذلك لاستولي عليه الحزن. ومن حسن الحظ أن المرض البدني سيتغلب على المرض النفسي، وبعد شهر قد ينجو منهما معا.

(7)

وللأمراض الشبيهة بمرض أرمان ميزة جميلة وهي أما أن تقتل صاحبها على الفور وأما يتغلب صاحبها عليها سريعا، فبعد خمسة عشر يوما من الأحداث التي رويتها كان أرمان في دور النقاهة، وكانت قد ربطت بيننا صداقة قوية متينة. ولم أغادر غرفته طوال فترة مرضه إلا فيما ندر.

كان الربيع قد أفرط في بذر ثماره وزهوره وأوراقه وعصافيره وأغانيه، وكانت نافذة صديقي تطل على حديثة غناء تسطع فيها أشعة الشمس وتبعث إلينا بشذاها الطيب الصحي.

وكان الطبيب قد أذن له بأن ينهض، وكنا نجلس ونتحدث في أغلب الأوقات بجوار النافذة حيث الشمس حامية من الظهر حتى الساعة الثانية.

وكنت أحرص على ألا أحدثه عن مرجريت خوفا من أن يثير فيه هذا الاسم ذكري حزينة هاجعة تحت هدوء المرض الظاهري، ولكن بدا أن أرمان، على العكس من ذلك يستطيب الحديث عنها لا كما كان يفعل من قبل، غير أن الابتسامة الحلوة التي كنت أراها على وجهه كانت تبعث في نفسي الاطمئنان عليه.

كنت قد لاحظت منذ زيارته الأخيرة للمقبرة، منذ ذلك المنظر الذي تسبب في هذه الآونة الحادة أن مرضه قد خفف من آلامه النفسية، وأن موت مرجريت لم يعد يبدو له إلا كماض اندثر. ونتج عن هذا الإحساس نوع من السلوى، ولكي يطرد الصورة الكثيبة التي تتمثل في مخيلته داىٔما كان يستغرق في ذكرياته السعيدة وفي علاقته بمرجريت، ويبدو أنه لا يقبل عن هذه الذكريات بديلا.

وكان قد رفض في إصرار كبير أن يطلع أسرته على الخطر الذي يتعرض له، وعندما شفي كان أبوه لا يزال يجهل مرضه.

وذات مساء، وكنا نجلس بجوار النافذة، وقد تقدم بنا الوقت أكثر من المعتاد، فقد كان الطقس جميلا والشمس تغرب في شفق متألق بالذهب واللازورد. ورغم إننا كنا في باريس فإن الخضرة التي تحيط بنا كان يبدو إنها تعزلنا عن العالم، ولم يكن يعكر حديثنا إلا صوت عربة تمر من وقت لآخر.

قال أرمان وهو يصغي إلى أفكاره هو بالذات، غير مهتم بما كنت أقول: في مثل هذا الوقت من السنة، وفي مساء يوم كهذا تعرفت على مرجريت.

وإذ رآني لا أنطق بكلمة تحول إلى وقال لي: ومع ذلك فيجب أن أذكر لك هذه القصة. سوف تصدرها في كتاب ولن يصدقها أحد، ولكن قد يهمك أن تكتبها.

قلت له: سوف تذكرها لي فيما بعد. فأنت لم تبرأ من علتك تماما.

قال وهو يبتسم: أن الليلة دافئة، وقد أكلت صدر الفرخة، وزالت عني ألحمي، وليس لدينا ما نفعل، وسأذكر لك كل شيء.

- ما دمت تصر على ذلك فأنني مصغ إليك.

وأردف يقول عندئذ: إنها قصة بسيطة جدا، وسأذكرها لك بترتيب أحداثها، وإذا سجلتها في كتاب فيما بعد، فأنت حر في أن تصوغها كما تريد.

وإليكم القصة التي رواها لي، ولم أغير فيها شيئا تقريبا، فيما عدا بضع كلمات اقتضاها سياق الحديث.

***

قال أرمان وهو يعتمد برأسه على ظهر مقعده:

- نعم.. نعم.. كان ذلك في ليلة كهذه. وكنت قد قضيت النهار في الريف مع صديق لي يدعي جاستون ر.. وعدنا في المساء إلى باريس. وإذ لم ندر ما نفعل مضينا إلى مسرح الفاريتيه.
وفي الاستراحة خرجنا إلى طرقات المسرح، ورأينا سيدة طويلة القامة تمر بنا حياها صديقي فسألته: من هذه؟
أجاب: مرجريت جوتييه.
قلت في انفعال سوف تفهمه فيما بعد: يخيل لي إنها تغيرت كثيرا لأنني لم أعرفها.
- ذلك إنها كانت مريضة. إنها فتاة مسكينة لن تعمر طويلا.
وإنني لأذكر هذه الكلمات كما لو أنها قيلت لي بالأمس بالذات.
ويجب أن تعرف أيها الصديق إنني منذ سنتين، كان منظر هذه الفتاة، عندما كنت ألتقي بها يسبب لي إحساسا غريبا. وأن لي صديقا يهتم بعلوم السحر والتنجيم ووصف إحساسي هذا بأنه نوع من الجاذبية. أما أنا فإنني أعتقد بكل بساطة بأنه كان مقدرا أن أعشق مرجريت وأنني كنت أستشعر ذلك.
مهما يكن فقد كنت أشعر بتأثير غريب عندما كنت التقي بها، وكان أصدقائي شهودا له، وقد سخروا مني حين عرفوا سبب هذا التأثير.
رأيتها لأول مرة في ميدان البورصة، أمام محل سوس، فقد كانت هناك عربة مكشوفة هبطت منها سيدة ترتدي ثيابا بيضاء، واستقبلتها همسات الإعجاب. أما أنا فقد تسمرت في مكاني منذ اللحظة التي دخلت فيها المحل حتى تلك التي غادرته فيها. كنت أراها من خلال الألواح الزجاجية وهي تختار في المحل ما أقبلت لكي تبتاعه. وكان في مقدوري أن أدخل ولكنني لم أجد الجرأة على ذلك لم أكن أعرف شيئا عنها، وخشيت أن تفهم السبب في دخولي المحل ويتملكها الغيظ، ولم أكن أتوقع أن أرها بعد ذلك.
كانت شديدة الأناقة، ترتدي ثوبا من الموسلين تحوطه أهداب، وشالا هنديا أركانه موشاة بالذهب وبزهور حريرية، وقبعة من القش الايطالي واسورة واحدة وسلسلة من الذهب، وهو ((المودة)) الشائعة في ذلك الوقت.
وعادت إلى عربتها وانطلقت بها.
ووقف أحد عمال المحل على الباب وراح يتابع بعينيه العملية الأنيقة. واقتربت منه ورجوته أن يخبرني باسم هذه المرأة.
- إنها الآنسة مرجريت جوتييه.
ولم أجرؤ أن أساله عن عنوانها وابتعدت.
وعلقت صورة هذه المرأة بذهني، ولم تبرحها كما برحتها صور نساء أخريات كثيرات قبل ذلك، ورحت أبحث في كل مكان عن هذه المرأة ذات الثياب البيضاء والفائقة الجمال.
وبعد بضعة أيام قدم مسرح الأوبرا ((كوميك)) مسرحية جديدة فمضيت لمشاهدتها، وكان أول شخص رأيته في مقصورة المسرح بالدور الأرضي هو مرجريت جوتييه.
وعرفها الشاب الذي كنت برفقته على الفور لأنه قال لي وهو يشير إليها: هل تري هذه الفتاة الجميلة؟
وفي هذه اللحظة حولت مرجريت منظارها نحونا ورأت صديقي وابتسمت له وأشارت إليه.
وخاطبني قائلا: سأذهب لتحيتها وأعود بعد لحظة.
ولم أملك إلا أن أقول له: إنك سعيد الحظ.
- ولماذا؟

- لأنك ذاهب للتحدث إليها.
- أتكون عاشقا لها؟
أجبت وقد اضطرم وجهي لأنني لم أكن أعرف حقيقة شعوري:
- كلا. ولكنني أود لو أن أتعرف بها.
- تعال معي فأقدمك إليها.
- استئذنها في ذلك أولا.
- آه...
آلمني قوله هذا وارتجفت في يقيني بأن مرجريت ليست جديرة بذلك الشعور الذي أحسه نحوها. ومع ذلك فقد أردت أن أتعرف بها، فقد كانت هذه هي الوسيلة، والوسيلة الوحيدة لكي أعرف موقفي حيالها، ولهذا قلت لصديقي أنني أصر على أن تسمح له بأن يقدمني إليها أولا، ورحت أتمشي في ردهات المسرح وأنا أتصور أنها سوف تراني وإنني لا أدري كيف سيكون مسلكي معها، وحاولت أن أعد مسبقا ما سوف أقول لها.
وما الحب إلا أعمال صبيانية سامية!
وبعد لحظة هبط صديقي وقال لي: إنه ا تنتظرنا.
فسألته: أهي وحدها؟
- معها سيدة أخرى.
- أليس هناك رجال؟
- كلا.
- هلم بنا.
ومضي صديقي إلى باب المسرح فهتفت به: ولكن أين تذهب؟
- سنذهب لنأتيها ببعض الحلوى... إنها طلبت منى ذلك.
وقصدنا إلى محل للحلوى في ممر الأوبرا، ووددت أن أبتاع كل ما به ورحت أنظر حولي وأتساءل عما يجب ابتياعه عندما قال صديقي: أعطني رطلا من الزبيب المثلج.
- وهل أنت واثق إنها تحبه؟
- أنها لا تتناول شيئا آخر أبدا.
واستطرد يقول بعد أن خرجنا: هل تعرف إلى أي نوع من النساء سأقدمك؟ لا تتصور أنها دوقة. إنها ليست أكثر من غانية... أنها من بنات الهوى يا عزيزي، فلا ترتبك في حضرتها وانطلق بكل ما يخطر ببالك.
قلت: حسنا... حسنا.
وتبعته وأنا أقول لنفسي إنني سوف أبرا من حبي.
وعندما دخلت المقصورة كانت مرجريت تضحك في صوت مرتفع، ووددت لو أنها كانت حزينة.
وقدمني صديقي إليها. وأحنت لي مرجريت رأسها انحناءة خفيفة وقالت: والحلوى؟
- ها هي.
ونظرت إلى وهي تأخذ الحلوى، فغضضت من بصري واضطرم وجهي. وانحنت مرجريت فوق إذن صاحبتها وهمست لها ببضع كلمات وانفجرتا ضاحكتين.
كنت بطبيعة الحال سبب هذا الضحك، فازداد ارتباكي.
وكانت مرجريت تلتهم الزبيب دون أن تحفل بي، ولم يشأ صديقي أن يتركني في ذلك الموقف

فقال:
- مرجريت، لا يجب أن تأخذك الدهشة إذا كان مسيو دوفال لا يقول لك شيئا، فإنك أثرته بحيث لا يطاوعه الكلام.
- بل أظن إنك اصطحبته لأنه يضجرك أن تأتي وحدك.
قلت بدوري: لو صح هذا لما رجوت أرنست أن يستئذنك لكي يقدمني إليك.
- لعل ذلك لم يكن إلا وسيلة لتأخير اللحظة المحتومة.
ومن يخالط الفتيات اللاتي من نوع مرجريت، حتى ولو لفترة قصيرة، ويعرف ما يشعرن به من سرور في مضايقة من يلتقين بهن لأول مرة، ولا ريب إنهن ينتقمن بذلك من المهانات التي يتعرضن لها من قبل هؤلاء الذين يرونهم كل يوم.
ولهذا لابد لمن يرد عليهن أن يألف طباعهن وعاداتهن، وهو شيء لم يتيسر لي، ثم أن الفكرة التي كونتها عن مرجريت ضاعفت من مداعبتها. وآلمني ذلك خاصة وأنني أحسست بميل شديد إليها وأنا أقول في اضطراب لم أستطع إخفاءه تماما:
- إذا كان هذا هو رأيك يا سيدي فلا يسعني إلا أن أعتذر لك عن تطفلي وأن أستئذنك في الانصراف مؤكدا أن هذا لن يتكرر.
ثم حييتها وانصرفت. وما أن أغلقت الباب خلفي حتى سمعت قهقهة عالية للمرة الثالثة، وودت لو أن أحدا كان معي ليساندني.
وعدت إلى مقعدي، وسمعت دقات على خشبة المسرح تعلن عن استئناف التمثيل، وعاد أرنست وقال وهو يجلس إلى جواري:
- ما هذا الذي فعلت؟.. إنهما تعتقدان إنك مجنون.
- ماذا قالت مرجريت عندما انصرفت؟
- ضحكت وأكدت لي أنها لم تر أبدا رجلا غريب الأطوار مثلك، ولكن ما عليك. لا يجب أن تولي هذه الفتيات شرف معاملتهن جديا فهن لا يعرفن ما هي الأصول ولا ما هو الأدب. إنهن كهؤلاء الكلاب التي يضمخونها بالعطور فيسوؤها ذلك وتسرع وتتمزغ في الأوحال.
قلت وأنا أحاول أن أتكلم في غير اكتراث: وفيم يهمني كل هذا؟.. إنني لن أرى هذه المرأة بعد ذلك، وإذا كانت قد راقت لي قبل أن أعرفها فقد تغير الحال الآن بعد أن عرفتها.
- آه... ومع ذلك فإنني لن أقطع الأمل في أن أراك ذات يوم تتصدر مقصورتها، وفي أن أسمع إنك أفلست بسببها. ومهما يكن فأنت على حق فهي ليست امرأة مهذبة. ولكنها عشيقة جميلة يطيب للمرء أن يحظي بها.
ولحسن الحظ رفعت الستار في هذه اللحظة فسكت صديقي عن الكلام. ويتعذر على أن أقول لك ماذا يدور على خشبة المسرح في تلك الليلة، ولكن كل ما أتذكره هو إنني كنت من وقت لآخر ارفع عيني إلى المقصورة التي غادرتها هكذا فجأة والتي كان الزائرون الجدد يتعاقبون عليها في كل لحظة.
ومع ذلك فإنني لم أستطع اقصاء مرجريت عن ذهني، فقد أستولي على شعور آخر. خيل لي أنه لابد من أن أتناسي أهانتها وموقفي المضحك. ورحت أقول لنفسي أنني سوف أنال هذه الفتاة ولو اضطررت أن أنفق كل ما أملك في سبيل ذلك وأن أحتل بحق المكان الذي تركته هكذا سريعا.
وغادرت مرجريت وصديقتها المقصورة قبل انتهاء العرض، فغادرت مكاني رغما عني، وقال لي أرنست: أتنصرف؟

- نعم.

- لماذا؟

وفي هذه اللحظة رأى أن المقصور قد خلت من مرجريت وصاحبتها فقال: اذهب... اذهب وأتمنى لك التوفيق...

وخرجت.

وسمعت في الدرج حفيف أثواب وأصواتا فأفسحت الطريق، ومرت بي المرأتان والشابان اللذان يرافقانهما دون أن يراني أحد.

وأمام باب المسرح تقدم منهم غلام قالت له مرجريت: أذهب وقل للحوذي أن ينتظرنا أمام باب المقهى الانجليزي، فإننا سنذهب هناك سيرا على الأقدام.

وبعد بضع دقائق، وبينما كنت أسير جيئة وذهابا أمام المطعم المذكور رأيت مرجريت تطل من إحدى نوافذ المطعم وفي يدها باقة من زهور الكاميليا راحت تنتزع وريقاتها الواحدة بعد الأخرى.

وكان أحد الرجلين منحنيا فوق كتفها ويحادثها في صوت خافت.

ومضيت إلى مقهى ميزون دور المقابل وجلست في إحدى صالات الدور الأول ولم أفارق بعيني النافذة المذكورة.

وفي الساعة الواحدة صباحا ركبت مرجريت عربتها وبرفقتها أصدقاؤها الثلاثة. وركبت عربة وتبعتهم. وتوقفت العربة الأولى أمام البيت رقم 9 بشارع إنتان وهبطت منها مرجريت ودخلت بينها بمفردها.

ولعل ذلك كان صدفة، ولكن هذه الصدفة ملأتني غبطة.

وقد التقيت بمرجريت بعد ذلك سواء في المسرح أو في الشانزليزيه، وكنت أراها مرحة دائما في حين إنني لم أكن أراها حتى يتملكني نفس الانفعال، ومع ذلك فقد مضت خمسة عشر يوما دون أن أراها في أي مكان. والتقيت بجاستون وسألته عن أخبارها فأجابني: أن الفتاة المسكينة مريضة.

- وماذا بها؟

- إنها مريضة بداء الصدر، وحيث إنها تعيش حياة لا تمكنه من الشفاء من هذا المرض فهي تلازم الفراش وتحتضر.

والقلب عجيب حقا فقد سررت تقريبا لمرضها هذا.

وكنت أمضي كل يوم لاستقاء أنباء المريضة دون أن أعلن عن اسمي أو أترك بطاقتي. وعلمت بأنها أصبحت في دور النقاهة وبأنها رحلت إلى بانيير.

ومرت الأيام، وبدأ أن تأثيرها وذكراها قد أمحيا شيئا فشيئا من ذهني. وكثرت أسفاري وانشغلت عنها بأعمالي، وكنت كلما فكرت في هذه المغامرة الأولى لا أرى فيها إلا هوى من هذه الأهواء التي يمر بها الشباب والتي تثير ضحكهم وسخريتهم بعد ذلك بقليل.

ثم إنه لم يكن هناك أية قيمة لانتصاري هذا على هذه الذكري لأن مرجريت غابت عن نظري منذ رحيلها، وكما قلت لك، عندما مرت بجواري في ردهة الفاريتيه لم أعرفها.

وصحيح إنها كانت تضع على وجهها خمارا، ولكن لو إنني رأيتها قبل ذلك بسنتين وعلى وجهها الخمار لما كانت بي حاجة إلى أن أعرفها وإنها كنت أخمنها.

غير أن هذا لم يمنع قلبي من الخفقان عندما عرفت من هي. واختفي العامان اللذان انقضيا دون أراها فيهما، واختفت عواقب هذا الفراق مع لمسة ثوبها.

(8)

واستطرد أرمان يقول بعد وقفة قصيرة: ومع ذلك، أحسست، مع ادراكي بأنني ما زلت أحبها، بأنني أقوى من ذي قبل، واقترنت رغبتي في أن ألتقي بها برغبتي في أن أثبت أنني أصبحت متفوقا عليها.

وما أكثر الوسائل والأسباب التي يلجأ إليها القلب للوصول لما يريد!

لم أستطع البقاء وقتا طويلا في الردهة، وعدت إلى مكاني في صالة المسرح وأنا ألقي نظرات سريعة حولي لكي أرى في أية مقصورة تجلس.

كانت في مقصورة المسرح بالدور الأرضي وبمفردها. وكانت قد تغيرت كما قلت لك فلم أر على شفتيها تلك الابتسامة التي تدل على عدم الاكتراث. كانت قد تألمت ولا تزال تتألم.

وعلى الرغم من أننا في شهر إبريل في ذلك الوقت فقد كانت لا تزال ترتدي ثياب الشتاء وتتدثر بمعطف من القطيفة.

ورحت أنظر إليها في إصرار.

ورايتها تتبادل النظر مع شخص في المقصورة المواجهة لها فألقيت نظرة على هذه المقصورة ورأيت فيها سيدة كنت أعرفها معرفة وثيقة.

كانت تلك السيدة غانية قديمة حاولت احتراف التمثيل وأخفقت فاعتمدت على معرفتها بأنيقات باريس وافتتحت لها محلا للأزياء.

ووجدت فيها وسيلة لمقابلة مرجريت، وانتهزت الفرصة حين التقت نظرة ناحيتي وحييتها بحركة من يدي.

وحدث ما توقعت ودعتني إلى مقصورتها.

كانت هذه السيدة، وتدعي برودنس دوفرنوا، امرأة بدينة في الأربعين من عمرها، من تلك السيدات اللاتي لا يحتاج المرء معهن إلى لباقة كبيرة كي يحملن على الإفضاء بما يريد معرفته خصوصا إذا كان المراد معرفته أمر بسيط وسهل كذلك الذي أريده منها.

وانتهزت الفرصة حين رأيتها تتبادل النظر مع مرجريت وسألتها: من تلك السيدة التي تنظرين إليها هكذا؟

- مرجريت جوتييه.
- أتعرفينها؟
- نعم. إنني أصنع قبعاتها ثم إنها جارتي.
- أتقمين أذن في شارع انتان؟
- نعم، في البيت رقم 7. وغرفة زينتها تطل على غرفتي.
- يقولون أنها فتاة ظريفة.
- ألا تعرفها؟
- كلا. ولكنني أود أن أتعرف بها.
- هل تريد أن أدعوها إلى مقصورتنا.
- كلا. بل أفضل أن تقدميني إليها.
- في بيتها؟
- نعم.
- هذا أمر صعب.

- ولماذا؟
- لأنها تعيش في حماية دوق مسن يغار عليها جدا.
- أن كلمة ((حماية)) هذه كلمة ظريفة.

عادت برودنس تقول: نعم. إنها تعيش في حمايته، فان الرجل المسكين يضجره أن يكون عشيقها.

وروت لي برودنس عندئذ كيف تعرفت مرجريت بالدوق في بانيير، فقلت: أهذا هو السبب في أنها بمفردها هنا؟

- نعم.
- ولكن من الذي سيرافقها إلى بيتها؟
- هو نفسه.
- سيأتي لاصطحابها إذن؟
- بعد لحظات.
- وأنت؟.. من الذي سيرافقك؟
- لا أحد.
- إنني رهن أمرك.
- ولكنني أراك مع صديق.
- يسره أن يكون رهن أمرك هو الآخر. إنه شاب ظريف لطيف.
- حسنا. اتفقنا. سننصرف نحن الأربعة بعد هذا الفصل.
- كما تشائين. سأذهب لإخطار صديقي.

قالت: اذهب.

واستأنفت تقول وأنا أهم بالخروج: آه. ها هو الدوق.

ورفعت عيني فرأيت رجلا في السبعين من عمره يجلس خلف المرأة الشابة ويعطيها كيسا من الحلوى أخذت تأكد منها على الفور وهي تبتسم وتحادث الدوق في نفس الوقت.

وهذه التفاصيل التي أذكرها لك الآن تفاصيل صبيانية، ولكن كل ما له صلة بهذا الفترة مطبوع هنا، وفي ذهني، بحيث لا يسعني إلا أن أتذكره اليوم.

وعدت إلى جاستون، وأخبرته بما تم الاتفاق عليه فوافق، وغادرنا مقعدينا ومضين إلى مقصورة مدام دوفرنوا.

ولكننا ما كدنا ندلف إلى الردهة حتى اضطررنا إلى التنحي جانبا لنفسح الطريق للدوق ومرجريت، وكانا يهمان بالانصراف.

وأحسست عندئذ بأنني على استعداد للتنازل عن عشر سنوات من عمري لكي أكون مكان هذا الدوق العجوز.

وإذ بلغا الشارع أجلسها في مركبة مكشوفة ساقها هو بنفسه، واختفيا مع وقع حوافر جواديهما.

ودخلت مقصورة برودنس. وبعد أن انتهت المسرحية ركبنا عربة مضيت بنا إلى رقم 7 بشار إنتان. وعندما بلغنا البيت دعتنا مدام برودنس إلى الصعود معها لترينا موديلاتها، وكانت فخورة بها جدا.

بدا لي إنني أقترب شيئا من مرجريت. ولم البث أن أدرت دفة الحديث إليه فقلت: هل الدوق

العجوز مع جارتك الآن؟
- كلا. إنها بمفردها.
قال جاستون: ولكنها سوف تشعر بضجر فظيع.
- إننا نقضي كل سهراتنا تقريبا معا، وهي تدعوني دائما عند عودتها، فهي لا تأوي إلى فراشها أبدا فيها الساعة الثانية صباحا.
- لماذا؟
- لأنها مريضة بصدرها ودائما ما تكون محمومة.
سألتها: أليس لها عشاق؟
- لم أر أحدا قط يبقي بعد انصرافي. ولكنني لست واثقة من أن أحدا لا يأتي بعد أن أنصرف. وأحيانا التقي عندها في المساء بالكونت ن..، فهو يعتقد أنه يعجل بما يريد بزيارتها في الساعة الحادية عشرة، ويرسل إليها ما تريد من مجوهرات، ولكنها لا تستطيع احتماله، وهي مخطئة في ذلك فهو شاب واسع الثراء.
قال جاستون وهو يجلس أمام المعزف ويعزف مقطوعة راقصة:
- آه.. يا لمرجريت المسكينة! لم أكن أعرف شيئا من هذا، ومع ذلك فأنني أراها أقل مرحا من أي وقت آخر.
قالت برودنس وهي تصيخ السمع: صه.
توقف جاستون عن العزف على الفور في حين قالت برودنس:
- أطن أنها تناديني.
والواقع إننا سمعنا صوتا ينادي برودنس. وقالت هذه الأخيرة:
- هيا أيها السيدان... يجمل بكما أن تنصرفا الآن.
قال جاستون ضاحكا: أهكذا هو مفهومك عن الضيافة. سننصرف عندما يحلو لنا ذلك.
وسألتها: ولماذا تريدين منا أن ننصرف؟
أجابت: لأنني سأذهب إلى مرجريت.
- سننتظرك هنا.
- هذا لا يمكن أن يكون.
- سنذهب معك إذن.
- وهذا كذلك لا يمكن أن يكون.
قال جاستون: أنني أعرف مرجريت. ويمكنني أن أذهب لزيارتها طبعا.
- ولكن أرمان لا يعرفها.
- سوف أقدمه إليها.
- هذا محال.
وسمعنا من جديد صوت مرجريت تنادي برودنس. وأسرعت هذه إلى غرفة زينتها. وتبعتها أنا وجاستون. وفتحت برودنس النافذة فاختبأنا بحيث لا يمكن لمرجريت أن ترانا. وقالت هذه الأخيرة من نافذتها في لهجة حاسمة: إنني أناديك منذ عشر دقائق.
- ماذا تريدين؟
- أن تأتي فورا.
- لماذا؟

- لأن الكونت هنا، ولأنني أشعر مه بالضجر حتى الموت.
- لا أستطيع الحضور الآن.
- وما الذي يمنعك؟
- أن عندي شابان لا يريدان الانصراف.
- قولي لهما أنه لابد أن تخرجي.
- قلت لهما ذلك.
- حسنا. أتركيهما بالبيت. فإذا ما انصرفت انصرفا بدورهما.
- نعم، ولكن ذلك لن يكون إلا بعد أن يقلبا البيت رأسا على عقب.
- ماذا يريدان إذن؟
- يريدان مقابلتك.
- ومن هما؟
- إنك تعرفين أحدهما.. مسيو جاستون ر...
- آه، إنني أعرفه.. ومن الآخر؟
- مسيو أرمان دوفال.. هل تعرفينه؟
- كال. ولكن لا بأس من أن تصحبيهما معك، فأنني أوثر صحبتهما على صحبة الكونت... أنني في انتظاركم، فتعالوا حالا.
وأغلقت مرجريت نافذتها. وحذت برودنس حذوها.
لم تتذكر مرجريت اسمي رغم أنها تذكرت وجهي لحظة. وكنت أوثر أن تحتفظ عني بذكري سيئة على أن تنساني، وقال جاستون: كنت أعلم إنه سيطيب لها أن ترانا.
أجابت برودنس وهي تضع فوق كتفيها شالا وتلبس قبعتها:
- ليس الأمر كما تقول. إنها رضيت أن تستقبلكما لكى ترغم الكونت على الانصراف، فكونا أكثر منه لطفا ورقة، وإلا فأنني أعرف مرجريت، سوف تخاصمني.
وتبعتنا برودنس وهي تهبط، وكنت أرتجف، فقد خيل لي أن هذه الزيارة سيكون لها أكبر الأثر في حياتي.
كنت أكثر اضطرابا وانفعالا عني في تلك الليلة التي قدمت إليها فيه لأول مرة في مقصورة مسرح الأوبرا كوميك. وعندما بلغنا باب المسكن الذي تعرفه راح قلبي يدق في عنف بحيث كاد عقلي أن يطير.
وتناهت إلينا بعض نغمات على البيان. وطرقت برودنس الباب فتوقف العزف. وفتحت لنا امرأة بدا من مظهرها أنها وصيفة أ:ثر منها خادمة. ومضينا إلى غرفة الاستقبال ومنها إلى المخدع الذي رأيته. ورأينا شابا يعتمد بذراعه على المدفأة ومرجريت جالسة أمام البيان وأناملها تجري على مفاتيحه في مقطوعات لا تتمها. كانت الغرفة تنطق بالضجر والملل، فالرجل ضجر من حيرته واضطرابه لتفاهته والمرأة ضجرت م هذا الرجل الكئيب.
وعندما سمعت مرجريت صوت برودنس نهضت وأسرعت للقائنا بعد أن تبادلت نظرة شكر مع مدام دوفرانوا، قالت:
- ادخلوا أيها السادة، على الرحب والسعة.

(9)

قالت مرجريت مخاطبة صديقي: مساء الخير يا عزيزي جاستون... يسرني أن أراك. لماذا لم تأت إلى مقصورتي؟

- خشيت أن أكون متطفلا.

- أن الأصدقاء لا يكونون متطفلين أبدا.

وشددت الضغط على كلمة الأصدقاء كما لو كانت تريد أن تحمل الموجودين على أن يفهموا أن جاستون لم يكن أبدا ولن يكون أكثر من صديق.

- هل تسمحين لي أذن أن أقدم إليك مسيو أرمان دوفال؟

- لقد سمحت لبرودنس بذلك.

قلت عندئذ بصوت يكاد لا يسمع وأنا أنحني: إنني سبق أن تشرفت بمعرفتك يا سيدتي.

بدا في عين مرجريت الساحرة أنها تبحث في ذاكرتها ولكنها لم تتذكر، أو بدا أنها لم تتذكر فعدت أقول:

- سيدتي، إنني أشكرك إذ نسيت هذه المقابلة الأولى لأنني أثرت فيها سخريتك وضجرك. كان ذلك منذ سنتين في الأوبرا كوميك، وكنت برفقة أرنست دي...

هتفت مرجريت وهي تبتسم: آه... وهي تبتسم إنني أتذكر. لم تكن أنت مثيرا لسخريتي وإنما أنا التي كنت أشعر بالضيق كما أشعر به قليلا الآن. هل غفرت لي يا سيدي؟

وبسطت لي يدها فطبعت عليها قبلة. وقالت: هذا صحيح. تصور أن من عادتي أن أزعج من أراه لأول مرة، وهذه حماقة مني، ويعزو طبيبي ذلك إلى إنني عصبية ومريضة دائما، وأرجو أن تصدق طبيبي.

- ولكنني أراك في صحة جيدة.

- أوه، ولكنني كنت مريضة جدا.

- أعرف ذلك.

- ومن أخبرك؟

- أن الجميع كانوا يعلمون ذلك. وقد أتيتك للسؤال عنك، وعلمت بسرور نبأ نقاهتك.

- ولكنني لم أر بطاقتك أبدا.

- ذلك إنني لم أتركها لك.

- أتكون أنت ذلك الشاب الذي كان يأتي كل يوم للاستفسار عن صحتي أثناء مرضي والذي كان يأبي أن يذكر اسمه؟

- نعم، أنا هو.

- أذن فأنت أكثر من حليم... أنت كريم.

وتحولت إلى مسيو دي ن... وقالت بعد أن رمتني بأحدي هذه النظرات التي تكمل بها النساء رأيهن في الرجل:

- ما كنت أنت لتفعل ذلك يا كونت.

أجاب الكونت: ولكنني لا أعرفك إلا منذ شهرين.

- وهذا السيد لا يعرفني إلا منذ دقائق. إنك ترد دائما ردودا حمقاء.

والنساء قساة غلاظ القلوب مع الرجال الذي لا يحببنهم.

واضطرم وجه الكونت وعض شفتيه.

ورثيت له لأنه كان يبدو عاشقا مثلي، ولا ريب أن صراحة مرجريت القاسية قد أشقته، وخصوصا أمام رجلين غريبين.
قلت لكي أغير مجري الحديث: إنك كنت تعزفين على البيان عند دخولنا. ألا تفكرين وتعاملينني كصديق قديم وتستمرين في العزف.
قالت وهي تتهالك على الأريكة وتشير لنا بالجلوس: أوه، أن جاستون يعرف تماما نوع الموسيقي التي أعزفها... وأنا أعزفها حين أكون بمفردي مع الكونت ولا أريد أن تعانيا مثل هذا العذاب.
قال مسيو دي ن... وعلى شفتيه ابتسامة حاول أن يجعلها رقيقة وساخرة: إذن فأنت تمنحينني هذه الميزة.
- تخطيء إذ تلومني على ذلك، فهذه هي الميزة الوحيدة التي تروق لي.
كان مقدرا لهذا الشاب المسكين إلا ينطق بكلمة، وألقي إلى المرأة الشابة نظرة كلها توسل حقا، وعادت مرجريت تقول:
- نبيئيني يا برودنس... هل فعلت ما طلبته منك؟
- نعم.
- حسنا. سوف تذكرين لي ذلك فيما بعد. إنني أريد محادثتك فلا تنصر في قبل أن أتكلم معك.
قلت: لا ريب أننا متطفلان... ولكن الآن وقد تم لنا ما أردناه، أو بالحرى، بعد أن تشرفت بمقابلتك مرة ثانية لكي أنسيك المقابلة الأولى فإنني سأنصرف أنا وجاستون.
- أبدا... ما عنيتكما بما قلت، وعلى العكس، أريد أن تبقيا. أخرج الكونت ساعة ثمينة من جيبه، ألقى إليها نظرة ثم قال:
- حان الوقت لكي أمضي إلى النادي.
ولم تنطق مرجريت بشيء.
وغادر الكونت مكانه أمام المدفاة عندئذ وقال لها: الوداع يا سيدتي.
نهضت مرجريت وقالت: الوداع يا عزيزي الكونت. أتنصرف هكذا سريعا؟
- نعم، فأنني أخشي أن أثير ضجرك.
- أنت لا تثير ضجري، لا اليوم ولا أي يوم آخر.. متى أراك؟
- حين تسمحين بذلك.
- الوداع إذن.
ولك أن تعترف معي أن هذا كان منتهي القسوة منها.
ولحسن الحظ كان الكونت مهذبا، دمث الأخلاق فاكتفي بأن طبع قبلة على اليد التي بسطتها له مرجريت في غير اكتراث ثم خرج بعد أن حيانا. وألقي نظرة إلى برودنس وهو يهم باجتياز الباب فهزت هذه كتفيها كأنها تقول: ماذا تريد؟. إنني بذلت كل ما في وسعي.
وصاحت مرجريت: نانين شيعي الكونت حتى الباب.
وسمعنا الباب يفتح ثم يغلق، وصاحب مرجريت وهي تعود:
- أخيرا رحل. أن هذا الشاب يثير أعصابي بشكل فظيع.
قالت برودنس: أي ابنتي العزيزة، حقا إنك تسيئين معاملة هذا الشاب المسكين مع أنه كريم ولطيف معك. ها هي ذي ساعة أراه قد تركها لك فوق المدفاة، وهي ثمينة كلفته ألف ريال على أقل تقدير.

وكانت مدام دوفرنوا قد اقتربت من المدفأة فراحت تقلب الساعة بين يديها وهي ترميها بنظرات كلها طمع واشتهاء.
قالت مرجريت وهي تجلس أمام البيان: إذا وازنت بين ما يمنحه لي وما يحدثني به فإنني أجد إنني أتقاضي ثمنا بخسا نظير زياراته لي.
- أن هذا الشاب المسكين يعشقك.
- إذا كان ولابد أن أصغي إلى كل الذين يعشقونني فإنني لن أجد متسعا من الوقت لكي أتناول عشائي.
وجرت بأناملها على البيان ثم تحولت أيضا وقالت: ألا تريدون تناول أي شيء من الشراب؟.. سأتناول أنا كأسا من البنش (شراب مسكر مؤلف من الكحول وبعض التوابل).
قالت برودنس: أما أنا فسآكل قطعة من الدجاج... ما رأيك في أن نتناول العشاء؟
قال جاستون: هو ذلك. فلنمض لتناول العشاء.
قالت مرجريت: كلا. سنتناول العشاء هنا.
ثم قرعت الجرس فأقبلت نانين وقالت لها: أرسلي في طلب العشاء.
وخرجت نانين، وقالت مرجريت وهي تثب كالطفلة: نعم. سوف نتعشي... ما أغبي هذا الكونت!.. إنه ليبعث الضجر.
كنت كلما نظرت إلى هذه المرأة كلما ازددت افتتانا بها. كانت فائقة الجمال. وكان نحافتها بالذات سحر وفتنة.
كنت شديد الشغف بها. وما كنت لأستطيع أن أفسر ما يدور في نفسي بسهولة فقد امتلأت تسامحا وإعجابا بها، والدليل على عدم مبالاتها برفضها شابا أنيقا ثريا على استعداد لأن يبذل لها كل ثروته براها أمام عيني من كل أخطائها السابقة.
كان في هذه المرأة شيء من البراءة وسلامة الطوية. وكان من الواضح إنها لا تزال على أول درجات الرذيلة، فإن خطوتها الثابتة وقامتا الفضة اللينة وعينيها المتسعتين بهاليتهما الزرقاوين، كان ذلك ينم عن أحدى هذه الأمزجة الملتهبة التي تنشر حولها عطر من الشهرة واللذة كهذه القنائى الشرقية التي على الرغم من أحكام غلقها يفلت منها أريج العطر الذي تحتويه.
وأخيرا، سواء كان ذلك بحكم الطبيعة أو نتيجة لمرضها، كان يرتسم في عيني هذه المرأة من وقت لآخر ومضات شهوانية كانت تسعد من يحبها دون شك. ولكن لم يكن في المقدر أحصاؤهم، وكذلك لم يكن في الإمكان أحصاء كل الذين أحبتهم هي.
قالت فجأة: أذن فأنت الذي أتيت تسأل عني عندما كنت مريضة؟
- نعم
- هل تعرف أن هذا جميل؟ ماذا أستطيع أن أفعل لكي أشكرك؟
- أن تسمحي لي بأن آتي لرؤيتك من وقت لآخر.
- لك ذلك كلما شئت، ابتداء من الساعة الخامسة حتى السادسة ومن الحادية عشرة حتى منتصف الليل.
وفي هذه اللحظة أقبلت نانين فسألتها مرجريت: هل أعد العشاء؟
- نعم يا سيدتي..
وعندما دخلنا غرفة الطعام كانت مرجريت مستندة إلى جاستون الذي أمسك بيدها يحادثها. وردت عليه تقول:

- أنت مجنون. أنت تعرف تماما إنني لا أريدك. ليس من المعقول أن تطلب مني أن أكون عشيقتك الآن، وأنت تعرفني منذ سنتين. إننا معشر النساء نبذل أنفسنا لمن نريد على الفور ولا نفعل أبدا.. هلموا بنا إلى المائدة أيها السادة.

وانفلتت من يد جاستون، وأجلسته على يمينها، أما أنا فأجلستني على يسارها وقالت تخاطب نانين:

- قبل أن تجلسي قولي للخادم ألا تفتح الباب لأي طارق.

وكان ذلك في الساعة الواحدة صباحاً.

وضحكنا وشربنا وأكلنا.. وأكلنا كثيرا في تلك الليلة. ولم تمض لحظات حتى كان المرح قد بلغ بنا آخر مداه. وتلك الكلمات التي تروق لبعض الناس وتدنس دائما فم من ينطق بها كانت تدوي من وقت لآخر بين ضحكات نانين وبرودنس ومرجريت.

ومجن جاستون كثيرا، وكان شابا طيب القلب، ولكن ذهنه كان قد حاد عن الطريق المستقيم منذ حداثته. وأردت أن أجاريهم وأن أشاركهم مرحهم الذي كان يبدو كأنه طعام من أطعمة الوليمة ولكنني لم ألبث أن انفردت بنفسي شيئا فشيئا وابتعدت بروحي عن هذا الصخب. وظلت كأسي مملوءة كما هي وتولاني الحزن تقريبا وأنا أري هذه المخلوقة الجميلة التي لم تتجاوز العشرين ربيعا تشرب وتتكلم كالسوقة وتضحك لكل ما هو فاضح ومشين.

ومع ذلك فإن هذا المرح وهذا الأسلوب في الكلام والشراب، وأن كانا قد ظهرا لي عند الآخرين نتيجة للفجور وللعادة أو للقوة ظهرا لي عند مرجريت كضرورة ماسة للنسيان، وحمي عصبية شديدة. كانت وجنتاها تصطبغان بحمرة محمومة يصاحبها السعال عند كل كأس. وكان السعال خفيفا في البداية ولكنه لم يلبث أن ازداد بعد ذلك، وكان من العنف بحيث أضطرها إلى أن تلقي برأسها إلى ظهر مقعدها وأن تضغط على صدرها بيديها.

وكنت أتألم وأنا أرى هذه المخلوقة الرقيقة عرضة لهذه الانفعالات كل يوم.

وأخيرا حدث شيء أتوقعه وأخشاه، فعندما أوشك العشاء على الانتهاء استولت على مرجريت أزمة حادة من السعال أشد حدة مما سبقها، وخيل لي أن صدرها يتمزق من الداخل. واستحال لون الفتاة المسكينة إلى اللون الأحمر وأطبقت عينيها لفرط الألم، ورفعت منشفتها إلى فمها فاصطبغت ببقعة من الدم. وإذ رأت ذلك نهضت وأسرعت إلى غرفة زينتها.

أما أنا فلم أستطع أن أتمالك نفسي، وأسرعت خلف مرجريت بين دهشة برودنس ونانين.

(10)

كانت الغرفة التي لجأت مرجريت إليها لا تنيرها غير شمعة واحدة موضوعة فوق منضدة، وكانت مرجريت قد استلقت فوق أريكة كبيرة وقد حلت أزرار ثوبها ووضعت أحدى يديها على قلبها بينما تدلت الأخرى بجانبها. وفوق المنضدة طشت فضي مملوء بالماء إلى منتصفه وقد تلوث الماء بخيوط الدم.

وكانت مرجريت شاحبة جدا وفمها مفتوح تحاول أن تتنفس، وكان صدرها يرتفع من وقت لآخر في تنهيده طويلة، ويبدو إنها تستريح بعدها لأنها كانت تشعر بهدوء كبير.

واقتربت منها دون أن تبدر منها حركة واحدة، وجلست أمسكت بيدها فقالت في ابتسامة: آه... أهذا أنت؟

ويبدو أنني كنت بادئ الانزعاج لأنها أردفت تقول: هل أنت وبض أيضا؟

- كلا. ولكن أما زلت تتألمين؟

- قليلا جدا.

وجففت بمنديلها الدموع التي تتصاعد إلى عينيها وقالت: إنني أصبحت اعتاد على ذلك.

قلت لها عندئذ في صوت يتهدج من الانفعال: انك تقتلين نفسك يا سيدتي. وددت لو أن أكون صديقك أو قريبا لك لكي أمنعك من الأضرار بنفسك هكذا.

أجابت في لهجة مريرة: آه. لا يجب أن تزعج نفسك بسببي. أنظر كيف لا يهتم بي الآخرون. ذلك أنهم يعرفون أنه لا حيلة لهم أمام هذا المرض.

ثم نهضت وأخذت الشمعة ووضعتها فوق المدفأة ونظرت إلى نفسها في المرآة، وقالت وهي تضم أزار فستانها وتضع بأصابعها شعرها المشعث: ما أشد شحوبي. آه. لا بأس. هل بنا نعود إلى المائدة.

ولكنني بقيت جالسا ولم أتحرك.

وأدركت الانفعال الذي سببه لي هذا المنظر لأنها اقتربت منى وقالت وهي تمد لي يدها: هلم بنا. تعال.

أخذت يدها ورفعتها إلى شفتي وبللتها رغما عني بدمعتين حبستهما طويلا فقالت وهي تعود فتجلس بجواري: يا لك من طفل!.. هأنت تبكي؟.. ماذا بك؟

- لا ريب أنني أبدو لك أحمق، ولكن ما رأيته الآن قد أحزنني.

- ما أكرمك!.. ماذا تريد؟.. إنني لا أستطيع النوم ولابد لي من أن ألهو قليلا.

اندفعت أقول عندئذ دون أن أملك نفسي: اسمعي يا مرجريت. لا أدري مدى التأثير الذي اتخذته في حياتي ولكن الشيء الذي أعرفه هو أنه لا يوجد في هذه الساعة من أهتم به غيرك... ولا حتى أختي. هذا هو حقيقة شعوري نحوك منذ أن رأيتك، ولهذا أتوسل إليك بحق السماء أن تمني بنفسك وأن تغيري هذه الحياة التي تحيينها.

- لو أنني عنيت بنفسي فسأموت. أن ما يجعلني أصمد إنما هو هذه الحياة المحمومة التي أحياها. ثم أن العناية إنما تصلح لنساء المجتمع اللاتي يعشن في كنف الأسرة والأصدقاء. أما نحن فإذا استحال علينا أن نخدم غرور أو ملذات عشاقنا فإنهم يهجروننا، والليالي الطويلة تعقب الأيام الطويلة. إنني أعرف هذا جيدا فقد شهرين في فراشي، وبعد مضي ثلاثة أسابيع لم يعد أحد يأتي لزيارتي.

استطردت أقول: صحيح أنني لا أمت لك بصلة ولكن إذا أردت، فسأعني بك كما يعني الأخ بأخته، ولن أتركك وسأشفيك. وعندما تستردين قوتك فلك أن تعيشي كما يحلو لك، ولكنني على

ثقة من إنك ستفضلين حياة هادئة تسعدك وتحفظ لك جمالك.
- أنك تفكر هكذا الليلة لأن الخمر لعبت برأسك وأثارت أحزانك، ولكنك لن تجد غدا الصبر الذي تتباهي به.
- اسمحي لي أن أقول لك يا مرجريت إنك بقيت مريضة شهرين، وإنني طوال الشهرين أتيت كل يوم للاستفسار عن صحتك.
- هذا صحيح. ولكن لماذا لم تصعد؟
- لأنني لم أكن أعرفك عندئذ.
- وهل يتقيد الإنسان بالرسميات مع امرأة مثلي؟
- بل من الواجب عليه أن يتقيد بالرسميات مع أية امرأة...
- هل معني هذا إنك ستعني بي؟
- نعم.
- وماذا تسمي هذا؟
- أخلاصا.
- ومن أين مصدر هذا الإخلاص؟
- مصدره الحب القهار الذي أشعر به نحوك.
- أنت إذن مغرم بي، قل هذا حالا فإنه أسهل.
- هذا جائز. ولكن إذا كان ولابد أن أقول ذلك يوما ما فلن يكون ذلك اليوم بالذات.
- بل من الأوفق ألا تقول لي ذلك أبدا.
- لماذا؟
- لأنه لن ينتج عن هذا الاعتراف إلا شيئان.
- وما هما؟
- إما أن أصدقك فتحقد على وأما أن أقبلك فتكون لك عندئذ عشيقة كئيبة... امرأة عصبية، مريضة وحزينة، أو مرحة بمرح أشد حزنا من الحزن نفسه... امرأة تنفث الدم وتنفق مئة ألف فرنك في السنة. وهذا أمر يصلح لثري عجوز كالدوق، ولكنه مزعج لشاب مثلك، والدليل على ذلك أن كل الشباب الذين أحبوني سرعان ما هجروني.
لم أجب، وإنما رحت أصغي إلى هذه الصراحة التي تكاد تشبه الاعتراف، وهذه الحياة المؤلمة التي المسها تحت القناع الذهبي الذي يحجبها والتي تتهرب الفتاة التعسة فيها من واقعية الفجور، والاندفاع والأرق، كل هذا أحدث تأثيره في نفسي فلم أنطق بكلمة.
واستطردت مرجريت تقول: ولكن كل هذا عبث. أعطني يدك، ولنعد إلى غرفة الطعام. لا أحب أن يعرف أحد منهم معني غيابي هذا.
- عودي إذا شئت، أما أنا فاسمحي لي أن أبقي هنا.
- لماذا؟
- لأن مرحك يحزنني كثيرا.
- حسنا إذن... سأكون حزينة.
- دعيني أقول لك شيئا، لا ريب إنه قيل لك قبل ذلك كثيرا، ولا ريب أن كثرة سماعك أياه قد منعتك من الإيمان به مع أنه لا يبعد عن الحقيقة، ولن أذكره لك بعد ذلك أبدا.
قالت وعلى شفتيها تلك البسمة التي تتخذها الأمهات للإصغاء إلى جنون أبنائهن: وما هو؟

- ذلك أنني منذ أن رأيتك لا أدري كيف ولا لماذا شغلت مكانا في قلبي، وأنني مهما حاولت إقصاء صورتك عن ذهني أجدها قد عادت من جديد، وأنني عندما التقيت بك اليوم، بعد عامين لم أراك فيها أشعر أن قلبي وذهني ازدادا بك تعلقا وإنك الآن، وقد رضيت أن تستقبليني، وبعد أن عرفتك وأعرف كل شيء عنك أصبحت ضرورة لازمة لي وإنني سأجن إذا لم تحبيني فحسب وإنما إذا لم تدعيني أحبك.
- ولكنني سأقول لك أيها المسكين ما قالته مدام د... إذن فأنت ثري! ولكن ألا تعرف أنني أنفق ما بين ستة وسبعة آلاف فرنك كل شهر، وأن هذا المبلغ أصبح ضروريا لحياتي، إلا تعرف يا صديقي العزيز أنني سأتسبب في إفلاسك في وقت قليل وأن أسرتك ستأمرك بالحجر عليك حتى تمنعك من معاشرة مخلوقة مثلي. أحبني كصديقة لا كشيء آخر. تعال لمقابلتي، سوف نضحك ونتكلم، ولكن لا تبالغ في أمري لأنني لا أساوي شيئا يذكر. أن لك قلبا كريما، وأنت بحاجة إلي الحب، وأنت مازلت شابا شديد الحساسية لكي تخالط عالمنا. أبحث لك عن فتاة وتزوجها، فأنت تري أنني عاهرة. وإنني أتحدث معك بصراحة.
وكانت برودنس قد أقبلت ووقفت بعتبة الغرفة دون أن نلحظها وصاحت عندئذ تقول: آه. ماذا تفعلان بحق الشيطان؟
قالت مرجريت: إننا نتبادل حديثا مهما فدعينا قليلا. سننضم إليكما بعد قليل.
وقالت بعد أن أصبحنا وحدنا: اتفقنا أذن؟.. لن تحبني بعد؟
- إنني سأرحل.
- هل الأمر إلى هذا الحد؟
وكنت قد تقدمت بحيث لم يكن يسعني أن أتقهقر. ثم أن هذه الفتاة أثارت حيرتي، فإن هذا المزيج من المرح ومن الحزن والسذاجة والعهر، وهذا المرض الذي ينمي فيها حساسية الشعور كسرعة الغضب والانفعالات، كل هذا جعلني أفهم إنني إذا لم أستطع أن أسيطر على هذه الطبيعة السريعة النسيان والمستهترة لأول وهلة فإنني سوف أفقدها حتما.
قالت: فأنت مجد فيما تقول؟
- كل الجد.
- ولكن لماذا لم تقل لي هذا قبل اليوم؟
- ومتى كنت تريدين أن أقول لك ذلك؟
- غداة اليوم الذي التقينا فيه في مسرح الأوبرا كوميك.
- أظن إنك كنت تسيئين استقبالي لو أنني ذهبت للقائك.
- لماذا؟
- لأنني كنت سخيفا في اليوم السابق
- نعم، هذا صحيح. ومع ذلك كنت تحبني في ذلك الوقت؟
- نعم.
- ولم يمنعك هذا من أن نعود إلى بيتك وأن تنام في هدوء بعد انتهاء العرض. إننا نعرف هذا النوع من الحب العظيم.
- أنت مخطئة. هل تعرفين ماذا فعلت في تلك الليلة؟
- إنني انتظرتك في المقهى الانجليزي وتبعت العربة التي أقلتك أنت وأصدقاءك الثلاثة، وعندما رأيتك تهبطين وتعودين إلى بيتك بمفردك أحسست بسعادة غامرة.
راحت مرجريت تضحك فسألتها: ماذا يضحكك؟

- لا شيء.
- بل قولي.. أتوسل إليك وإلا فسأعتقد إنك تسخرين مني.
- ألن تغضب؟
- وبأي حق أغضب؟
- حسنا.. كان هناك سبب يحملني على أن أعود بمفردي.
- وما هو؟
- كان هناك من ينتظرني.

ولو أنه طعنتني بخنجر ما أصابتني بمثل ما أحسست به من ألم عندئذ، فبسطت لها يدي وقلت: وداعا.

قالت: كنت أعلم تماما إنك ستغضب. أن الرجال يهمهم دائما أن يعرفوا ما يثير أشجانهم.

أجبت في برود كما لو أنني أردت أثبت لها أنني قد برئت إلي الأبد من حبي: ولكنني أؤكد لك أنني لست غاضبا. كان من الطبيعي تماما أن ينتظرك بعضهم، كما أنه من الطبيعي أن أنصرف في الساعة الثالثة صباحا.

- أهناك أنت الآخر من تنتظرك في بيتك؟
- كلا. وإنما يجب أن أنصرف.
- وداعا إذن.
- أتطردينني؟
- أبداً.
- لماذا تثيرين ألمي؟
- أي ألم تعني؟
- تقولين لي أن هناك من كان ينتظرك.

- لم يسعني ألا أن أضحك لأنه أسعدك أن تراني أعود بمفردي في حين أنه كان هناك سبب جميل لذلك.

- أن الإنسان يجد سعادته أحيانا في أشياء صبيانية، وأن من القسوة هدم هذه السعادة، خاصة إذا كان ابقاؤها يزيد هذا المرء سعادة.

- ولكن من تظنني؟.. أنا لست عذراء، ولا دوقة، ولا أعرفك إلا من اليوم، وليس لك أن تحاسبني على أعمالى؟ وإذا افترضنا وأصبحت عشيقة لك ذات يوم فيجب أن تعلم أنه كان لي عشاق آخرون غيرك، فإذا حاسبتني منذ الآن وأظهرت غيرتك فماذا يكون الحال فيما بعد، إذا كان هناك فيما بعد، أنني لم أر رجلا مثلك.

- ذلك لأن أحدا لم يحبك قط مثلما أحبك!
- تكلم بصراحة... هل تحبني إذن؟
- بقدر ما يمكن للمرء أن يحب.
- ومنذ متى هذا الحب؟

- منذ اليوم الذي رأيتك تهبطين فيه من عربتك وتدخلين متجر سوس. أي منذ ثلاث سنوات.

- هل تعلم أن هذا جميل جدا؟ .. حسنا، ماذا يجب أن أفعل لكي أقدر هذا الحب العظيم؟

قلت وقلبي يخفق بحيث يكاد يمنعني عن الكلام، لأنه على الرغم من الابتسامات شبه

الساخرة التي صاحبت عبارتها الأخيرة، خيل لي أنها بدأت تشاركني اضطرابي وأنني أقترب من الساعة التي كنت أنتظرها منذ وقت طويل: يجب أن تحبيني قليلا.

- حسنا، والدوق؟
- أي دوق.
- حبيبي الغيور.
- أنه لن يعلم شيئا.
- وإذا عرف؟
- سيغفر لك.
- أوه، كلا. أنه سيهجرني عندئذ فماذا أفعل؟
- أنك تتعرضين فعلا لهجرانه لك بسبب أي رجل آخر.
- وكيف تعرف ذلك؟
- من أوامرك بألا يدخل أحد الليلة.
- هذا صحيح. ولكن الدوق صديق مخلص.
- غير أنك لا تتمسكين به ما دمت قد أغلقت بابك عنه في مثل هذه الساعة.
- ليس لك أن تلومني على ذلك، فما أصدرت أوامري هذه إلا لاستقبالك أنت وصديقك.

وكنت قد أقتربت من مرجريت شيئا فشيئا، فأحطت خصرها بذراعي، وأحسست بجسدها الغض يثقل على يدى في خفة ورشاقة، فقلت في صوت خافت: لو تعرفين كم أحبك!

- حقا؟
- أقسم لك على ذلك.
- حسنا. إذا وعدتني بأن تنفذ كل ما أريد دون أن تنطق بكلمة ومن غير أبداء أية ملاحظة ومن غير أن تسألني فأنني قد أحبك.
- لك كل ما تريدين.
- ولكنني أحذرك. أريد أن يكون لي مطلق الحرية في كل تصرفاتي دون أن أقدم لك أي حساب عن أعمالي. أنني أبحث منذ وقت طويل عن عاشق شاب لا أرادة له، يحبني دون أرتياب وأحبه دون أن يكون له على أي حق. لم أستطع أبدا أن أجد عاشقا كهذا، فإن الرجال لا يقنعون بما نظل نمنحهم أياه مرارا وما كانوا لا يحلمون بالحصول عليه إلا مرة واحدة ويطالبوننا بأن نقدم لهم حسابا عن الحاضر والماضي والمستقبل نفسه. وكلما يألف الواحد منهم عشيقته تزداد رغبته في السيطرة عليها وتزداد مطالبته لها بكل ما يريد. وإذا أن عقدت العزم على أن أتخذ الآن عشيقا جديدا فإنني أريد أن ينصف بثلاث صفات نادرة وهي الثقة والطاعة والكتمان.
- حسنا، سأكون كل ما تريدين.
- سوف نرى.
- ومتى ذلك؟.
- فيما بعد.

قالت مرجريت وهي تتخلص من ذراعي وتأخذ من باقة كبيرة من زهور الكاميليا الحمراء زهوة وضعتها في عروتي.

- لأننا لا نستطيع دائما تنفيذ الاتفاقيات في نفس اليوم الذي نوقعها فيه.

قلت وأنا أضمها بين ذراعي: ومتى أراك؟

- **عندما يتغير لون هذه الكاميليا.**
- **ومتى يتغير لونها؟**
- **غدا فيما بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل. هل أنت راض؟**
- **أو تسألينني؟**
- **لا تذكر كلمة واحدة من كل ذلك لصديقك ولبرودنس ولا لأي شخص آخر.**
- **أعدك بذلك.**
- **والآن، قبلني ولنعد إلي غرفة الطعام.**
- **وقدمت لي شفتيها ثم ساوت شعرها من جديد وخرجنا من الغرفة، وكانت هي تغني، أما أنا فكنت شبه مجنون.**

وفي غرفة الصالون قالت لي في صوت خافت وهي تتوقف: لا ريب أنك تستغرب لقبولي لك بمثل هذه السرعة، فهل تعرف السبب؟

واستطردت تقول وهي تأخذ يدي وتضعها على قلبها، وقد أحسست بنبضاته السريعة المتكررة: السبب هو أنني لن أعيش طويلا كغيري، وعزمت على أن أعيش حياتي بطريقة أسرع.

- أتوسل إليك ألا تحدثيني بهذه الصورة.

عقبت تقول وهي تضحك: أوه... لا تحزن... فمهما قصرت المدة الباقيةل لي، فإن حياتي ستكون أطول من حبك لي.

ودخلت غرفة الطعام وهي ترى جاستون وبرودنس وحدهما فقالت: هيا أيها السادة. حان موعد الانصراف.

وبعد عشر دقائق كنا نهم بالخروج. وشدت مرجريت على يدي وهي تودعني وبقيت مع برودنس.

وعندما خرجنا قال جاستون: حسنا ما رأيك في مرجريت.

- **أنها ملاك، وأنا مجنون بها.**
- **كنت أشك في ذلك. هل اعترفت لها بذلك؟**
- **نعم.**
- **وهل آمنت بحبك لها؟**
- **كلا.**
- **أنها ليست كبرودنس.**
- **وهل آمنت برودنس بحبك لها؟**
- **بل أنها فعلت أكثر من ذلك يا عزيزي. أن برودنس البدينة ما زال قلبها ينبض بحرارة الشباب.**

(11)

عندما بلغ أرمان هذا الموضع من قصته أمسك لحظة ثم قال: هل لك أن تغلق النافذة؟.. وكان أرمان لا يزال ضعيفا فخلع الروب دي شامبر وتمدد في فراشه وأراح رأسه لحظة فوق الوسادة كرجل أرهقه سفر طويل أو أهاجته ذكريات شاقة. وقلت له:

- لعلك أسرفت في الكلام. أتريد أن أنصرف الآن وأن أدعك تنام؟ سوف تقص على نهاية هذه القصة في يوم آخر.
- هل أضجرتك؟
- على العكس.
- سأستمر في قصتي إذن، فإني إذا تركتني الآن فلن أنام.

أستأنف قصته فقال: عندما عدت إلي منزلي لم أكن بحاجة إلي الاستغراق في التأمل، فقد كانت الأحداث دالتي مرت لا تزال مائلة في ذهني. ولم أستطع النوم وإنما أخذت أفكر في مغامرة اليوم، فإن مقابلتي لمرجريت وحديثي معها والارتباط الذي قطعته على نفسي لها، كل ذلك حدث بصورة سريعة ولم أكن أتوقعه بحيث أنه كانت تمر بي لحظات كنت أعتقد فيها أنني قد رأيت كل هذا في المنام، ومع ذلك فلم تكن هذه أول مرة تعد فيها فتاة مثل مرجريت أن تبذل نفسها لرجل في غداة اليوم الذي يطلب فيه منها ذلك.

وعبثا حاولت أن أطرح عن ذهني هذه الفكرة، لان الإحساس الأول الذي أثارته عشيقتي المقبلة في نفسي كان من القوة بحيث ظل مائلا في ذهني، ورحت أكابر نفسي فلا أرى فيها غانية كغيرها من الغانيات، ودفعني الغرور الذي يشتهر به جميع الرجال في أن أعتقد أنها تشاركني نفس الميل الذي أحس به نحوها.

ومع ذلك فقد كان تحت بصري نماذج متناقضة، وطالما سمعت الناس يقولون أن حب مرجريت قد أصبح سلعة ينخفض سرعها أو يرتفع طبقا للظروف.

ولكن كيف يمكن التوفيق بين هذه السمعة وبين رفضها الدائم للكونت الشاب الذي رأيناه عندها؟ ستقول لي أنه لم يكن يروق لها وأن الدوق كان ينفق عليها عن سعة وأنا لم تكن بحاجة إلي أن تتخذ عشيقا كيفما يتفق وإنما تؤثر أن تتخذ عشيقا يطيب لها. إذن لماذا لم ترض بجاستون وهو الشاب الظريف اللطيف، وبدت أنها تأنس لي وقد استخفت وسخرت مني في أول مرة تقابلنا فيها؟

صحيح أن هناك أحداثا تقع في لحظة واحدة ويكون تأثيرها أكثر من غزل وتستمر سنة بطولها. كنت أنا الوحيد دون الآخرين الذي تملكه الجزع وهو يراها تغادر المائدة، وقد أسرعت خلفها ولم أستطع أخفاء انفعالي، وبكيت وأنا أقبل يدها. هذا الظرف إلي جانب زياراتي اليومية طوال الشهرين اللذين لزمت فيهما الفراش بسبب المرض، كل هذا جعلها ترى في رجل آخر غير هؤلاء الذين عرفتهم حتى اليوم، ولعلها قالت لنفسها أنها تستطيع أن تبذل لحب بدأ بهذه الصورة ما بذلته مرارا قبل ذلك بحيث لم يعد لذلك أية أهمية بالنسبة لها.

كل هذه الفروض كانت، كما ترى، محتملة، ولكن مهما يكن سبب قبولها فقد كان هناك شيء مؤكد وهو أنها قبلت.

وكنت عاشقا لمرجريت، وكنت موشكا أن أنالها، ولم أكن أستطيع أن أسألها المزيد ومع ذلك، أعد فأقول لك أنه على الرغم من أنها غانية فلعلني، لكي أجملها في عيني، جعلت من هذا الحب حبا بدون أمل بحيث أنه كلما دنت تلك اللحظة التي تتحقق فيها آمالي تستبد بي الشكوك.

ولم أطبق عيني طوال الليل... لم أعد أعرف نفسي. كنت شبه مجنون. كنت أقول لنفسي أحيانا

أنني لست من الوسامة والثراء والأناقة بحيث أملك مثل هذه المرأة، وأحيانا أخرى يأخذني الغرور حين أفكر أنني سأنالها. ثم خشيت، بيني وبين نفسي، أن تكون مرجريت قد أحست من نحوى برغبة لن تستمر أكثر من أيام واستشعرت تعاسة في قطيعة سريعة. وقلت لنفسي أنني قد أفعل خيرا بألا أذهب إليها في المساء، وأن أرحل تاركا لها رسالة أبثها مخاوفي. ثم مررت بعد ذلك بآمال لا حدود لها وبثقة لا حد لها، وحلمت بمستقبل عجيب وقلت لنفسي أن هذه الفتاة تدين لي بشفائها الجسماني والروحي وأنني سأقضي كل حياتي معها وأن حبها سيجعلني أكثر سعادة من حب أية عذراء أخرى.

وأخيرا لن أستطيع أن أكرر لك آلاف الأفكار التي تصاعدت من قلبي إلي رأسي والتي كانت تخبو شيئا فشيئا في النعاس الذي غلبني مع طلوع النهار.

وعندما استيقظت كانت الساعة قد بلغت الثانية. وكان الجو رائعا ولا أذكر أن الحياة قد بدت لي أجمل ولا أروع مما بدت لي عندئذ. وعادت ذكريات الأمس إلي ذهني دون ظلال أو عراقيل مفعمة بآمال المستقبل القريب. وارتديت ثيابي على عجل كنت سعيدا وجديرا بأحسن الأعمال. ومن وقت لآخر راح قلبي يثب بين ضلوعي لفرط الفرح والسرور، وتملكتني حمى حلوة ولم أعد أشغل نفسي بالأفكار التي أهاجتني قبل النوم، ولم أعد أرى إلا النتيجة ولا أفكر إلا في الساعة التي يجب أن أرى فيها مرجريت.

وتعذر على البقاء في البيت فقد بدت لي غرفتي أضيق من أن تتسع سعادتي، وكنت بحاجة إلي الفضاء كله لكي يعرف سرى. وخرجت.

ومضيت إلي شارع أنتان. كانت عربة مرجريت تنتظرها بالباب، فتوجهت ناحية الشانزليزيه، وكنت أشعر بالحب نحو الناس الذين ألتقي بهم دون أن أعرفهم.

والحب يسعد الحبيب دائما.

وبعد ساعة من المشي رأيت عربة مرجريت من بعيد أو بالأحرى لم أرها وإنما ضمنتها تخمينا.

وعندما بلغت زاوية الشانزليزيه أوقفت عربتها وانفصل شاب من بين جماعة كان يتكلم معها وأقترب من مرجريت وراح يحادثها.

وتبادلا الحديث بضع لحظات ثم لحق الشاب بأصدقائه وانطلقت عربة مرجريت واقتربت من الجماعة عندئذ وعرفت في الشاب الذي تحدث مع مرجريت الكونت دي ج .. الذي رأيت صورته والذي قالت برودنس أن مرجريت تدين له بمركزها الحالي.

كان هو الذي أوصدت دونه بابها بالأمس، واعتقدت أنها أوقفت عربتها لكي تبرر له السبب الذي دفعها إلي ذلك، ورجوت في نفس الوقت أن تكون قد تعللت بسبب آخر لكي لا تستقبله الليلة أيضا.

ولا أدرى كيف قضيت بقية اليوم، وكل ما أذكره أنني مشيت كثيرا ودخنت وتكلمت ولكنني لا أذكر ماذا قلت لمن التقيت بهم في ذلك اليوم منذ تلك اللحظة حتى الساعة العاشرة مساء.

كل ما أذكره هو أنني عدت إلي بيتي وقضيت ثلاث ساعات في ارتداء ثيابي وأنني نظرت إلي ساعة الحائط وإلي ساعة يدي مئة مرة، وقد خيل لي أنهما توقفتا عن الحركة.

وعندما دقت الساعة النصف بعد العاشرة قلت لنفسي أن الوقت حان للانصراف. وكنت أقيم ذلك الوقت في شارع بروفانس فسلكت شارع مون بلان واجتزت الميدان ثم عرجت على شارع لويس ليجران فشارع رماهون ومنه إلي شارع إنتان. ونظرت إلي نوافذ مرجريت، وكان النور ينبعث منها.

وطرقت الباب وسألت البواب أن كانت الآنسة جوتييه بالمنزل فأجابني بأنها لا تعود أبدا قبل الحادية عشرة.

نظرت إلي ساعتي. كنت أظن أنني قد أتيت على مهل، فإذا بي قد قطعت كل هذه المسافة في خمس دقائق فرحت أتمشي في ذلك الشارع الخالي من الحوانيت والمقفر في هذه الساعة.
وبعد نصف ساعة أقبلت مرجريت وهبطت من مركبتها وهي تردد البصر حولها كما لو كانت تبحث عن أحد.
وابتعدت المركبة، وعندما همت مرجريت بدق الجرس اقتربت منها وقلت: مساء الخير.
قالت بلهجة لا تطمئن عن سرورها برؤيتي: آه. أهذا أنت.
- **ألم تأذني لي أن آتي اليوم لزيارتك؟**
- **هذا صحيح. أنني نسيت.**

هدمت هذه العبارة كل أحلام الصباح وكل آمال النهار. ولكنني كنت قد بدأت أعتاد أساليبها فلم أنصرف، وهذا ما كنت أقدم عليه فيما سبق طبعا. ودخلنا بعد أن فتحت نانين، وقالت مرجريت تسأل هذه الأخيرة: هل عادت برودنس؟
- كلا يا سيدتي.
- اذهبي وقولي لمن في البيت أن تأتي لمقابلتي بمجرد أن تعود. ولكني أطفئي نور المصباح في غرفة الصالون قبل ذلك. وإذا سأل عني أحد فقولي أنني لم أعد بعد وأنني لن أعود.
كان هذا أكبر دليل على أن هناك ما يشغلها أو أنها تخشي أن يزعجها أحد. ولم أدر ماذا أفعل أو أقول. ومضت مرجريت إلى غرفة نومها في حين بقيت مكاني فقالت: تعال.
وخلعت قبعتها ومعطفها القطيفة وألقتهما فوق الفراش ثم تهالكت فوق مقعد كبير بجوار النار وقالت لي وهي تداعب سلسلة ساعتها: حسنا. ماذا لديك من جديد.
- لا شيء فيما عدا أنني أخطأت بقدومي هذا المساء.
- لماذا؟
- لأنه يبدو عليك الضيق، ولا شك أنني أضجرك.
- إنك لا تضجرني، ولكنني مريضة. أنني تألمت طوال النهار ولم أجد إلى النوم سبيلا، وأشعر بصداع فظيع.
- أتريدين أن أنصرف لكي تنامي؟
- أوه، يمكنك أن تبقي وإذا أردت أن أنام فإنه يمكنني أن أنام أمامك.
وبعد لحظات قرع الجرس من جديد فقالت: ألا يوجد أحد لكي يفتح.. لابد أذن من أن أفتح بنفسي.
ونهضت وهي تقول: انتظر هنا.
واجتازت الطرقة وفتحت الباب. وأرهفت السمع. وتوقف الطارق في غرفة الطعام، وعرفت من كلماته الأولى صوت الكونت ن...
- كيف حالك الليلة؟
- أجابت مرجريت في حدة: إنني مريضة.
- هل أضايقك؟
- ربما.
- إنك تسيئين استقبالي. ماذا فعلت لك يا عزيزتي مرجريت؟
- أي صديقي العزيز، إنك لم تفعل لي شيئا، ولكنني مريضة.. يجب أن أنام ولهذا سوف تتكرم وتتفضل بالانصراف. أن أشد ما يضايقني ويثير أعصابي هو أنني لا أعود في المساء إلا وأراك

تظهر بعدي بخمس دقائق. ماذا تريد؟.. أن أكون عشيقتك؟ حسنا، قلت لك مئة مرة أنني أرفض ذلك وإنك تزعجني كل الإزعاج، وإنك تستطيع أن تبحث لك عن عشيقة أخرى غيري. وأعود فأقول لك ذلك اليوم للمرة الأخيرة. إنني لا أريدك، فهل هذا مفهوم؟.. الوداع. آه.. ها هي نانين قد عادت... سترافقك حتى الباب طاب مساؤك.

ودون أن تزيد أو أن تصغي إليه عادت إلى غرفتها وأغلقت الباب في عنف، ولم تلبث أن دخلت نانين فقالت لها:

- أصغي إلى جيدا. سوف تقولين دائما لهذا الغبي إنني غير موجودة، أو إنني لا أريد أن أراه. لقد تعبت أخير من مقابلة أناس يأتونني ويطلبون منى نفس الشيء ويدفعون لي ويعتقدون أن لهم حقا على بذلك. ولكن لا... أن الغرور وحب المظاهر من ثياب ومركبات ومجوهرات يدفعنا إلى هذا الطريق. نعرف كل ذلك مع أن البغاء له عواقبه السيئة، فهو يستهلك من الفتاة قلبها وجسدها وجمالها، ويخشاه المرء كما يخشي الحيوان الكاسر ويحتقرها كما يحتقر المنبوذين ولا يحيط بها إلا من يأخذ منها أكثر مما تعطيه له ثم ينتهي بها الأمر إلى أن تموت ميتة الكلام بعد أن تصيبهم بالخراب ويصيبها الدمار.

قالت نانين: رفهي عنك يا سيدتي. إنك ثائرة الأعصاب.

قالت مرجريت وهي تفك أزرار ثوبها: أن هذا الثوب يضايقني. أعطني الروب. حسنا. وبرودنس؟

- لم تعد بعد. ولكنني تركت لها خبرا بأن تأتي الليلة.

واستطردت مرجريت وهي تخلع ثوبها وترتدي الروب الأبيض:

- وهذه الأخرى لا تأتيني إلا إذا احتاجت إلى، ولا تقدم لي خدمة بطيب خاطر، فهي تعلم إنني أنتظر هذا الرد الليلة، وأنه لابد لي منه وأنني شديدة القلق. وأنا واثقة إنها لا تحفل بي.

- لعل شيئا ما أعاقها.

- قدمي لنا ((البنش)).

قالت نانين: سوف تضرين نفسك أكثر.

- هذا أفضل. أحضري لي أيضا بعض الفاكهة والفطير أو صدر دجاجة. أي شيء على الفور فأنني جائعة.

وقالت تخاطبني: سوف تتناول العشاء معي. وفي أثناء ذلك يمكنك أن تقرأ كتابا. سأقضي لحظة في غرفة زينتي.

وأضاءت الشموع بالشمعدان، وفتحت بابا بجوار فراشها واختفت. ورحت أفكر في حياة هذه الفتاة. وأمتزج حبي لها بشفقة كبيرة.

وأخذت أتمشي في الغرفة في خطأ واسعة وأنا أفكر عندما دخلت برودنس، وقالت: آه.. أهذا أنت؟.. أين مرجريت؟

- في غرفة زينتها.

- سأنتظرها. هل تعرف أنك تروق لها.

- كلا.

- ألم تقل لك ذلك؟

- أبدا.

- وكيف أتيت هنا؟

- إنني جئت لزيارتها.

- في منتصف الليل؟
- ولم لا؟
- أن أمرك غريب.
- ولكنها أساءت استقبالي.
- حقا؟... إنني أحمل إليها نبأ سارا.
- جميل، إذن فهي قد حدثتك عني.
- مساء أمس... بعد أن انصرفت مع صديقك.. وبهذه المناسبة. كيف حاله؟ أظن أن اسمه جاستون ر...
قلت وأنا لا يسعني إلا أن أبتسم إذ تذكرت السر الذي أفضي إلى به جاستون في حين أن برودنس لا تكاد تعرف اسمه: نعم.
- أن هذا الشاب ظريف... ماذ يصنع؟
- أن له عشرين ألف فرنك إيرادا سنويا.
- آه؟ ولنتحدث عنك أنت. أن مرجريت سألتني عنك، ومن تكون، وماذا تصنع في الحياة، ومن هن عشيقاتك. وأخيرا عن كل ما يمكن أن تعرفه امرأة عن رجل في مثل سنك. قلت لها كل ما أعرفه عنك إلى جانب إنك شاب ظريف.
- أشكرك. والآن أخبريني بأية مهمة كلفتك أمس؟
- لا شيء. إنما أرادت بما قالت أن تحمل الكونت على الانصراف. ولكنها كلفتني بمهمة اليوم، وأنا أحمل إليها الرد الآن.
وفي هذه اللحظة خرجت مرجريت من غرفتها، وقد غطت شعرها بقلنسوة صغيرة جميلة تزينها أشرطة صفراء. وكانت فائقة الجمال حقا، تلبس في قدميها العاريين خفين من الساتان. وقالت حين رأت برودنس: حسنا. هل رأيت الدوق؟
- طبعا.
- ماذا قال لك؟
- إنه أعطاني المبلغ.
- كم؟
- ستة آلاف.
- هل بدأ عليه الاستياء؟
- كلا.
- يا للرجال المسكين؟
ونطقت العبارة الأخيرة بلهجة من المتعذر أن أصفها. وأخذت الستة آلاف فرنك وهي تقول: أنها تأتي في الوقت المناسب. هل أنت بحاجة إلى نقود يا عزيزتي برودنس؟
- أنت تعلمين يا ابنتي أن بعد غد هو الخامس عشر من الشهر، وإذا استطعت أن تقرضيني ثلاثمائة أو أربعمائة فرنك فانك تسدين لي خدمة كبيرة.
- أرسلي من يبحث عن هذا المبلغ غدا صباحا ريثما يتسنى لي أن أستبدل أحدى هذه الأوراق النقدية بعملات صغيرة.
- لا تنسي.
- اطمئني. هل تنعشين معنا؟

- كلا. أن شارل ينتظرني في البيت.
- أما زلت مجنونة به؟
- جدا يا عزيزتي.. إلى اللقاء.. وداعا يا أرمان!
وخرجت مدام دوفرنوا، وفتحت مرجريت درجا ألقت فيه بالأوراق النقدية، وقالت وهي تبتسم وتمضي نحو فراشها: هل تأذن لي أن أنام؟
- لا أسمح لك بذلك فحسب بل أرجوك أن تفعلي.
وأزاحت غطاء الفراش الحريري وتمددت. وقالت: والآن، تعال اجلس بجانبي وسنتحدث.
كانت برودنس على حق، فإن الرد الذي جاءت به مرجريت أبهجها وادخل الفرحة إلى قلبها. وقالت وهي تأخذ بيدي:
- هل تغفر لي سوء استقبالك لك الليلة؟
- إنني على استعداد لأن أغفر لك الكثير.
- هل تحبني؟
- إلى حد الجنون.
- رغم طبعي السيئ؟
- رغم كل شيء.
- هل تقسم لي بذلك؟
قلت في صوت خافت: نعم.
ودخلت نانين وهي تحمل بعض الأطباق، ودجاجة باردة وزجاجة من النبيذ وفراولة وقالت: لم أعد لك ((بنشا)) كما طلبت فإن النبيذ أفضل لك. أليس كذلك يا سيدي؟
أجبت وأنا ما زلت أعاني من الانفعال من كلمات مرجريت الأخيرة ومن عينيها المضطرمتين المحدقتين بي: طبعا.
قالت مرجريت: حسنا. ضعي كل هذا على الطاولة الصغيرة وقربيها من الفراش. أن نكون بحاجة إليك، فإنك تسهرين منذ ثلاث ليال. ولا ريب إنك بحاجة إلى النوم، فأذهبي واستريحي.
- أيجب أن أوصد الباب بالمفتاح والرتاج؟
- أظن ذلك. ولا تدعي أحدا يدخل قبل ظهر الغد.

(12)

قالت لي مرجريت في الساعة الخامسة صباحا عندما بدأ ضوء النهار يظهر من خلال الستائر.

- أغفر لي إذا طردتك، ولكن لابد من ذلك فإن الدوق يأتي كل صباح وسيقولون أنني أنام عندما يأتي، وقد ينتظر حتى أستيقظ.

أخذت بين يدي رأس مرجريت، وكان شعرها المشعث يتهدل فوق كتفيها وقبلتها قبلة وأنا أقول: متى أراك ثانية؟

قالت: اسمع. خط هذا المفتاح الذهبي الذي فوق الموقد وافتح الباب ثم أعده ثانية، وأذهب. سيأتيك أثناء النهار خطاب مني به أوامري لأنك تعلم أنه يجب أن تطيعني طاعة عمياء.

- نعم. ولكن هل أستطيع أن أطلب منك شيئا الآن؟

- وما هو؟

- هو أن تتركي لي هذا المفتاح.

- إنني لم أفعل لأحد قط ما تطلبه مني الآن.

- أفعلي هذا لي، لأنني أقسم لك إنني لا أحبك كما أحبك الآخرون.

- احتفظ به أذن. ولكنني أحذرك بأن فائدة هذا المفتاح لك متعلقة بإرادتي أنا بالذات.

وبقينا بضع لحظات وكل منا بين ذراعي الآخر ثم انصرفت.

كانت الشوارع مقفرة والمدينة الكبيرة لا تزال هاجعة، وطراوة حلوة تهب في الأحياء التي لن يلبث الرجال أن يغزوها في الساعات القليلة القادمة.

خيل لي أن هذه المدينة الهاجعة ملكي أنا، وبحثت في ذاكرتي عن أسماء أولئك الذين كنت أغبطهم حتى اليوم، ولم أتذكر أحدا إلا ووجدت نفسي أسعد منه.

ولكن أن يكون الشاب محبوبا من غانية فهذا غزو أكثر صعوبة، فالجسد لديهن قد استهلك الروح، والمشاعر قد حرقت القلب، والفجور قد سور الأحاسيس، والكلمات التي تقال لهن يعرفنها منذ وقت طويل، وهن يعرفن الوسائل التي يستخدمها الشبان ويبعن الحب الذي ينشدونه لديهن، فالحب عندهن أصبح مهنة لا انجذابا، ولكن عندما تحب الواحدة منهن حبا صادقا صحيحا يكون هذا الحب في بادئ الأمر غفرانا لخطيئتها ولكنه لا يلبث أن يغدو عقابا، فلا غفران بغير قصاص، وعندما تشعر مخلوقة لها ماضيها المشين بأنها وقعت في حب عميق خالص لا يمكن لها أن تقاومه ولم تكن تظن إنها جديرة به أبدا، وعندما تعترف بهذا الحب، ويسيطر عليها الرجل الذي تحبه ويشعر بأنه من القوة بحيث يحق له أن يقول: إنك لا تبذلين الآن في سبيل الحب ما كنت تبذلينه في سبيل المال، عندئذ لا يعرفن أي دليل يقدمن.

ونعود إلى أول يوم لهذه العلاقة... عندما عدت إلى بيتي كنت أحس بمرح كبير، وشعر بأن الموانع التي بنيتها في خيالي بيني وبين مرجريت قد اختفت، وأنها أصبحت ملكا لي وأنها أصبحت تفكر في وأن في جيبي مفتاح مسكنها، وأن لي الحق في استخدامه أشعر أنني سعيد وفخور بنفسي...

وأويت إلى فراشي وسط هده الأفكار، وصحوت على رسالة من مرجريت تقول لي فيها:

((إليك أوامري. هذه الليلة في مسرح الفودفيل. تعال أثناء الاستراحة الثالثة)).

م. ح))

وضعت هذه الرسالة في أحد الأدراج لكي تكون تحت يدي إذا ما حدث إنتابتني الشكوك كما يحدث لي في بعض الأوقات.

لم تطلب مني أن أذهب لزيارتها أثناء النها، ولم أجرؤ على الذهاب إليها ولكنني أحسست برغبة قوية في أن التقي بها قبل المساء بحيث مضيت إلى الشانزليزيه حيث رأيتها تهبط هناك كما فعلت بالأمس.

وفي الساعة السابعة كنت في مسرح الفودفيل، ولم يحدث لي قط أن أذهب إلى المسرح في وقت مبكر كهذا. وامتلأت الألواح الواحد بعد الآخر، وبقيت مقصورة المسرح الأمامية وحدها شاغرة.

وفي بداية الفصل الثالث سمعت باب هذه المقصورة يفتح، وكان بصري مستقرا عليها طوال الوقت. وظهرت مرجريت.

وجلست في المقعد الأمامي على الفور وألقت نظرة على المسرح ورأتني فشكرتني بنظرة من عينيها.

كانت جميلة جداً في تلك الليلية!

أكنت أنا السبب في جمالها هذا؟ هل كانت تحبني بما فيه الكفاية لكي تعتقد إنني كلما وجدتها أجمل كلما كنت أسعد؟ لا أدري، ولكن إذا كان هذا هو غرضها فقد أفلحت لأنها عندما ظهرت دارت كل العيون نحوها، وحتى الممثل الذي كان يقوم بدوره فوق خشبة المسرح ألقي إليها نظرة ليري تلك التي أثارت جمهور النظارة بحضورها وحده.

وكان معي مفتاح مسكن هذه المرأة، وبعد ثلاث أو أربع ساعات ستكون ملكي مرة أخرى.

يلومون الذين يدمرون أنفسهم ويفلسون بسبب الغانيات ، وأن ما يدهشني هو أنها لا يفعلون في سبيلهن أكثر من ذلك، ولابد للمرء أن يعيش مثلي هذه الحياة بالذات لكي يعرف كيف أن التفاهات التي يقدمنها كل يوم لعشاقهن تدعم الحب الذي يحسون نحوهن.

ودخلت برودنس المقصورة، ودخل معها رجل آخر عرفت فيه الكونت دي ج....، وما أن رأيته حتى انقبض قلبي.

ولا ريب أن مرجريت استشعرت بإحساس نحو هذا الرجل لأنها ابتسمت لي من جديد، ثم أولت ظهرها للدوق وبدا إنها لا تهتم بشيء آخر غير التمثيل. وبعد انتهاء الفصل الثالث تحولت إليه ونطقت بكلمتين فغادر الكونت المقصورة، وأشارت مرجريت لي بالذهاب إليها.

قالت لي عندما دخلت وهي تبسط لي يدها: مساء الخير.

قلت موجها الحديث لمرجريت وبرودنس: طاب مساؤكما.

- أجلس.

- ولكنني أحتل مكان رجل آخر... ألن يعود الكونت دي ج..!

- بلي. أنني أرسلته ليأتيني ببعض الحلوى، ويمكننا أن نتبادل الحديث لحظة، ومدام دوفرنوا مطلعة على السر.

قالت هذه الأخيرة: نعم أيها العزيزين، ولكن أطمئنا فلن أقول شيئا.

قالت مرجريت وهي تنهض إلى ركن مظلم من المقصورة وتطبع قبلة على حبيني: ما بك اليوم؟

- إنني أتألم قليلا.

قالت بتلك السخرية التي اشتهرت بها: يجب أن تمضي وتنام.

- أين؟

- في بيتك.

- تعلمين جيدا أنني لن أنام هناك.

- إذن لا يجب أن تأتي إلينا مكشرا هكذا لأنك رأيت رجلا في مقصورتي.
- ليس لهذا السبب.
- بل لهذا السبب بالذات. إنني عليمة بهذه الأشياء، وإنك لمخطئ، ولهذا لن نتكلم في هذا الموضوع. أمض بعد انتهاء المسرحية إلى بيت برودنس وأبق به حتى أستدعيك. هل تسمع؟
- نعم.
- هل تعلم أنني أصبحت أخشي حقا أن أغدو عاشقة لك؟ يمكنك أن تسأل برودنس.
أجابت الفتاة البدينة: آه. هذا أمر يدعو إلى السام
- عد الآن إلى مقعدك في الصالة. سوف يعود الكونت، ولا جدوى من أن يراك هنا.
- لماذا؟
- لأن رؤيته لا تسرك.
- كلا. ولكن لو إنك تريدين الحضور إلى الفودفيل الليلة لحجزت لك هذه المقصورة مثلما فعل هو.
- ولكنه حجز هالى دون أن أطلب منه ذلك لسوء الحظ، وعرض على مرافقته، وأنت تعلم تماما أنه لم يكن بمقدوري أن أرفض.
كل ما كنت أستطيع أن أفعل هو أن أكتب إليك أين أنا ذاهبة لكي تأتي لرؤيتي ولأنه كان يسرني أنا نفسي أن أراك. ولكن ما دمت تشكرني بهذه الطريقة فإنني سأستفيد من هذا الدرس.
- إنني مخطئ فاغفري لي.
- أخيرا... عد إلى مكانك الآن ودعك من هذه الغيرة.
قبلتني من جديد وخرجت، والتقيت بالكونت وهو عائد إليها.
وعدت إلى مقعدي وأنا أقول لنفسي أن وجود الكونت دي ج... في مقصورة مرجريت من أبسط الأمور على كل حال، فقد كان عشيقها وقد قدم لها مقصورة ورافقها وكل هذا طبيعي، وما دمت قد اتخذت فتاة كمرجريت خليلة فلابد لي من أن أتقبل عاداتها.
ولكن ذلك لم يمنع من أن أشعر بالتعاسة طوال السهرة.
وحزنت كل الحزن وأنا أرى برودنس والكونت ومرجريت يستقلون المركبة التي تنتظرهم أمام الباب بعد انتهاء العرض.
ومع ذلك فقد كنت عند برودنس بعد ربع ساعة، وكانت قد عادت منذ لحظات.

(13)

قالت لي برودنس: إنك وصلت معنا تقريبا.
أجبت بطريقة آلية: نعم. أين مرجريت؟
- في بيتها.
- بمفردها؟
- بل مع الكونت دي ج..
أخذت أسير في الصالون جيئة وذهابا. وقالت: ماذا بك؟
- هل تحسبين إنه يروق لي أن أنتظر هنا حتى يخرج الكونت من عند مرجريت؟
- الحق إنك غير معقول. ألا يمكن أن تفهم أن مرجريت لا تستطيع أن تطرد الكونت؟ إنه يعيش معها منذ وقت طويل، وهو يعطيها الكثير من النقود وما يزال يعطيها منها ما تريد. أن مرجريت تنفق أكثر من مئة ألف في العام. والدوق يرسل لها ما تطلبه ولكنها لا تجرؤ أبدا على أن تطلب منه كل ما تحتاج إليه، ولهذا لا يجب أن تختصم مع الكونت فهو يعطيها في السنة عشرة آلاف فرنك تقريبا. أن مرجريت تحبك جدا يا صديقي العزيز، ولكن علاقتك بها لا يجب أن تكون جدية وذلك لصالحك وصالحها. إنك لا تستطيع بايرادك الذي لا يتجاوز سبعة أو ثمانية آلاف فرنك أن تصمد أمام بذخ الفتاة، فهو لن يكفي لصيانة مركبتها فقط. أقبل مرجريت كما هي، كفتاة ظريفة جميلة، وأرض بأن تكون عشيقها شهرا أو شهرين وقدم لها الزهور والحلوى والألواج ولكن لا تفكر في شيء آخر، ولا تضايقها بغيرتك الحمقاء. إنك تعرفها تماما فهي ليست فاضلة. إنك تروق لها وأنت تحبها فلا تهتم بأي شيء آخر.
وأنت ظريف إذ تبدي هذه الحساسية. أن لك أجمل عشيقة في باريس، وهي تستقبلك في مسكن فخم، وترفل في أفخم الثياب وتتزين بمجوهرات نفيسة، ولن تكلفك سنتا وأحدا إذا أردت، وكل هذا لا يرضيك؟.. يا للشيطان!.. إنك لتطلب الكثير.
- أنت على حق، ولكن الأمر أقوى مني، وفكرة أن هذا الرجل عشيقا تؤلمني كل الألم.
قالت برودنس: هو ما يزال عشيقها أولا؟.. ثم أنه رجل هي بحاجة إليه، وهذا كل ما في الأمر. منذ يومين وهي تصد بابها عنه، وقد جاء هذا الصباح ولم يسمعها ألا أن تقبل مقصورته وأن تدعه يرافقها. وقد عاد معها لحظة ولكنه لن يبق لأنك تنتظرها.
- نعم، ولكن الدوق شيخ عجوز، وأنا واثق أن مرجريت ليست عشيقته. ثم أن المرء يمكنه أن يقبل أحيانا علاقة لا علاقتين. فسهولة هذا الأمر تجعل الرجل الذي يتقبله، حتى ولو بدافع الحب، يبدو كواحد من حثالة الرجال الذين يعيشون ويتكسبون م عرق هذه المهنة.
- آه. كم أنت متأخر يا عزيزي، فقد رأيت رجالا من أشد الناس نبلا وأناقة وثراء يفعلون ما أنصحك أنا به، وذلك دون أي جهد ودون خجل ودون أن يبكتهم ضميرهم، وهذا أمر يحدث كل يوم. كيف تريد أن تحافظ غانيات باريس على المستوى الذي يعشن فيه إذا لم تتخذ كل منهن ثلاثة أو أربعة عشاق في نفس الوقت؟
ليس هناك أي رجل مهما بلغت ثروته يستطيع أن يتكفل بنفقات امرأة كمرجريت. أن إيرادا تبلغ قيمته خمسمائة ألف فرنك في فرنسا لهو إيراد ضخم، ومع ذلك فإن مثل هذا الإيراد لا يمكن أن يفي بطلبات مرجريت، فإن الرجل الذي يبلغ إيراده هذا الرقم له بيت وجياد وخدم مركبات ولابد له من ارتياد أماكن اللهو والمقامرة وأن يكثر من السفر والترحال، وكل هذه العادات مكتوبة عليه بحيث لا يستطيع أن يتحلل منها وإلا افتضح أمره واعتقد الناس إنه أفلس. وطبقا لكل ما تقدم، فإن رجلا يبلغ دخله خمسمائة ألف فرنك لا يستطيع أن يقدم لامرأة أكثر من أربعين أو

خمسين ألف فرنك في السنة، وهو مبلغ ضخم، ومع ذلك فلابد من مساهمة عشاق آخرين لتكملة نفقات المرأة السنوية. ثم أن الأمر أكثر ملائمة مع مرجريت فهي قد وقعت بمعجزة من السماء على رجل عجوز ثروته تبلغ عشرة ملايين وماتت زوجته وابنته، وأولاد أخوته أغنياء مثله، وبذلك يعطيها كل ما تريد دون أن يطلب منها شيئا مقابل ذلك. ولكنها لا تستطيع أن تطلب منه أكثر من أثنين وسبعين ألف فرنك في السنة، وأنا واثقة لو أنها طلبت منه المزيد لرفض على الرغم من ثروته الطائلة ومن حبه لها.
وكل هؤلاء الشبان الذين يتراوح دخلهم بين عشرين وثلاثين ألفا، أي ما يكاد يغطي نفقاتهم الشخصية في الوسط الذي يعيشون فيه يعلمون جيدا أنهم متى أصبحوا عشاقا لفتاة كمرجريت لن يستطيعوا سداد إيجار المسكن ومرتبات الخدم بما يقدمونه لها، ولا يقولون لها أنهم يعرفون ذلك وإنما يتظاهرون بأنهم لا يلاحظون شيئا، وعندما يملونها ينصرفون عنها. أما إذا دفعهم الغرور إلى شيئا، وعندما يملونها ينصرفون عنها. أما إذا دفعهم الغرور إلى الالتزام بكل النفقات فأنهم يفلسون ويسرعون إلى أفريقيا للانتحار بعد أن يخلفوا وراءهم مئة ألف فرنك من الديون. ولكن هل تظن أن المرأة تشكرهم على ذلك؟.. أبدا. وإنما تقول، على العكس، أنها ضحت بمركزها وإنها فقدت الكثير من المال وهي معهم. آه. إنك تجد كل ذلك أمرا مخزيا، أليس كذلك؟ ولكنها الحقيقة. أنت شاب ظريف وأنا أحبك من كل قلبي، وأعيش منذ عشرين سنة بين غانيات باريس، وأعرف قيمتهن ولا أريد أن أراك تأخذ مأخذ الجد نزوة فتاة نحوك.
واستطردت برودنس تقول: ولكن لنفرض جدلا أن مرجريت تحبك حبا يجعلها تتخلي عن الدوق والكونت، ولنفرض أن ها الأخير لاحظ علاقتكما وخيرها بينك وبينه. إنها إذا ضحت به في سبيلك لتكون تضحية كبيرة بغير شك، فما هي التضحية التي يمكنك أنت أن تبذلها لها، بعد أن تنال منها بغيتك وبعد أن تملها؟.. ماذا تفعل لكي تعوضها عما فقدته؟ لا شيء. إنك بذلك تكون قد عزلتها عن العالم الذي كانت تعيش فيه، فإنها ستفقد مستقبلها وينساها الجميع بعد أن تعطيك أجمل سني حياتها. أو ربما تكون رجلا عاديا عندئذ فترميها بماضيها وتقول لها أنك إذا تهجرها إنما تفعل كما فعل عشاقها الآخرون، وتتركها تعيش في البؤس والفاقة، أو أن تكو رجلا شريفا وتري نفسك مضطرا إلى الاحتفاظ بها إلى جوارك وتعرض نفسك لشقاء لا مفرد منه لأن هذه العلاقة التي لها عذرها عند الشاب لا يكون لها أي مبرر عند الرجل الناضج، وإنما تصبح عقبة أمامه في سبيل الأسرة والمستقبل والحب. صدقني يا صديقي، خذ الأمور كما هي والنساء على ما هن عليه ولا تعط لفتاة غايته الحق في أن تدعي إنها دائنة لك بأي حال.
كانت حجة برودنس معقول ومنطقية، ولم أجد ما أرد به عليها فيما عدا أنها على حق فبسطت لها يدي وشكرتها على نصائحه فقالت لي:
- هيا، هيا... أطرح عن ذهنك كل هذه الأفكار الخبيثة وأضحك. أن الحياة جميلة يا عزيزي. استشر صديقك جاستون فإنني أعتقد أنه يفهم الحب كما أفهمه أنا. وكل ما يجب أن تتأكد منه الآن هو انه هنا بجوارك، فتاة جميلة تنتظر بفروغ صبر أن ينصرف الرجل الذي معها، وتفكر فيك وتبقيك معها طوال الليل وتحبك، وأنا واثقة من ذلك. والآن، قف معي بجوار النافذة، ولننتظر انصراف الكونت الذي لن يطول.
وفتحت برودنس النافذة ووقفنا بجوارها، وراحت هي تنظر إلى المارة القلائل، أما أنا فرحت أفكر.
كان كلامها يطن في أذني، ولم يسعني إلا أن أعترف بأنها على حق، ولكن الحب الحقيقي الذي كنت أكنه لمرجريت لم يقتنع بهذا السبب، ولهذا رحت أتنهد من وقت لآخر، الأمر الذي جعل برودنس تهز كتفيها كالطبيب حين يتولاه اليأس مع مريض.

وقلت لنفسي: شد ما تبدو الحياة قصيرة بسرعة هذه الإحساسات. إنني لا أعرف مرجريت إلا منذ يومين، ولم تصبح عشيقتي إلا منذ الأمس. ومع ذلك فقد احتلت كل أفكاري وحياتي وقلبي، وأن زيارة الكونت ج.. لها لكارثة لي.
وخرج الكونت أخيرا واستقل مركبته واختفي. وأغلقت برودنس نافذتها، وفي نفس اللحظة نادتنا مرجريت وقالت: تعاليا حالا... أن المائدة معدة وسوف نتعشى.
وعندما دخلت أسرعت مرجريت إلى وضمتني إليها وقبلتني بكل قواها. وسألتني قائلة: أما زلنا مقطبين؟
أجابت برودنس: كلا. أنني ألقيت عليه درسا، ووعد بأن يكون عاقلا.
- حسنا.
وألقيت نظرة على الفراش على الرغم منى. وكان منظره يدل على أن أحدا لم ينم فيه. أما مرجريت فكانت مرتدية روبا أبيض. وجلسنا إلى المائدة.
كانت جملية وحلوة وفاتنة، وكنت مضطرا للاعتراف من وقت لآخر بأنه لا يحق لي أن أطلب منها شيئا آخر، وأن كثيرين يسعدهم أن يكونوا مكاني. وحاولت أن أضع نظريات برودنس موضع التنفيذ وأن أكون مرحا مثلهما، ولكن مرحهما كان شيئا طبيعيا في حين أن مرحي كان تظاهرا وتكلفا، والعصبية التي كنت أطلقها كادت تكون أقرب إلى الدموع وأن كانتا قد خدعتا في معناها.
وفرغنا أخيرا من العشاء، وبقيت وحدي مع مرجريت. وذهب كعادتها وجلست فوق السجادة، بجوار النار، وراحت تنظر في حزن إلى لهب الموقد.
كانت تفكر، ولكن فيم؟.. لا أدري. أما أنا فرحت أنظر إليها في حب وفي خوف تقريبا، وأنا أفكر في إنني مستعد لكي أتألم من أجلها.
قالت: هل تعرف فيم أفكر؟
- كلا.
- في خطة اهتديت إليها.
- وما هي؟
- لا أستطيع أن أطلعك عليها بعد، ولكن باستطاعتي أن أقول لك ما سوف ينتج عنها. إنها خطة سيكون من نتيجتها أن أصبح حرة بعد شهر
وإلا أدين بشيء إلى أي أحد ونستطيع عندئذ أن نقضي الصيف في الريف معا.
- ألا يمكنك أن تطلعيني على هذه الخطة الآن؟
- كلا. ولكن يجب أن تحبني كما أحبك، فيفلح كل شيء.
- وهل اهتديت إلى هذه الخطة أنت وحدك؟
- نعم.
- وهل ستنفذينها وحدك؟
أجابت مرجريت وعلى شفتيها ابتسامة لن أنساها أبدا: أنا وحدي سأتعرض للمضايقات ولكننا سنتقاسم المكاسب.
لم يسعني إلا أن أضطرم حين سمعت كلمة ((المكاسب))، وتذكرت مانون ليسكو وهي تأكد مع دي جريونفور مسيو دي ب...
واجبت بلهجة خشنة بعض الشيء وأنا أنهض واقفا: اسمحي لي يا عزيزتي مرجريت إلا أتقاسم معك ألا المكاسب التي أجنيها أنا.

- ما معني هذا؟
- معناه إنني أشك كل الشك في أن الكونت دي ج... شريك لك في هذه الخطة، وأنني لا أقبل تكاليفها ولا مكاسبها.
- أنت طفل. حسبتك تحبني ولكنني أخطأت. حسن.

وفي نفس الوقت نهضت وفتحت البيان وراحت تجرى بأناملها وعزفت ((الدعوة إلى الرقص)) حتى ذلك المقطع الذي لا تجيد عزفه.

أكان ذلك عادة مها أم أنها أرادت أن تعيد إلى ذاكرتي اليوم الذي التقينا فيه؟ كل ما أعلمه هو أن كل الذكريات عادت إلى ذهني مع هذه المقطوعة فاقتربت منها وأخذت رأسها بين يدي وقبلتها وأنا أقول: هل تغفرين لي؟

أجابت: أنت ترى جيدا إنني غفرت لك. ولكن لاحظ إننا في اليوم الثاني وإنك قد أتيت ما يستحق أن أغفره لك. إنك لا تحسن الوفاء بوعودك بالطاعة العمياء.

- ماذا تريدين يا مرجريت؟ إنني أحبك كثيرا وأغار عليك من أقل أفكارك. أن ما عرضته على منذ لحظة يسعدني إلى حد الجنون، ولكن السر الذي يسبق تنفيذ هذه الخطة ينقبض له قلبي.

عادت تقول وهي تأخذ بيدي وتنظر إلى بابتسامة فاتنة لم أستطع مقاومتها: أنت لا تحكم عقلك. أنت تحبني، أليس كذلك؟.. ويسعدك أن تقضي ثلاثة أو أربعة شهور في الخلاء معي وحدي. وأنا أيضا يسعدني أن أخلو لك. بل أن ذلك لا يسعدني فحسب، وإنما أنا بحاجة إليه لصحتي، وأنا لا أستطيع مغادرة باريس هذه المدة الطويلة من غير أن أنظم شئوني، وشئون امرأة مثلي معقدة دائما. ولكنني وجدت الوسيلة لأوفق بين هذه الشئون وبين حبي لك. نعم، حبي لك. لا تضحك، فأنا من الجنون بحيث أحببتك، وإذا بك تتعاظم وتنطق بكلمات لا معني لها. أنت طفل.. ولكن تذكر فقط إنني أحبك ولا تزعج نفسك... هل هذا مفهوم؟

- كما تشائين.

- إذن سوف نكون قبل شهر في أحدى هذه القرى على ضفاف البحر نتنزه ونشرب اللبن. ولعلك تستغرب منى أن أتكلم هكذا، ولكن السبب في ذلك هو أن الحياة في باريس على الرغم من أنها تسعدني جدا، فإنها تضنيني وترهقني فأصبو فجأة إلى حياة أكثر هدوءا تذكرني بطفولتي. وكل امرئ مهما يكن أمره كانت له طفولته. أوه، اطمئن. لن أقول لك إنني ابنة كولونيل في المعاش، وإنني تربيت في مدرسة راقية. إنني فتاة فقيرة من فتيات الريف. لم أعرف كيف أكتب اسمي منذ ست سنوات. أظنك اطمأننت الآن؟ لماذا ألجأ إليك أنت دون سائر الناس لكي تشاطرني فرحة الرغبة التي ألحت بي؟ لعل ذلك لأنني تأكدت إنك تحبني لنفسي وليس لنفسك في حين لم يحبني الآخرون أبداً إلا لأنفسهم.

((إنني ذهبت إلى الأرياف مرارا، ولكنني لم أذهب إليها كما كنت أحب وأريد، واعتمد عليك الآن للحصول على هذه السعادة السهلة، فلا تكن خبيثا وامنحها لي وقل لنفسك هذا ((أنها لن تعمر طويلا وسألوم نفسي ذات يوم لأنني لم أبذل لها أول شيء طلبته مني، وكان من اليسير على أن أبذله)).

بماذا أرد على مثل هذا القول خصوصا وذكري أول ليلة لي معها كانت لا تزال ماثلة في ذهني، وأنا في انتظار ليلة ثانية؟

وبعد ساعة كنت أضم مرجريت بين ذراعي، ولو أنها طلبت مني أن أرتكب جريمة لما ترددت. وفارقتها في الساعة السادسة صباحا، وقلت لها وأنا أنصرف:

- إلى اللقاء الليلة.

وعانقتني في قوة ولكنها لم تنطق بشيء.
وجاءتني منها أثناء النهار رسالة هذا نصها: ((طفلي العزيز.. إنني مريضة شيئا ما، والطبيب يأمرني بالراحة. سأنام مبكرة هذا المساء ولن أراك. ولكي أعوضك سأنتظرك ظهر الغد. إنني أحبك)).
كان أول ما خطر يذهني هو أنها تخونني.
وتفصد جبيني بالعرق البارد لأنني أصبحت أحب هذه المرأة بحيث أن هذا الشك آلمني وعذبني عذابا كبيرا.
ومع ذلك فقد كان لابد لي أن أتوقع مثل هذا الأمر كل يوم مع مرجريت. وقد حدث لي ذلك مرارا مع عشيقات آخرين دون أن أحفل كثيرا، فكيف تسلطت هذه المرأة أذن على حياتي.
وخطر لي عندئذ أن أذهب لزيارتها كالعادة، خاصة وأن معي مفتاحها، وبهذه الطريقة يتسنى لي أن أعرف الحقيقة سريعا، وإذا وجدت رجلا لديها صفعته.
وفي انتظار ذلك مضيت إلى الشانزليزيه، وبقيت هناك أربع ساعات ولكنها لم تأت. وفي المساء دخلت كل المسارح التي اعتادت الاختلاف إليها فلم أجدها في أي منها.
وفي الساعة الحادية عشرة مضيت إلى شارع إنتان.
لم تكن هناك أنوار في نوافذ مرجريت، ولكنني قرعت الجرس مع ذلك، وسألني البواب أين أذهب فقلت: عند الآنسة جوتييه.
- إنها لم تعد بعد.
- سأصعد وأنتظرها.
- لا يوجد أحد في المسكن.
كان هذا أمرا كان في مقدوري أن أتأكد منه ما دام المفتاح معي، ولكنني خشيت أن أثير فضيحة سخيفة فخرجت.
ولكنني لم أعد إلى بيتي لأنني لم أستطع مغادرة الشارع، وبقيت أحدق في بيت مرجريت، وخيل لي أنه لا يزال هناك شيء يجب أن أعرفه، أو أن شكوكي سوف تتحقق على الأقل.
وفي منتصف الليل توقفت مركبة أعرفها جيدا أمام البيت رقم 9، وهبط منها الكونت دي ج ودخل البيت بعد أن صرف المركبة.
وراودني الأمل لحظة في إنه سيقال له أن مرجريت ليست بالبيت كما قيل لي، وأنني لن ألبث أن أراه يخرج. ولكنني كنت لا أزال انتظر حتى الساعة الرابعة صباحا.
وقد تألمت كثيرا منذ ثلاثة أسابيع، ولكنني أظن أن ذلك لم يكن شيئا يذكر بالقياس إلى الألم الذي عانيته في تلك الليلة.

(14)

وإذ عدت إلى بيتي أخذت أبكي كالأطفال، ولا يوجد رجل لم تخنه امرأة ولو مرة واحدة على الأقل ألا ويعرف مدى الألم الذي يحس به المرء عندئذ.

قلت لنفسي تحت ثقل قرارات الحمى التي يظن الإنسان دائما أنه يستطيع أن يصمد إزاءها أنه لابد لي من أن أقطع علاقتي بهذه المرأة. وانتظرت طلوع النهار في فروغ صبر لكي أمضي وأحجز لي مكانا وأعود إلى جوار أبي وأختي وحبهما المزدوج الذي كنت متأكدا من أنه سوف يعصمني من هذا الحب الغادر.

ومع ذلك فلم أشأ أن أرحل دون أن تعرف مرجريت سبب رحيلي، فإن الرجل الذي لا يجب خليلته هو وحده الذي يمكنه أن يهجرها من غير أن يكتب لها.

وكتبت في ذهني عشرين رسالة أكثر من مرة. كنت على صلة بفتاة شبيهة بكل الغانيات، وقد رفعتها إلى أكبر المستويات ولكنها عاملتني كما لو كنت طفلا واستخدمت لخيانتي حيلة بسيطة مهينة، وكان ذلك واضحا كل الوضوح. وتغلبت كرامتي عندئذ، وكان لابد لي من أن أهجر هذه المرأة من غير أن أدعها تدرك مدى الألم الذي سببته لي، وهاك ما كتبته لها ودموع الغيظ تتألق في عيني.

((عزيزتي مرجريت

أرجو أن يكون مرضك الذي ألم بك بالأمس قد زال، وقد أتيت في الساعة الحادية عشرة لأستفسر عنك فقيل لي إنك لم تعودي بع. وكان الدوق دي ج... أسعد مني لأنه أقبل بعدى ببضع لحظات، وحتى الساعة الرابعة صباحا كان لا يزال عندك.

اغفر لي الساعات القلائل المزعجة التي ضايقتك فيها بوجودي وثقي إنني لن أنسي أبدا اللحظات السعيدة التي قضيتها معك.

ولولا أنني أنودي العود إلى جوار أبي لأتيتك اليوم لأسأل عنك.

وداعا يا عزيزتي مرجريت. أنا لست من الثراء لكي أحبك كما أريد، ولا من الفقر لكي أحبك كما تريدين، فلننس إذن... أنت، أسما لا يهمك في شيء تقريبا... وأنا، سعادة أصبحت متعذرة.

أعيد إليك مفتاحك الذي لم أستخدمه قط والذي يمكن أن يفيدك كلما وقعت فريسة للمرض كما حدث أمس)).

وأنت تري أنني لم أستطع إنهاء هذا الخطاب بدون سخرية وقحة، وهذا يدلك على إنني كنت ما أزال أحب هذه المرأة.

قرأت هذه الرسالة عشر مرات. ومجرد فكرة أنها ستتسبب في أيلام مرجريت هدأتني بعض الشيء.

وحاولت أن أتجرأ وأتصور الآلام التي ستتسبب فيها هذه الرسالة، وعندما أقبل خادمي في الساعة الثامنة صباحا سلمته إياها وطلبت منه أن يذهب بها على الفور.

وقال خادمي، ويدعي جوزيف: هل يجب أن انتظر الرد؟

- إذا سؤلت هل تنتظر الرد فقل إنك لا تعرف وانتظر.

وتعلقت بهذا الأمل في إنها سترد على.

وتملكني انفعال كبير طوال الوقت الذي قضاه خادمي في الخارج، فكنت أتذكر أحيانا كيف بذلت لي مرجريت نفسها فأتساءل بأي حق أكتب لها مثل هذه الرسالة الوقحة وفي مقدورها أن تقول لي أن المسيو دي ج... لا يخونني وإنما أنا الذي أخونه. وهو منطق يسمح لنساء كثيرات أن يتخذن عشاقا كثيرين، وأحيانا أخرى أتذكر وعود هذه الفتاة وأحاول أن أقنع نفسي بأن رسالتي

رقيقة لامرأة لها مثل تجاربها، سوف تضحك من حب صادق كحبي، ثم لا ألبث أن أقول لنفس أنه كان من الأفضل ألا أكتب هذه الرسالة وأن أمضي إليها أثناء النهار واستمتع بهذه الطريقة بالدموع التي سأسببها لها.

وتساءلت أخيرا ما عساها تقولي لي، وأنا على استعداد مسبق لتصديق العذر الذي ستنتحله.

وعاد جوزيف فسألته: حسنا؟

أجابني: كانت السيدة لا تزال نائمة، وقد قيل لي أنهم سيعطونها رسالتك بمجرد أن تصحو وإنه إذا كان هناك رد فسيبعثون لك به.

كانت نائمة!

وأوشكت عشرين مرة أن أبعث خادمي لكي يسترد الرسالة، ولكنني كنت أقول لنفسي دائما: ربما أعطوها أياها، وسأبدو عندئذ كأنني ندمت على إرسالها.

وكان ندمي على إرسالها يزداد مع مرور الوقت.

ودقت الساعة العاشرة ثم الحادية عشرة ثم منتصف النهار.

وعند الظهر أوشكت أن أمضي إلى الموعد كأن شيئا لي يحدث. وأخيرا لم أعد أعرف ماذا أفعل للخروج من هذه الحلقة الحديدية التي تطبق على.

واعتقدت عندئذ بذلك الوهم الذي يحس به أولئك الذين ينتظرون إنني إذا خرجت قليلا فقد أجد الرد عند عودتي، فإن الردود التي ينتظرها المرء بفروغ صبر تصل دائما عندما لا يكون في بيته.

وخرجت متذرعا بحجة الذهاب لتناول طعام الغداء، ولكنني بدلا من أن أتناوله في مطعم ((فوا)) كعادتي مضيت لتناوله في البالية روابال. ومررت في طريقي بشارع إنتان، وكنت كلما رأيت امرأة من بعيد أظن إنها نانين تأتيني بالرد. وقطعت شارع إنتان دون أن التقي بأي رسول، وبلغت المطعم، ولا أدري ما قدمه لي الجرسون لأنني لم آكل شيئا.

وكانت عيناي تحدقان رغما عني في الساعة. وعدت إلى البيت وأنا مقتنع بأنني سأجد رسالة مرجريت.

ولكن البواب قال أنه لم يأتني شيء. وأخبرني الخادم بأنه لم ير أحدا منذ أن خرجت، وإذا كانت مرجريت قد ردت على فقد كان يجب أن يأتيني ردها منذ وقدت طويل.

وعندئذ أخذني الندم لإرسالي هذه الرسالة، فقد كان يجب أن أسكت تماما فلعل سكوتي كان يأتي بنتيجة لأنها حين لا تراني قد ذهبت إليها في الموعد الذي ضربته لي بالأمس فسوف تستفسر منى عن سبب غيابي، وعندئذ فقط كنت أستطيع أن أذكر لها السبب. وبهذه الطريقة لم يكن يسعها إلا أن تبرر نفسها، ولم أ:ن أريد أكثر من ذلك. وأحسست عندئذ إنني كنت على استعداد لكي أصدق عذرها مهما يكن وكنت أفضل ذلك على إلا أراها أبدا.

وبلغ بي الأمر إلى أنني بدأت أعتقد أنها سوف تأتي من تلقاء نفسها إلى بيتي، ولكن مرت الساعات دون أن تأتي.

ومن المؤكد أن مرجريت لم تكن كغيرها من النساء لأن قليلا منهن لا يبعثن ردا على مثل الرسالة التي كتبتها لي.

وفي الساعة الخامسة أسرعت إلى الشانزليزيه وأنا أقول لنفسي: إذا التقيت بها فسوف أتظاهر بعدم المبالاة، وسوف تقتنع عندئذ أنني لم أعد أفكر فيها على الإطلاق.

وعند منعطف شارع روابال رأيتها تمر بمركبتها. وكانت المقابلة مفاجئة بحيث أصفر لوني ولا أدري إذا كانت قد لاحظت انفعالي أم لا، فقد بلغ ارتباكي إلى حد أنني لم أر مركبتها.

ولم أمض إلى الشانزليزيه، وإنما رحت انظر إلى إعلانات المسارح لأنه كانت لا تزال هناك فرصة في أن أراها هناك.
وكانت هناك مسرحية تعرض لأول مرة في الباليه روابال، وكان من الطبيعي أن تشهدها مرجريت.
وكنت في المسرح في الساعة السابعة، وامتلأت كل الألواج ولم تظهر مرجريت.
وغادرت الباليه روابال عندئذ، ودخلت كل المسارح التي تختلف إليها عادة.. الفودفيل والفاريتيه والأوبرا كوميك وغيرها.
ولكنها لم تكن في أي مكان منها.
أما أن تكون رسالتي قد آلمتها بحيث لم تحفل بالمسارح وأما أن تكون قد خشيت أن تلتقي بي وأرادت أن تتجنب أي تفسير.
هذا هو ما شاء غروري أن يصوره لي عندما التقيت بجاستون فسألني من أين أنا قادم فقلت: من الباليه روابال.
قال: أما أنا فقد كنت في الأوبرا،وكنت أتوقع أن أراك.
- لماذا؟
- لأن مرجريت كانت هناك.
- آه. وهل كانت وحدا؟
- كلا. بل كانت مع إحدى صديقاتها.
- أهذا كل شيء.
- جاء الكونت دي ج... لحظة إلى مقصورتها، ولكنها رحلت مع الدوق. وكنت أتوقع أن أراك في كل لحظة. وكان بجواري مقعد ظل شاغرا طوال السهرة وكنت مقتنعا بأنه محجوزاً لك.
- ولكن لماذا أذهب حيث تذهب مرجريت؟
- لأنك عشيقها طبعا.
- ومن قال لك هذا؟
- برودنس وقد التقيت بها أمس. وإنني أهنئك فإنها عشيقة جميلة لا ينالها كل من يرغب فيه. حافظ عليها فإنها ستشرفك.
وتحققت من هذا القول إنني كنت سخيفا في مشاعري، ولو أنني التقيت بجاستون بالأمس وحدثني هكذا لما كتبت هذه الرسالة.
وفكرت في أن أمضي إلى برودنس وأن أبعث بها إلى مرجريت لكي تخربها بأنني أريد أن أتحدث معها، ولكنني خشيت أن تنتقم مني وأن تقول إنها لا تستطيع استقبالي، وعدت إلى بيتي بعد أن مررت بشارع إنتان.
وسألت البواب إذا كانت قد أتت رسالة لي. ولكن لا شيء.
قلت لنفسي وأنا أرقد في فراشي: لا ريب أنها أرادت أن تري أن كنت أقوم بمحاولة أخرى وأسترد رسالتي. وما دمت لم أفعل فسوف تكتب لي غدا.
وضاعفت في فظاعة موقفي علمي بأنني المخطئ، والواقع أن كل شيء يقول لي أن مرجريت تحبني... أولا تلك الخطة التي دبرتها لكي تقضي الصيف معي وحدي في الريف، ثم ذلك اليقين بأن شيئا لا يرغمها علي أن تكون عشيقتي ما دامت مواردي لا تكفي احتياجاتها ولا حتى نزواتها. ولم يكن لديها أذن ما ترجوه مني غير الأمل في حب خالص جدير بأن يريحها من الحب التجاري الذي كانت تعيش وسطه، ولكنني قوضت هذا الأمل منذ اليوم الثاني ودفعت

تهكما وقحا ثمنا للحب الذي قبلته ليلتين متعاقبتين. كان ما فعلته أمرا سخيفا أذن... عمل سمج. هل دفعت لهذه المرأة ما يسمح لي بأن ألومها علي حياتها؟ أو لا أبدو بانسحابي منذ اليوم الثاني بأنني متطفل علي الحب... كيف؟.. أنني لا اعرف مرجريت إلا منذ ست وثلاثين ساعة وقد أصبحت عشيقها منذ أربع وعشرين ساعة، ومع ذلك يتملكني النزق وأسئ معاملتها بدلا من أن أجد نفسي سعيدا بمشاركتها فراشها،و أريد أن تكون لي وحدي وأن أرغمها علي أن تهدم بضربة بضربه واحدة كل علاقاتها الماضية مع أنها أساس مستقبلها. وبأي حق ألومها؟.. لا حق لي علي الإطلاق. أنها كتبت لي تقول أنها مريضة في حين أنه كان بمقدورها أن تقول لي بكل صراحة كما تفعل غيرها من النساء بأن هناك عشيقا تريد أن تستقبله؟ وبدلا من أن اصدق رسالتها، وبدلا من أن أمضي وأسير في كل شوارع باريس فيما عدا شارع انتان، وبدلا من أن أقضي سهرتي مع أصدقائي وأن أذهب إليها في اليوم التالي عي الموعد الذي ضربته لي، أتشبه بعطيل فأتجسس عليها و احسب أنني أعاتبها بألا أراها بعد، ولكن لابد أن هذا الفراق قد سرها علي العكس ولا ريب أنها تعتبرني أحمق ولم يكن صمتها إلا احتقارا.

هذا ما رحت أكرره لنفسي طوال الليل، وما كنت مستعدا لأن أمضي وأذكره لمرجريت.

وعندما طلع النهار لم أكن قد ذقت طعما للنوم، وكنت محموما، واستحال علي أن أفكر في شيء آخر غير مرجريت.

وكما تفهم كان لا بد من أن أتخذ قرار حاسما وأن أفرغ من هذه المرأة أو أن من ضميري، إذا كانت لا تزال ترضي باستقبالي.

ولكن المرء يؤجل دائما اتخاذ القرارات الحاسمة، ولهذا لم استطع البقاء بالبيت ولم أجرؤ علي المثول أمام مرجريت فحاولت طريقة أحري للتقرب منها، طريقة تستطيع كرامتي أن تنسبها ألي الصدفة إذا اتفق و أفلحت.

كانت الساعة قد بلغت التاسعة فأسرعت إلي برودنس، وسألتني عن سبب هذه الزيارة المبكرة ولم أجرؤ علي أن أصرح لها سبب قدومي. وأجبتها بأنني غادرت بيتي في وقت مبكر لكي أحجز مكانا لي في العربة المنطلقة إلي س... حيث يقيم أبي.

قالت: انك لسعيد جدا أن تستطيع مغادرة باريس في هذا الجو الجميل.

نظرت إلي برودنس وأنا أتساءل أن كانت تسخر مني، ولكن أمارات الجد كانت مرتسمة علي وجهها وعادت تقول بلهجتها الجادة: هل ستذهب لكي تودع مرجريت.

- كلا.

- إنك تحسن صنعا.

- أحقا؟

- طبعا. ما دمت قد قطعت صلتك بها فما الجدوى من أن تراها ثانية؟

- أذن فأنت علي علم بقطعتنا؟

- إنها أرتني رسالتك.

- وماذا قالت لك؟

- قالت»عزيزي برودنس، أن صاحبنا هذا ليس مهذبا.إن مثل هذه الرسالة إنما تمر بذهن صاحبها ولا تكتب».

- بأية لهجة قالت هذا؟

- وهي تضحك، وقد أردفت تقول: انه تناول العشاء عندي مرتين ولم يأت لزيارتي ولو ليقول لي انه هضم العشاء.

كان هذا هو التأثير الذي أحدثته رسالتي وغيرتي. وأحسنت بالمهانة لتفاهة حبي.
- وماذا فعلت مساء أمس؟
- ذهبت إلي الأوبرا.
- أعرف ذلك. وفيما بعد؟
- تناولت العشاء في بيتها.
- وحدها؟
- بل أظن مع الكونت دي ج...
إذن فلم تغير قطيعتي شيئا من عادات مرجريت؟
لمثل هذه الظروف يقول لك بعض الناس: ما كان ينبغي أن تفكر في هذه المرأة التي لا تحبك.
عدت أقول وأنا أغتصب ابتسامة: يسرني أن أرى أن مرجريت لم تحزن بسببي.
- وهي على حق تمام، فإنك فعلت ما كان ينبغي أن تفعل وكنت أكثر تعقلا منها لأن هذه الفتاة كانت تحبك ولا تتحدث إلا عنك، وكانت جديرة بأن تقدم على أية حماقة.
- لماذا لم ترد على ما دامت تحبني؟
- لأنها أدركت أنها أخطأت إذ أحبتك. ثم أن المرأة تسمح أحيانا بأن يخونها الرجل ولكنها لا تسمح أبدا أن تهان في كرامتها، وأنت قد أهنتها بعد أن رضيت أن تكون عشيقها ليلتين ثم هجرتها مهما تكن أسباب هذا الهجران. أنني أعرف مرجريت. إنها لتؤثر الموت على أن ترد على رسالتك.
- ماذا ينبغي أن أفعل إذن؟
- لا شيء. إنها سوف تنساك، وسوف تنساها أنت. ولن يكون هناك ما يلام عليه أي واحد منكما.
- ولكن ما رأيك في أن أكتب إليها لكي أسالها الصفح؟
- حذار أن تفعل فإنها سوف تغفر لك على الفور.
أوشكت أن أعانق برودنس عندما سمعت منها ذلك.
وبعد ربع ساعة كنت قد عدت إلى بيتي وكتبت لمرجريت الرسالة التالية: ((شخصي نادم على رسالة كتبها لك بالأمس وراحل غدا إذ أنت لم تصفحي عنه يود أن يعرف في أية ساعة يمكنه أن يلقي بندمه عند قدميك.
((منى يجدك وحدك، لأن الاعترافات يبج أن تتم دون شهود كما تعرفين)).
طويت الرسالة وأرسلت جوزيف بها فأعطاها لمرجريت. وقالت له أنها سترد عليه فيما بعد.
ولم أخرج إلا لحظة لكي أتناول طعام العشاء. وفي الساعة الحادية عشرة مساء لم أكن قد تسلمت الرد بعد.
وقررت عندئذ إلا أكثر من ذلك وأن أرحل في اليوم التالي.
ونتيجة لهذا القرار. ومقتنعا بأنني لن تغمض لي عين إذا نمت فقد أخذت أحزم حقائبي.

(15)

قمت أنا وخادمي بالإعدادات اللازمة لرحيلي، وانقضت ساعة تقريبا ونحن نقوم بذلك عندما سمعنا قرعا عنيفا على الباب. وسألني جوزيف: هل يجب أن أفتح؟

أجبته بالإيجاب وأنا أتساءل من ذلك الذي يأتيني في مثل هذه الساعة، ولم أجرؤ على الظن بأنها مرجريت.

وعاد جوزيف وهو يقول: أنهما سيدتان يا سيدي.

وصاح صوت عرفت فيه صوت برودنس يقول: ها نحن أتينا.

وخرجت من غرفتي فرأيت برودنس واقفة تتأمل التحف القليلة التي في غرفة الصالون ومرجريت جالسة على الأريكة تفكر فمضيت إليها وأخذت يديها وقلت لها في صوت يتهدج من الانفعال: عفوا.

وطبعت على جبيني قبلة وهي تقول: هأنذأ أصفح عنك ثلاث مرات.

- كنت سأرحل غدا.

- وفيم يمكن لزيارتي أن تغير قرارك؟ إنني لم آت لكي أمنعك من مغادرة باريس، وإنما أتيت لأنني لم أجد متسعا من الوقت أثناء النهار لكي أرد عليك، ولم أشأ أ أتركك تعتقد إنني غاضبة ثم أن برودنس لم تكن تريد أن تأتي فقد كانت تخشي أن تزعجك.

- أنت لا تزعجينني أبدا يا مرجريت.

قالت برودنس: خشينا أن تكون معك امرأة فلا يروق لك أن ترانا.

وبينما كانت برودنس تقول ذلك كانت مرجريت تنظر إلى في انتباه فقلت: أي عزيزتي برودنس، أنت لا تعرفين ما تقولين.

قالت برودنس: أن شقتك جميلة. هل يمكن أن أرى غرفة النوم؟

- نعم.

ومضت برودنس إلى غرفة النوم لا لكي تراها وإنما لكي تصلح الحماقة التي نطقت بها ولكي تتركني وحدي مع مرجريت. وقلت لهذا الأخيرة عندئذ: لماذا اصطحبت برودنس؟

- إنها كانت معي في المسرح، ولأنني أردت أن يكون معي من يرافقتني عند انصرافي من هنا.

- أو لست أنا موجودا؟

- هذا صحيح. ولكن فضلا عن أنني لم أشأ إزعاجك فأنني كنت واثقة إنك إذا رافقتني حتى باب بيتي فسوف تطلب مني أن تصعد معي، ولما كنت لا أستطيع أن أسمح لك بذلك فأنني لا أريد أن تصطحبني.

- ولماذا لا تستطيعين استقبالي؟

- لأنني أخضع لمراقبة شديدة، وأي شك يمكن أن يلحق بي ضررا كبيرا.

- أهذا هو السبب الوحيد؟

- لو أن هناك سببا آخر لذكرته لك، فقد بلغنا مرحلة لا يصح فيها أن يكتم أحدنا سرا عن الآخر.

- اسمعي يا مرجريت. لا أريد أ استخدم طرقا ملتوية لكي أصل إلى ما أريد. ولنتكلم بصراحة. هل تحبينني قليلا؟

- بل أحبك كثيرا.

- لماذا خنتني أذن؟

- أي صديقي، لو إنني كنت الدوقة كذا، ولو أن لي مئة ألف جنيه دخلا، ولو إنني كنت عشيقا

آخر لكان لك الحق في أن تسألني لماذا أخونك. ولكنني الآنسة مرجريت جوتييه، وعلى ديونا تبلغ أربعين ألف فرنك، ولا أملك صلديا واحدا، وأنفق مئة ألف فرنك في العام فسؤالك أذن ما هو إلا سفسطة وردي عليه لا فائدة منه.
قلت وأنا أضع رأسي على ركبتي مرجريت: هذا صحيح. ولكنني أحبك حب جنون.
- حسن يا صديقي. كان يجب أن تحبني أقل أو أن تفهمني أكثر قليلا. أن رسالتك آلمتني كثيرا. ولو أنني كنت حرة لما استقبلت الكونت أول أمس أو لأسرعت إليك بعد أن استقبله أسالك الصفح الذي سألتني أنت إياه منذ لحظة، ولما رضيت أن يكون لي عشيق غيرك في المستقبل. ظننت لحظة إنني أستطيع أن أمنح نفسي هذه السعادة لمدة ستة شهور، ولكنك لم تشأ وأصررت على أن تعرف الوسائل. وقد كان من السهل تخمين هذه الوسائل، فقد كانت عبارة عن تضحية أكبر مما تستطيع أن تتصورها. وقد كان في مقدوري أن أقول لك ((إنني بحاجة إلى عشرين ألف فرنك)) وكنت تعشقني وكنت ستجد هذا المبلغ حتى ولو عبت على ذلك فيما بعد. ولكنني آثرت ألا أدين لك بشيء، ولم تفهم أنت هذه الرقة. ونحن الغانيات عندما نشعر بأنه لا يزال في قلبنا ولو نبض نضفي على الكلمات والأشياء مدلولا لا تعرفه النساء الأخريات وأعود فاكرر لك أن الوسيلة التي اهتدت إليها مرجريت جوتييه لكي تسدد ديونها كانت رقة منها كان ينبغي لك أن تفيد منها من غير أن تقول شيئا. ولو أنك لم تعرفني إلا اليوم لسعدت كثيرا بما أعرضه عليك، ولما سألتني عما فعلت أول أمس. أننا نضطر أحيانا إلى شراء راحة أنفسنا على حساب أجسادنا ونتألم أكثر إذا لم نشعر بتلك الراحة فيما بعد.
كنت أصغي لمرجريت وانظر إليها في أعجاب. وعندما فكرت في أن هذه المخلوقة الرائعة التي كنت أتلهث قبل ذلك على أن أقبل قدميها قبلت أن تحلني في ذهنها وأن تسند إلى دورا في حياتها، وإنني لم أقنع بما تمنحني إياه أتساءل إذا كانت لرغبات الرجل وأمانيه حدودا إذا كان يقنع وهو يري رغباته تتحقق سريعا كما تحققت رغباتي.
واستطردت تقول: صحيح أن لنا نحن الغانيات رغبات غريبة وأهواء أشد غرابة فنحن نبذل أنفسنا أحيانا لشيء بالذات وأحيانا أخرى لشيء آخر. وهناك رجال نعرضهم للدمار والإفلاس دون أن ينالوا منها شيئا، وهناك أناس ينالونها مقابل باقة من الزهور. أن لقلوبنا نزواتها وهذه النزوات هي تسليتنا الوحيدة وعذرنا الوحيد. وقد بذلت نفسي لك بأسرع مما فعلت لأي رجل آخر وأقسم لك على ذلك. لماذا؟ لأنك عندما رأيتني انفث دما أخذت بيدي وبكيت. لأنك الإنسان الوحيد الذي رثي لي. سأقول لك الآن شيئا سخيفا... كان عندي ذات يوم كلب صغير كان ينظر إلى نظرة حزينة عندما يأخذني السعال، وهو المخلوق الوحيد الذي أحببته.
وعندما مات بكيته أكثر مما بكيت أمي، صحيح أن أمي ظلت تضربني طوال اثنتي عشرة سنة من حياتها. حسنا. إنني أحببتك على الفور بنفس القدر الذي أحببت به كلبي، ولو أن الرجال يعرفون ما يستطيعون الحصول عليه بدمعة واحدة لازداد حبنا لهم، ولحرصنا على ألا نوردهم موارد الإفلاس.
وقد فضحتك رسالتك، وكشفت لي عما يعتمل في قلبك، وآذنك في حبي لك أكثر مما كان يخطر لك أن تفعل. صحيح أنها كان تنطق بالغيرة، ولكنها غيرة ساخرة ووقحة. وقد كنت حزينة قبل أن أتسلمها، وكنت أنوى أن أراك أو أن أتناول الغداء معك، وأن أمحو أخيرا رأيا ملحا كان في ذهني وكنت أقره قبل أن أعرفك.
((ثم إنك كنت الشخص الوحيد الذي أدركت على الفور إنني أستطيع أن أفكر أمامه وأن أتكلم بكل حرية. فأن كل الذين يخالطون الفتيات أمثالي لا يهمهم أن يتقصوا أقل كلمة تصدر منهن وأن يستنتجوا العواقب من أقل تصرف منهن، فليس لنا أصدقاء طبعا، وإنما لنا عشاق أنانيون

ينفقون ثرواتهم، لا علينا كما يزعمون وإنما من أجل ابتذالهم ومجونهم.

((مع هؤلاء الناس يجب أن نكون مرحين، وأن نشاطرهم أفراحهم، وأن نكون في صحة جيدة عندما نشاركهم عشاءهم، وأن نحزن عندما يحزنون. ومحظور علينا أن يكون لنا قلب وإلا فقدنا الحظوة عندهم وأقصينا عن مجالسهم.

((نحن لسنا ملك أنفسنا، ولم نعد مخلوقات بشرية، وإنما مجرد أشياء. لنا المكان الأول في كبريائهم والمكان الأخير في تقديرهم. لنا صديقات أمثال برودنس، كن فيما مضي غانيات ما زلن يملن للإسراف ولا تسمح لهن السن بذلك فيتصادقن معنا وينادمننا، وقد يتمادين في صداقتهم إلى حد العبودية ولكن لا إلى حد النزاهة، ولا يسدين النصح أبدا. ولا يهمهن أن يكون للواحدة منا عشرة عشاق ما دمن يجدن في ذلك مصلحتهم وفائدتهن ، أما ثياب وأما سوار. وما دمن يستطعن من وقت لآخر أن يتنزهن معنا في مركبتنا وأن يرافقننا إلى المسرح. أنهن يأخذن باقات الزهور التي جاءتنا بالأمس، ويستعرن معاطفنا ولا تقدم الواحدة منهن خدمة ما مهما صغرت إلا وتتقاضي ضعف قيمتها، وقد رأيت أنت نفسك في ذلك اليوم الذي جاءتني فيه برودنس بستة آلاف فرنك رجوتها أن تأتيني بها من الدوق، فقد اقترضت مني خمسمائة فرنك لن تردها لي أبدا أو قد ترسل لي بقيمتها قبعات لن أرتديها أبدا.

((وبناء على ذلك لا نستطيع، أو بالأحرى، لا أستطيع الحصول إلا على سعادة واحدة، وهي أن أجد رغم حزني ومرضي رجلا له من الخلق ما يكفي لكي لا يسألني أن أقدم له حسابا عن حياتي وأن يجب مشاعري وإحساساتي أكثر مما يحب جسدي، وفد وجدت هذا الرجل في الدوق، ولكن الدوق رجل مسن والشيخوخة لا تحمي ولا تواسي، وقد ظننت أنني أستطيع قبول الحياة التي يقدمها لي، ولكن ماذا تريد؟ لقد أعياني الضجر، وأولى بي أن ألقي بنفسي في النار بدلا من أن أختنق بدخانها.

والتقيت عندئذ بك أنت، الشاب المتأجج، السعيد، وحاولت أن أجعل منك الرجل الذي أناجيه وسط وحدتي الصاخبة. وما أحببته فيك لم يكن ذاتك كما أنت، وإنما كما يجب أن تكون.

ولكنك لا تقبل هذا الدور وترفض كما لو كان غير جدير بك، فأنت عاشق مبتذل، فافعل كغيرك وانقدني الثمن وليكن هذا كل شيء)).

وكانت هذه المحاضرة الطويلة قد أنهكت مرجريت فأضجعت فوق الأريكة، ورفعت منديلها إلى شفتيها لتكتم نوبة من السعال.

وتمتمت أقول: عفوا أنني فهمت كل هذا، ولكنني أحببت أن أسمعه منك يا مرجريت الحبيبة. فلننس الباقي ولا نذكر غير شيء واحد، هو أن كلا منا للآخر، وأننا ما زلنا نتمتع بالشباب، وإننا متحابان.

((أفعلي بي ما تريدين يا مرجريت، فأنا عبدك وكلبك، ولكن بحق السماء مزقي تلك الرسالة التي أرسلتها لك ولا تدعيني أرحل غدا وإلا فأنني سأموت)).

وظهرت برودنس في هذه اللحظة، وقالت مرجريت: هل تعرفين ما يطلبه مني يا برودنس؟

- أنه يسألك الصفح.

- هو كذلك.

- وهل تصفحين عنه؟

- لابد من ذلك. ولكنه يريد شيئا آخر.

- وما هو.

- يريد أن يتناول العشاء معنا.

- وهل قبلت؟

- ما رأيك؟

- رأي أنكما طفلا لا عقل لكما، ولكنني أري أيضا أنني جائعة جدا، وإنك كلما عجلت بالقبول كلما كان ذلك أفضل.

قالت مرجريت: هيا بنا. سنستقل المركبة نحن الثلاثة. وأردفت تقول وهي تتحول إلى: أن نانين قد نامت فخذ المفتاح وافتح الباب، وأحرص على ألا تفقده.

وعانقت مرجريت في قوة بحيث أوشكت أن أكتم أنفاسها. ودخل جوزيف في هذه اللحظة وقال بلهجة تدل على أنه مسرور من نفسه: سيدي، لقد حزمت الحقائب.

- كلها؟

- نعم.

- فرغها ثانية إذن، إنني لن أرحل.

(16)

قال أرمان: كان في مقدوري أن أروي لك في بضعة سطور بداية هذه العلاقة، ولكنني أردت أن تري كيف تطورت بيننا الأمور حتى بلغنا هذه المرحلة، أنا بموافقتي على ما تريد مرجريت، ومرجريت بعدم قدرتها على العيش بدوني.

وقد أهديتها كتاب مانون ليسكو في غداة المساء الذي قامت فيه بهذه الزيارة لي، ومنذ ذلك الوقت لم أستطع أن أغير حياة عشيقتي وغيرت هي طريقة حياتي أنا. وأردت قبل كل شيء ألا أترك لذهني الوقت للتفكير في الدور الذي قبلت الاضطلاع به لأنه أحزنني كثيرا على الرغم منى، و لهذا اكتست حياتي الهادئة حتى ذلك اليوم بمظهر صاخب مضطرب، فلا شيء أغلى من آلاف النزوات التي تقوم على الزهور والألواج والحفلات والسهرات التي لا يمكن للمر أن يأباها لعشيقته.

وكما قلت لك، لم أكن أملك ثروة ما فقد كان أبي كبير الصيارفة في مدينة س... وكان يتمتع بسمعة كبيرة في الصدق والأمانة فاستطاع أن يجد التأمين الذي ساعده على الالتحاق بهذه الوظيفة، وهي تدر عليه أربعين ألف فرنك في السنة، وقد استطاع في عشر سنين أن يرد التأمين، وأن يجمع مبلغا لا بأس به ليكون بائنة لأختي. وكانت أمي قد خلفت ريعا سونيا قدره ستة آلاف فرنك وزعه أبي مناصفة بيني وبين أختي، وعندما بلغت الحادية والعشرين من عمري أضاف إلى هذا المبلغ الصغير دخلا سنويا قدره خمسة آلاف فرنك مؤكدا لي أنني أستطيع أن أعيش في باريس سعيدا جدا بثمانية آلاف فرنك، إذا ما درست المحاماة أو الطب.

وقدمت إلى باريس ودرست المحاماة ونلت شهادة الحقوق، وككثيرين غيري من الشباب، وضعت الشهادة في جيبي ومارست حياتي في باريس في غير مبالاة. وكانت نفقاتي متواضعة، ولكنني كنت أنفق دخلي في ثمانية شهور وأقضي شهور الصيف الأربعة في بين أبي، وبذلك كان دخلي يصل في السنة إلى أثني عشر ألف فرنك، ولكنني لم أكن مدينا بفرنك واحد لأي أحد.

هكذا كان موقفي عندما عرفت مرجريت.

ولكن لا شك إنك تفهم أن نفقاتي زادت على الرغم مني. كانت مرجريت امرأة ذات نزوات غريبة، من تلك النساء التي تجد أن النفقات على الملاهي والمنتديات أمر ضروري، ونتج عن ذلك إنها تريد أن تقضي معي أكبر وقت ممكن تكتب لي في الصباح بأنها ستتناول العشاء معي، لا في بيتها، ولكن في أحد المطاعم، أما في باريس وأما في الريف، فكنت أمضي لاصطحابها فنتناول العشاء ثم نذهب إلى المسرح، وبذلك أنفق نحو مئة فرنك في اليوم، وتبلغ جملة النفقات نحو ثلاثة آلاف فرنك شهريا، ويطير دخلي في ثلاثة شهور ونصف واجد نفسي في موقف يضطرني إما إلى الاستدانة وإما إلى هجر مرجريت.

وكنت مستعدا لقبول أي شيء ما عدا هذا الاحتمال الأخير.

وبدأت فاستدنت خمسة أو ستة آلاف فرنك بضمان دخلي ورحت أقامر لأنه منذ أن أغلقت أندية القمار وقد أصبح في مقدور المرء أن يقامر في كل مكان تقريبا. واندفعت في حياة المقامرة الصاخبة بحيث أصبحت التتمة الحتمية لحبي لمرجريت، وماذا كنت تريد مني أن أفعل غير ذلك؟

بالنسبة للسواد الأعظم كان القمار ضرورة أما بالنسبة لي أنا فقد كان علاجا، فإنني بشفائي من مرجريت أبرأ في نفس الوقت من القمار.

ولهذا احتفظت وسط كل هذا برباطة جأش كافية فلم أخسر إلا ما كنت أستطيع سداده ولم أربح ألا ما كنت أستطيع أن أخسره. ثم أن الحظ حالفني ولم أقترض أية ديون، وأصبحت أنفق ثلاثة أضعاف ما كنت أنفقه قبل أن ألعب. ولم يكن من السهل مقاومة حياة تسمح لي بإرضاء رغبات مرجريت دون أن أضايق نفسي. أما هي فقد كانت تحبني دائما بنفس القدر، بل وأكثر.

ولم تلبث مرجريت أن تغيرت تغيرا أخلاقيا وطبيعيا في نفس الوقت. وكنت قد بدأت في علاجها، وأدركت الفتاة المسكينة غرضي وراحت تطيعني لكي تثبت لي امتنانها، وكنت قد توصلت دون عناء ودون جهد في أن أعز لها تقريبا عن عاداتها القديمة، وقال لي طبيبي الذي عرضت عليه أمرها أن الراحة وحدها والهدوء يمكن أ يحفظا لها صحتها بحيث أنني استطعت أن أستبدل حفلات العشاء والسهرات بنظام صحي خاص قائم على النوم في مواعيد منتظمة، والقت مرجريت رغما عنها هذه الحياة الجديدة التي أحست بتأثيرها الشافي وبدأت تقضي بضعة سهرات في بيتها، أو إذا أعتدل الجو تتدثر بمعطفها وتضع على وجهها خمارا وتخرج للنزهة في الليل فتمشي حتى الشانزليزيه، وكانت تعود متعبة فتتناول عشاء خفيفا ثم تأوي إلى فراشها بعد أن تعزف قليلا على البيان أو بعد أن تقرأ، وهو ما لم يحدث لها أبدا من قبل، وكان السعال الذي كان يمزق قلبي كلما كنت أسمعه قد انقطع نهائيا تقريبا.

وبعد ستة أسابيع لم تعد هناك أية سيرة عن الكونت، وضحت به نهائيا. وكان الدوق وحده هو الذي يضطرني إلى أخفاء علاقتي بمرجريت، ثم إنها كانت تصرفه في أكثر الأوقات وأنا معها بحجة أنها آوت إلى فراشها ومنعت أن يوقظها أحد.

وكانت عاقبة هذه العادة وحاجة مرجريت لرؤيتي إنني انقطعت عن ممارسة القمار في الوقت الذي يعرف فيه اللاعب الحاذق أنه يجب أن ينقطع فيه، وقد وجدت نفسي في النهاية إنني ربحت نحو عشرة آلاف فرنك، وهو مبلغ بدا كأنه رأسمال لا ينضب.

وجاء الوقت الذي اعتدت فيه أن أذهب إلى أبي وأختي ولم أرحل، وقد جاءتني منهما رسائل عدة يطلبان منى أن أنضم إليهما. وكنت أرد على هذه الرسائل بقدر استطاعتي مكررا بأنني أتمتع بصحة جيدة وبأنني لست بحاجة إلى النقود، وهما أمران كنت أعتقد أنهما قد يخففنا عن أبي قليلا لتأخري عن زيارتي السنوية.

وحدث أثناء ذلك أن استيقظت مرجريت في يوم صحو ووثبت من فراشها وسألتني أن أمضي بها إلى الريف لقضاء اليوم.

وأرسلنا إلى برودنس، وانطلقنا نحن الثلاثة بعد أن أوصت مرجريت نانين أن تقول للدوق إنها أرادت أن تنتهز صفاء الجو ومضت إلى الريف برفقة مدام دوفرنوا.

وفوق أن وجود برودنس كان ضروريا لإدخال الطمأنينة إلى قلب الدوق، فقد كانت من أولئك النساء اللاتي يبدو إنهن خلقن لمثل هذه الرحلات الريفية، فإنها بمرحها الدائم وشهيتها المفتوحة أبدا كانت عاملا قويا لإبعاد الملل وإدخال السرور إلى النفس والاضطلاع بكل كبيرة وصغيرة، بما في ذلك إعداد الطعام والإشراف عليه.

ولم يكن ينقصنا الأ أن نعرف أين نمضي.

وكانت برودنس هي التي أخرجتنا من هذه الورطة، فقد قالت:

- ما رأيكما في أن نمضي إلى بوجيفال؟.. في حانة ((مطلع الفجر)) التي تديرها الأرملة أرنو.

وبعد ساعة ونصف كنا في حانة الأرملة أرنو، ولعلك تعرف هذه الحانة، فهي حانة ريفية جميلة بها حديقة تشرف على منظر رائع تحده على اليسار قناة مارلي، وعلى اليمين تلال لا حصر لها، يجري النهر بينها في هدوء كشريط عريض أبيض متموج.

والواقع أنها كانت قرية جميلة كما قالت برودنس، بيوتها صغيرة بيضاء، ويجب أن أقول إننا تناولنا هناك غذاء شهيا.

كانت الغانية تختفي في الريف شيئا فشيئا، وكانت بجواري امرأة شابة جميلة أحبها وتحبني وتدعي مرجريت، ولم يعد للماضي صورا أو أشكالا، وانقشعت السحب من سماء المستقبل، وأضاءت الشمس عشيقتي كما لو كانت تضئ أطهر خطيبة. وكنا نتجول معا في تلك الأماكن

الساحرة التي تبدو وكأنها خلقت لتذكرنا بأشعار لامارتين أو لتشدو بالحان سكودو.
أضف إلى هذا أنني كنت أرى من مكاني هذا، على الشاطئ، بيتا جميلا من طابقين له باب من الحديد نصف دائري يكشف عن مرجة خضراء، كانت تبدو كما لو كانت من المخمل وخلفه غابة صغيرة من الأشجار وأحواض الزهو التي تسر العين وتشرح القلب.
وطال تأملي لهذا البيت بحيث بدأت أقتنع أنه ملكي فقد كان يجمل كل أحلامي، رأيت فيه نفسي مع مرجريت في النهار، في الغابة التي تقع خلفه، وفي المسا، جالسين في المرجة وتساءلت إذا كانت هناك مخلوقات بشرية تحس بالسعادة مثلما نحس بها نحن.
وكانت مرجريت قد لاحظت اهتمامي بذلك البيت فقالت: ما أجمله من بيت!
وسألتها برودنس: أين؟
وأشارت مرجريت إليه بإصبعها قائلة: هناك.
قالت برودنس: آه. انه بيت جميل يروق لك؟
- كثيرا.
- حسنا. اطلبي من الدوق أن يستأجره لك. وأنا واثقة انه سوف يفعل. وأستطيع أن أتكفل بذلك إذا أردت.
نظرت مرجريت إلى كأنها تسألني رأيي، ولكن حلمي كان قد طار مع كلمات برودنس الأخيرة وألقي به في عنف في عالم الواقع، وتمتمت في شيء من الدوار.
- إنها فكرة ممتازة.
قالت مرجريت وهي تضغط على يدي مفسرة كلماتي طبقا لرغبتها: حسنا. هلم بنا لكي نري الآن أن كان معروضا للإيجار.
وكان البيت شاغرا، وإيجاره إلفان من الفرنكات. وقالت لي:
- أتسعدك الإقامة فيه؟
- وهل أنا واثق من ذلك؟
- ولمن أذن سأدفن نفسي هنا إذا لم يكن من أجلك؟
- حسنا يا مرجريت. دعيني استأجر هذا المنزل بنفسي.
- هل جننت؟.. هذا عبث، ثم أن فيه خطرا. أنت تعلم جيدا أنه لا يحق لي القبول إلا من رجل واحد، فاسكت أيها الطفل الكبير ولا تقل شيئا.
وقالت برودنس: وسوف انتهز الفرصة فأقضي أيام أجازتي معكما.
وغادرنا البيت، وأخذنا طريق العودة إلى باريس ونحن نتحدث عن هذا القرار الجديد. وكنت أضم مرجريت بين ذراعي بحيث بدأت أواجه خطة عشيقتي كأمر واقع بعيد عن كل لوح أو توبيخ.

(17)

وفي اليوم التالي صرفتني مرجريت في وقت مبكر، وهي تقول لي أن الدوق سوف يأتي في النهار، ووعدتني أن تكتب لي بمجرد أن ينصرف لكي تضرب لي موعدا في الليل.

والواقع إنه جاءتني منها رسالة أثناء النهار تقول لي فيها:

((سأمضي إلى بوجيفال مع الدوق. انتظرني عند مدام دوفرنوا في الساعة الثامنة مساء)).

وعادت مرجريت في تمام الساعة الثامنة، وانضمت إلى عند مدام دوفرنوا وهي تقول: حسنا، تم كل شيء.

سألتها برودنس: هل استأجر البيت؟

- نعم. أنه رضي على الفور.

ولم أكن أعرف الدوق، ولكنني خجلت من خداعي له.

وعادت مرجريت تقول: ولكن ليس هذا كل شيء.

- ماذا هناك غير ذلك؟

- أنني أهتممت بمسكن أرمان.

سألتها برودنس وهي تضحك: أفي نفس البيت؟

- كلا. وإنما في ((مطلع الفجر)) حيث تناولت الغداء أنا والدوق. فبينما كان يتأمل المنظر سألت مدام أرنو إذا كان لديه مسكن لائق فأجابت بأن لديها جناحا مكونا من غرفة استقبال وصالة وغرفة نوم مفروش بأثاث جميل وإيجاره ستون فرنكا في الشهر.

وقد استأجرته طبعا، فهل أحسنت؟

أسرعت فعانقت مرجريت في حين استطردت هي تقول: هذا جميل. سوف يكون معك مفتاح الباب الصغير، أما الدوق فقد وعدت أن أعطيه مفتاح الباب الخارجي الحديدي وهو لن يأخذه طبعا لأنه لن يأتي إلا في النهار. وأظن فيما بيننا إنه مسرور بهذه النزوة التي تبعدني عن باريس بعض الوقت بحيث لا تجد أسرته مجالا للكلام. ولكنه سألني مع ذلك كيف تطيب لي الإقامة في الريف في حين إنني أحب باريس كل الحب، وقد أجبته بأنني مريضة وأريد أن أستجم، ولم يبد عليه أنه صدقني تماما. أن هذا الشيخ المسكين في شدة الضيق، وسوف نتوخى كل الحذر يا عزيزي أرمان لأنه يشدد في مراقبتي هناك، وهو لم يستأجر لي البيت فحسب وإنما يسدد ديوني كذلك، وعلى منها الكثير، فهل يوافقك هذا؟

أجبت وأنا أحاول أن أسكت ضميري الذي كان يستيقظ في نفسي من وقت لآخر: نعم.

- إننا طفنا جميع أرجاء البيت، وستروق لنا الإقامة فيه.

وأردفت تقول وهي تقبلني: لقد أهتم الدوق بكل شيء. لا تبتئس، فإن مليونير هو الذي يعد فراشك.

وسألتها برودنس: ومتى تنتقلين؟

- في أقرب وقت ممكن؟

- وهل تأخذين معك مركبتك وجواديك؟

- سآخذ معي كل ما أريد. وسيكون بيتي تحت رعايتك أثناء غيابي. وبعد ثمانية أيام احتلت مرجريت البيت الريفي، وانتقلت أنا إلى ((مطلع الفجر)).

وبدأت عندئذ حياة يتعذر على تماما أن أصفها لك.

ففي بداية إقامتنا في بوجيفال لم تستطع مرجريت أن تقطع كل صلة لها بعاداتها السابقة،

فاستمرت الحفلات والسهرات وانقضى شهر لم يمر فيه يوم دون أن تدعو مرجريت ثمانية أو عشرة أشخاص إلى مائدتها. وكانت برودنس تأتي من ناحيتها بكل من تعرفهن وتحسن استقبالهن كما أو أن البيت بيتها هي.
كانت نقود الدوق هي التي تسدد كل هذا كما تعلم، ومع ذلك، فقد جاء وقت طلبت برودنس منى فيه ألف فرنك باسم مرجريت كما زعمت. وأنت تعرف إنني ربحت بعض المال في القمار فأسرعت بإعطاء بردونس ما طلبته مرجريت منى عن طريقها، وخشيت أن تكون بحاجة إلى أكثر مما معي فأتيت إلى باريس، واقترضت مبلغا مماثلا لذلك الذي سبق أن اقترضته وأعدته بعد ذلك.
ووجدت معي عشرة آلاف فرنك من جديد، فضلا عما لدى من دخل.
ولكن لم يلبث سرور مرجريت باستقبال صديقاتها أن هدأ قليلا أمام النفقات التي كان يضطره هذا السرور إليها وخصوصا أمام حاجتها لطلب نقود مني في بعض الأحيان. أمام الدوق، وكان قد استأجر هذا المنزل لكي تستجم مرجريت فيه فلم يعد يظهر به خشية ما أن يلتقي بجماعة مرحة صاخبة لا يريد أن يراه أحد منهم، وسبب ذلك انه كان قد أقبل مرة ليتناول العشاء وحده مع مرجريت فوجدها مع خمسة عشر شخصا يتناولون غداء لم يفرغوا منه في اللحظة التي كان ينوي أن يجلس فيها إلى المائدة لتناول العشاء. وعندما فتح باب غرفة الطعام وهو لا يشك في شيء استقبلته ضحكة عامة، واضطر أن يتراجع فجأة أمام مرح الفتيات الجالسات حول المائدة ووقاحتهن.
وكانت مرجريت قد أسرعت بالنهوض، ومضت إلى الدوق في الغرفة المجاورة، وحاولت بقدر استطاعتها أن تنسيه هذه المغامرة، ولكن الشيخ كان قد جرح في كبريائه فحقد عليها وأغلظ لها القول، وقال إنه تعب من سداد نزوات امرأة لا تعرف كيف تحافظ على احترامه في بيتها وانصرف غاضبا.
ومنذ ذلك اليوم لم نسمع عنه شيئا، وعبثا صرفت مرجريت مدعواتها وغيرت من عاداتها فإنه ضن عليها بأخباره. واستفدت أنا من ذلك أن عشيقتي أصبحت ملكي كلية، وأن حلمي تحقق أخيرا، ولم يعد في وسع مرجريت أن تستغني عني. وراحت تظهر معي علنا دون أ تحفل بالعواقب، وبلغ بي الأمر إلى أنني لم أعد أخرج من البيت وراح الخدم يدعونني بالسيد ويعاملونني كما لو أنني سيدهم فعلا.
وقد حاولت برودنس أن تقوم بدور الواعظة وأن تثني مرجريت عن حياتها هذه، ولكن هذه الأخيرة أجابت بأنها تحبني وأنها لا تستطيع أن تعيش بدوني وإنها لن تقصيني عنها مهما يحدث، وأردفت بأن جميع من لا يروق لهم ذلك ما عليهم إلا الانصراف دون عودة.
هذا ما علمته ذات يوم سمعت فيه مرجريت تقول لبرودنس إنها تريدها لأمر هام ووقفت أتصنت خارج الغرفة التي أغلقها بابها عليهما.
وعادت برودنس بعد ذلك بقليل ولم ترني. وأدركت من مبادرة مرجريت للقائها بأنه سيدور بينهما حديث آخر كذلك الذي أنصت إليه. وأردت أن أسمع ما تقولان.
وأغلقت المرأتان الباب عليهما فأسرعت وأرهفت السمع، وسمعت مرجريت تقول: حسنا!
وأجابتها برودنس: إنني قابلت الدوق طبعا.
- وماذا قال لك؟
- قال انه مستعد أن يغفر لك ما حدث، ولكنه علم أنك تعيشين علانية مع مسيو أرمان دوفال، وانه لم يغفر لك هذا أبدا، وقد قالي لي: فلتهجر مرجريت هذا الشاب وسوف أعطيها كل ما تريد كما كنت أفعل في الماضي وإلا فعليها أن تكف عن مطالبتي بأي شيء.

- وبماذا أجبت؟
- قلت له إنني سأنقل إليك قراره، ووعدته بأن أحاول إقناعك، ففكري يا ابنتي العزيزة في مركزك، وإنك ستخسرين كل شيء وأن أرمان لا يمكن أن يعوضك عن ذلك. إنه يحبك من كل قلبه ولكنه لا يملك من الثروة ما يكفل له تحقيق كل رغباتك، ولابد له أن يهجرك ذات يوم ولكن سيكون ذلك بعد فوات الأوان، ولن يرضي الدوق أن يفعل شيئا من أجلك عندئذ. هل تريدين أن أتحدث إلى أرمان؟
وبدا أن مرجريت راحت تفكر لأنها لم تجب على الفور، وراح قلبي يخفف بشدة وأنا أنتظر ردها. وقالت أخيرا:
- كلا. لن أهجر أرمان ولن أعيش معه في الخفاء، قد يكون ذلك جنونا ولكني أحبه. ماذا تريدين؟.. ثم انه اعتاد الآن أن يحبني دون أي عائق، وسيتألم كثيرا إذا أضطر أن يهجرني ولو ساعة واحد في اليوم، ومهما يكن فلن أعمر طويلا لكي أخشي البؤس واضطر لإرضاء شيخ عجوز رؤيته وحدها تشيخني. فليحتفظ بأمواله، فسوف أستغني عنها.
- وماذا ستفعلين؟
- لا أدري.
ولا ريب أن برودنس كانت سترد بشيء ما ولكنني دخلت فجأة وأسرعت فرميت بنفسي تحت قدمي مرجريت وبللت يديها بالدموع التي انهمرت من عيني وأنا أري أنها تحبني كل هذا الحب.
- أن حياتي لك يا مرجريت، لا حاجة لك بهذا الرجل بعد.
أو لست أنا هنا؟ وهل يمكن أن أهجرك، أو هل أستطيع أن أعوض عما تمنحيني من سعادة؟ لا أجبار بعد يا عزيزتي مرجريت، أن كلا منا يحب الآخر وليس هناك ما يهمنا بعد.
تمتمت وهي تحيط عنقي بذراعيها، أوه، نعم. أنني أحبك يا عزيز أرمان ... أحبك كما لم أتصور قط أنني استطيع أن أحب سنكون سعدين وسنعيش معا في هدوء، وسأودع إلى الأبد تلك الحياة التي أخجل منها الآن. ولن تلومني أبدا على الماضي، أليس كذلك؟
حجبت الدموع صوتي ولم أستطيع أن أرد ألا بأن أضم مرجريت إلى صدري، وقالت وهي تتحول إلى برودنس من صوت يتهدج من الانفعال: هيأ يا عزيزي. انقلي المشهد للدوق وقولي له أننا لسنا بحاجة إليه.
ومنذ ذلك اليوم لم يتحدث أي منا عن الدوق، ولم تعد مرجريت الفتاة التي عرفتها، وراحت تتجنب كل ما يعيد إلى ذهني الحياة التي عرفتها فيها. ولم تحب امرأة سواء كانت زوجة أو أختا زوجها أو أخاها كحبها لي. كانت هذه الجميلة المعتقلة مستعدة لكل الحساسات ولكلا لمشاعر ... قطعت صلاتها بكل صديقاتها وبكل عاداتها وبأسلوبها ونفقاتها السابقة، وعندما كان يرانا أحد نخرج للنزهة ف قارب صغير اشتريته لم يكن يخطر له أبدًا أن هذه المرأة المرتدية ثوبا أبيض والتي تلبس قبعة كبيرة من القش وتمسك في يدها الشال الحريري الذي يقيها طراوة الماء هي مرجريت جوتييه التي كانت تثير الدنيا منذ أربعة شهور بصخبها وبذخها وفضائحها.
ولكننا للأسف أسرعنا في اغتراف سعادتنا كما لو أننا حدسنا أننا لن نستطيع أن نسعد مدة طويلة.
كان قد انقضى شهران لم نذهب فيهما إلى باريس، ولم يأت أحد لزيارتنا فيما عدا برودنس وجوليا دوبرا التي حدثتك عنها والتي أعطتها مرجريت فيما بعد القصة المؤثرة التي معي.
كنت أقضي أياما كاملة عند قدمي عشيقتي، وكنا نفتح النوافذ التي تطل على الحديقة وننظر إلى الصيف يطوي المكان في مرح ويحط بنسماته فوق الزهور فتتفتح، وكنا نجلس في ظل

الأشجار، أحدنا بجوار الأخر، نستنشق هذه الحياة الحقيقية التي لم نعرفها لا أنا ولا مرجريت قبل ذلك.

في أثناء الوقت قرأت مانون ليسكوا مرارا، وقد فاجأتها أكثر من مرة وهي تدون ملاحظاتها على هوامش هذه القصة.

وكتب الدوق إليها مرتين أو ثلاثا، وعرفت خطه، وأعطتني رسالاته من غير أن تقرأها.

وكانت الدموع تتصاعد إلى عيني وأنا أقرأ بعض عبارات هذه الرسائل، فقد حسب أنه يستطيع أن يعيديها إليه إذا منع عنها تقوده ولكنه عندما رأى أنه هذه الوسيلة لم تجد لم يستطع المقاومة وكتب إليها يتوسل إليها أن تسمح له بالعودة مهما تكن شروطها في سبيل ذلك.

وقد قرأت هذه الرسائل الملحة والمتكررة ومزقتها دون أن أطلع مرجريت على ما جاء بها ودون أن أنصحها بالسماح له بزيارتها على الرغم من أن شعورا بالرثاء لألم ذلك الرجل المسكين كان يدفعني إلى ذلك، ولكنني خشيت أن ترى في هذه النصيحة رغبة مني في أن أجعله يتولى أعباء البيت من جديد، وخشيت فوق ذلك أن تعتقد أنني أريد أن أتنكر لمسئولية حياتها في كل العواقب التي قد يجرها إليها حبها لي.

ونتج عن ذلك أن الدوق إذ رأي أنه لم يتلق ردا أمتنع عن الكتابة واستأنفنا، أنا ومرجريت حياتنا معًا دون أن نهتم بالمستقبل.

(18)

يتعذر على أن أصف لك حياتنا الجديدة بالتفصيل، فقد كانت بالنسبة لنا عبارة عن مجموعة من الصبيانات الطريفة، ولكنها تبدو تافهة عديمة الأهمية إذا أنا ذكرتها، فأنت تعرف معنى أن يحب الرجل أمرآة، وتعرف كيف تمر الأيام سراعًا، وكيف ينتقل العشاق من يومهم إلى غدهم في سعادة غامرة وكسل ما بعده كسل. وتعرف نسيان الأمور الذي يتولد من حب عنيف مشترك. وكل امرأة لم تعرف معنى الحب تشعر كأنها كائن لا فائدة منه في الكون، ويندم المحب لأنه رمي بجزئيات من قلبه إلى نساء أخريات، ولا يعتقد أن في مقدوره أن يضغط على يد أخرى غير التي بين يديه. والعقل لا يسمح بأي عمل ولا بأي ذكرى يمكن أن تلهيه عن الفكرة الوحيدة التي أصبحت تشكله باستمرار، وفي كل يوم يكتشف العاشق في معشوقته سحرا جديدًا ولذة لم يكن يعرفها من قبل.

كنا إذا ما أقبل الليل نمضي أحيانا فنجلس في الغابة الصغيرة التي تقع خلف البيت، وهناك كنا نصغي إلى نغمات المساء المرحة ونحن نحلم معا بتلك الساعة القرية التي ستجمع كلا منا بني ذراعي الآخر حتى الصباح. وكنا في أوقات أخرى نبقى راقدين طوال النهار من غير أن نترك حتى لأشعة الشمس سبيلا إلى التسلل داخل غرفتنا، وكانت الستائر محكمة الإسدال، ويتوقف العالم الخارجي لحظة بالنسبة لنا. ولم يحد لأحد أن يفتح علينا الباب إلا نانين، ولم تكن هذه الأخيرة تدخل إلا لكي تأتينا بالطعام، وكنا نتناول وجباتنا دون أن نغادر الفراش، وسط الضحكات والحماقات، ثم يلي ذلك لحظات في السبات، كنا نتلاشى فيها في حبنا ونبدو كسابحين عنيدين لا يرجعان إلى سطح الماء إلا لكي يتنفسان.

ومع ذلك، كنت أفاجئ مرجريت أحيانا وهي متجهمة الوجه وفي عينهما دموع الحزن، وكنت أسألها عن سبب هذا الأسى المفاجئ فتقول:

- أن حبنا ليس حبا عاديا يا عزيزي أرمان، وأنت تحبني كما لو لم يملكني أحد من قبل، وأرتجف وأنا أخشى أن تندم على حبك لي فيما بعد وأن تجرمني بماضي وترغمني على أن أرمي بنفسي في الحياة التي انتشلتني منها، وإذ يخطر لي الآن أنني أتذوق حياة جديدة فأنني لأوثر الموت على أن أستعيد حياتي الأولى. قل لي أنك لن تهجرني أبدًا.

- أقسم لك على ذلك.

ونظرت إلي عندئذ كأنها تريد أن تقرأ في عيني أن كنت صادقا في قسمي هذا ثم ارتمت بين ذراعي وقالت وهي تدفن رأسها في صدري:

- ذلك أنك لا تعرف كم أحبك!

وذات مساء، كنا نطل من النافذة ونتأمل القمر الذي كان يبدو انه يخرج بصعوبة من فراشه الملبد بالسحب ونصفى إلى الرياح وهي تهز الأشجار، وكان كلا منا يمسك بيد الآخر وقد مضت علنيا ربع ساعة لم ننطق فيها بشيء عندما قالت مرجريت:

- ما هو الشتاء على الأبواب، فهل تريد أن نرحل؟

- أين؟

- إلى إيطاليا.

- أتشعرين بالضجر هنا؟

- أنني أخشى الشتاء، وأخشى العودة إلى باريس.

- لماذا؟

- لأسباب كثيرة.

ثم راحت تقول فجأة دون أن تذكر لي أسباب مخاوفها: هل تريد أن نرحل؟ سأبيع كل ما أملك وسنعيش هناك. لن يبقى لي شيء من ماضي، ولن يعرف أحد من أنا. هل تريد؟

- لنرحل إذا كان هذا يسرك يا مرجريت: ولكن ما الضرورة إلى بيع أشياء يسعدك أن تجديها عند عودتك؟ أنني لا أملك ثروة كبيرة لكي أرضي بهذه التضحية، ولكن لدى ما يكفي لكي نقضي رحلة جميلة تستغرق خمسة أو ستة شهور، إذا كان هذا يروقك. قالت وهي تترك النافذة وتجلس فوق الأريكة، في ظلام الغرفة:

- ولكن لا ... ما الجدوى من أن تمضي ونتفق النقود هناك؟ ... أنني أكلفك الكثير.

- أتعتبين على ذلك يا مرجريت؟ .. هذه ليست شهامة.

قالت وهي تبسط لي يدها: عفوًا يا صديقي. أن هذا الجو العاصف يثير أعصابي ولا أقول ما أريد.

وبعد أن قبلتني راحت في تأمل عميق.

وقعت مثل هذا المشاهد مرارًا كثيرة. وإذا كنت لا أدري سببها فأنني كنت الحظ عند مرجريت أحساسا بالقلق نحو المستقبل. ما كانت لتستطيع الارتياب في حبي لأنه كان يزداد كل يوم، ومع ذلك فقد أراها في أغلب الأوقات حزينة، ولم تذكر للي أبدأ هذا الأسى إلا بأنه أمر طبيعي.

وخشيت أن تكون قد ملت حياة رتيبة كتلك التي كنا نحياها. واقترحت عليها أن نعود إلى باريس ولكنها كانت ترفض هذا الاقتراح باستمرار وهي تؤكد لي أنها لا يمكن أن تشعر بالسعادة إلا في الريف.

ولم تعد برودنس تأتي إلا نادرًا، ولكنها كانت تبعث إلى مرجريت برسائل لم أطلب أبدا أن أراها مع أنها كانت تسبب كل مرة قلقا عجيبا لمرجريت، ولم أدر ماذا أفعل.

وذات يوم لزمت مرجريت غرفتها، فدخلت ووجدتها تكتب فسألتها: لمن تكتبني؟

- لبرودنس ... هل تريد أن أقرأها لك؟

وكنت أأنف من كل ما يثير الشك إلى الريبة فأجبتها بأنه لا حاجة بي إلى أن أعرف ما تكتب، ومع ذلك فقد كنت شديد الثقة من أن في هذه الرسالة السبب الحقيقي لأشجانها.

وكان الجو جميل في اليوم التالي، واقترحت على مرجريت أن نخرج للنزهة في البحر، وكانت تبدو شديدة المرح. وكانت الساعة قد بلغت الخامسة عند عودتنا. وقالت نانين عندما رأتنا: لقد جاءت مدام دوفرنوا.

سألتها مرجريت: وهل رحلت؟

- نعم. رحلت في مركبتك يا سيدي قالت أن هناك اتفاقا بينكما. أسرعت مرجريت تقول: حسنا. أعدي الغداء.

وبعد يومين جاءت رسالة من برودنس، ومت خمسة عشر يوما بدا لي فيها أن مرجريت نسيت أحزانها الغامضة التي لم تنفك تسألني الصفح عنها منذ أن أمحت.

ومع ذلك فإن المركبة لم تعد. وسألتها ذات يوم: لماذا لم تعد برودنس مركبتك؟

فأجابتك أن أحد الجوادين مريض، والمركبة نفسها بحاجة إلى بعض الإصلاحات. ومن الأوفق أن تتم الإصلاحات أثناء وجودنا هنا فلسنا بحاجة إليها إلا عندما تعود إلى باريس.

وجاءت برودنس بعد بضعة أيام وأيدت ما قالته لي مرجريت.

وتنزهت المرأتان في الحديقة وحدهما، وعندما انضممت إليهما غيرا مجرى الحديث.

وعندما همت برودنس بالانصراف في المساء اشتكت من البرد وطلبت من مرجريت أن تعيرها معطفها الثمين.

ومر شهر بعد ذلك وكانت مرجريت أكثر سعادة وحبا عما قبل.

ومع ذلك فلم تعد المركبة، ولم يعد المعطوف هو الآخر، وآثار كل ذلك الحيرة في نفسي، ولما كنت اعرف أن مرجريت تضع وسائل برودنس في درج بالذات فقد انتهزت فرصة وجود مرجريت في الحديقة وأسرعت إلى ذلك الدرج وحاولت أن أفتحه، ولكن كان ذلك عبثا فقد كان موصدًا بالمفتاح.

وعندئذ فتئت الأدراج الأخرى التي أعرف أن فيها مجوهرات ومأسات مرجريت وفتحت هذه الأدراج بسهولة، ولكنني وجدتها فارغة وقد اختفى كل ما كان فيها من الحلي، وأحسست بخوف وهممت بأن أسأل مرجريت عن الحقيقة، ولكنني لم ألبث أن أدركت أنها لن تقول لي شيئا على الإطلاق. وقلت لها عندئذ:

- أي عزيزتي مرجريت. أنني جئت أستأذنك في الذهاب إلى باريس، فلا أحد في بيتي يعرف مكاني، ولا ريب أنه جاءتني بعض الرسائل من أبي، ولاشك أن القلق قد استبد به.

قالت: أذهب يا صديقي ولكن عجل بالعودة.

ورحلت. وأسرعت إلى برودنس على الفور. وقلت لها دون مقدمات: ردي علي بصراحة، أين جوادي مرجريت:

- بيعا.

- والمعطف؟

- بيع.

- والمجوهرات.

- رهنت.

- ومن الذي باع ورهن؟

- أنا.

- ولماذا لم تطلعيني على ذلك؟

- لأن مرجريت حظرت على أن أقول لك أي شيء.

- ولماذا لم تطلبي منى نقودًا؟

- لأنها لم تشأ ذلك.

- وأين ذهبت كل هذا المال؟

- في سداد بعض الديون.

- ديونها كثيرة أذن؟

- ما زالت مدينة بثلاثين فرنك تقريبًا. آه يا عزيزي! ... قلت لك ذلك ولكنك لم تشأ أن تصدقيني. ولعلك اقتنعت الآن. كان الدوق قد تعهد للفراش بالسداد، ولكن حين مضى إليه هذا الأخير طرده وكتب إليه في اليوم التالي يتنصل من تعهد ويقول له انه لا شأن له بالآنسة جوتييه. وإذا رأى الرجل ذلك طالبها بنقوده فأسكتناه ببضعة الآلاف التي أخذتها منك. ثم أخبره بعض ذوي القلوب الخيرة بأن الدوق تخلى عن مرجريت وأنها تعيش مع شاب معدم. وعلم سائر الدائنين بهذا الأمر فطالبوا بنقودهم ووقعوا الحجز. وقد أرادت مرجريت أن تبيع ولكن كان الوقت قد فات، وأعترض الدائنون على ذلك، وكان لابد لها من أن تدفع، ولكي لا تطلب منك نقودًا باعت جواديها وثيابها ورهنت مجوهراتها. أتريد أن ترى إيصالات المشترين ومستندات الرهن؟

وفتحت برودنس درجا أخرجت منه الأوراق المذكورة ثم استطردت تقول في إصرار المراة

التي يحق لها أن تقول أنها على صواب:

- آه! هل تظن أنه يكفي أن تكون محبوبا وأن تمضي للعيش في الريف في هدوء؟ .. كلا يا صديقي، كلا. فالحياة المثالية لا تكفي وحدها ولابد من أن تقترن بالحياة المادية. وأعف القرارات ترطبها بالأرض خيوط تافهة ولكنها بمتانة الحديد ولا يمكن تحطيمها بسهولة. وإذا كانت مرجريت لم تقدم على خيانتك عشرين مرة فذلك لأنها من طبيعة استثنائية، وأنا لم أخطئ إذا كنت قد نصحتها بأن تفعل ما ذكرت لك لأنه حز في قلبي أن أراها تتجرد من كل شيء، ولكنها لم تقبل نصيحتي وأجابتني بأنها تحبك ولن تقدم على خيانتك مهما كان الثمن. وكل هذا جميل وشاعري، ولكن ليس من المستطاع تسديد الديون بهذه العملية، وهي لم تعد تستطيع اليوم أن تتخلص من ورطتها ما لم تستطع أن تجد ثلاثين ألف فرنك تقريبًا.

- حسنا ... سأتيها بهذا المبلغ.

- هل تنوي أن تقترضه؟

- نعم.

- هأنت ذا ستقوم بعمل جميل. ستختلف مع أبيك وترهق ميزانيتك ثم أنه ليس من السهل أن يجد المرء ثلاثين ألف فرنك ما بين ليلة وأخرى. صدقني يا عزيزي أرمان، أنني أعرف النساء خيرا منك، فلا تقدم على هذه الحماقة التي ستندم عليها ذات يوم. حكم عقلك. لا أقول لك أن تهجر مرجريت، ولكن عش معها كما لو كنت تعيش في بداية الصيف. ودعها تجد الوسائل للخروج من هذه الورطة، وسوف يعود الدوق إليها شيئا فشيئا، وهي إذ رضيت بالكونت فسوف يسدد ديونها كما قال لي بالأمس بالذات ويمنحها أربعة أو خمسة آلاف فرنك شهريا. أن دخله يربو على مئة ألف فرنك في العام، وسوف يدعم ذلك مركزها في حين أنه سوف يتعين عليك أنت أن تهجرها ذات يوم. فلا تنتظر حتى يصيبك الإفلاس والدمار. ثم أن الكونت رجل غبي، ولا شيء يمنعك من أن تكون عشيق مرجريت. أنها ستبكي قليلاً في البداية، ولكن سينتهي بها الأمر إلى أن تألف ذلك، وستشرك في يوم من الأيام على ما فعلت.

«سبق أن قلت لك كل هذا من قبل، ولكن في ذلك الوقت لم يكن الأمر أكثر من نصيحة، أما اليوم فإنه يكاد يكون ضرورة».

كانت برودنس على حق بكل مرارة، واستطردت تقول وهي تعيد المستندات التي أرتني إليها إلى الدرج:

- أن الغانية تتوقع أن يحبها العشاق دائمًا، ولكنها لا تتوقع أن تقع في الحب بدورها وإلا لادخرت بعض المال لكي يمكنها أن تتخذ عشيقها عندما تبلغ الثلاثين من عمرها، لو أنني كنت أعرف ما أعرفه الآن! وأخيرًا، لا تقل شيئا لمرجريت، وعد بها إلى باريس. أنك عشت معها وحدك أربعة أو خمسة شهور. وهذا يكفي فأطبق عينيك، فهذا كل ما هو مطلوب منك. وبعد خمسة عشر يوما تتخذ الكونت دي ن .. عشيقا لها، وسوف تدخر بعض المال هذا الشتاء ثم تبدآن معا في الصيف المقبل. هكذا تكون الأمور يا عزيزي.

- وبدت برودنس مسرورة بهذه النصيحة التي طرحتها من ذهني باشمئزاز، فلم يسكن حبي وكرامتي يسمحان لي بأن أتصرف هكذا، ولكنني كنت مقتنعا كل الاقتناع بأن مرجريت بلغت رحلة من حياتها تؤثر فيها الموت على قبول هذه المشاركة.

قلت: كفى مزاجا. كم تبلغ ديون مرجريت؟

- ثلاثون ألف فرنك كما قلت لك.

- ومتى يجب سدادها؟

- قبل شهرين.

- سيكون هذا المبلغ لديها.

هزت برودنس كتفيها واستطردت أقول: سأعطيك إياه، ولكن على تقسمي لي آلا تقولي لمرجريت أنني أعطيته لك.

- اطمئن.

- وإذا أرسلت إلك شيئا آخر لبيعه أو رهنه فأخطريني.

- ليس هناك ما تخشاه، فلم يعد لديها شيء.

مضيت بعد ذلك إلى بيتي لكي أرى أن كانت هناك رسائل من أبى. ووجدت منها أربعا.

(19)

أبدى أبي قلقه إزاء صمتي في رسالته الثلاثة الأولى، أما في الرابعة فقد فهمت منها أن البعض قد أخبره بما طرا على حياتي من تغيير، وأنبأني فيها بمجيئه القريب.

وقد أحسست دائما باحترام كبير وحب صادق نحو أبي، ولهذا أجبته بأن رحلة قصيرة هي السبب في صمت كل هذا الوقت، ورجوته أن يطلعني على موعد وصوله حتى يتسنى له استقباله.

ثم ذكرت لخادمي عنواني في الريف، وأوصيته أن يأتيني بأول رسالة تحمل خاتم مدينة «س» ثم عدت إلى بوجيفال على الفور.

وكانت مرجريت في انتظاري بباب الحديقة وفي عينيها أمارات القلق، وعانقتني وهي تقول في نفس الوقت: هل رأيت برودنس؟

- كلا.

- أنك قضيت في باريس وقتا طويلاً.

- ذلك أنني وجدت رسائل من أبي واضطررت أن أكتب الرد.

وبعد بعض لحظات دخلت نانين وهي مبهورة الأنفاس، فنهضت مرجريت ومضت إليها وتحادثت معها في صوت خافت.

وعندما خرجت نانين قالت مرجريت وهي تجلس بجواري. وتأخذ بيدي: لماذا كذبت علي؟ ... أنك ذهبت على برودنس؟

- من قال لك ذلك؟

- نانين.

- وكيف عرفت؟

- أنني أرسلتها خلفك فقد أدركت أن هناك سببا قويا يدفعك إلى الذهاب إلى باريس: مع أنك لم تفارقني أربعة شهور، وخشيت أن يكون قد حدث مكروه أو أنك ربما تمضي إلى امرأة أخرى.

- ما أنتك إلا طفلة؟

- أنني اطمأننت الآن .. أنني أعرف ما فعلت ولكنني لم أعلم ما قيل لك.

أريتها رسائل أبي ولكنها أسرعت تقول: ما إلى هذا أشرت ... أن ما أريد معرفته هو لماذا إلى برودنس؟

- ذهبت لكي أراها.

- أنت تكذب يا صديقي.

- حسنا أذن. مضيت إليها لكي أسألها أن كان الجواد قد شفى، وأن كانت لا تزال بحاجة إلى معطفك ومجوهرات.

اضطرم وجه مرجريت ولكنها لم تنطق بكلمة، فاستطردت أقول: وقد علمت بما جرى للجوادين وللمعطف والمجوهرات.

- هل أنت غاضب علي؟

- أنما يغضبني أنه لم يخطر لك أن تطلبي مني ما أنتك بحاجة إليه.

- في علاقة كعلاقتنا، وإذا كانت المرأة لا تزال تشعر بشيء من الكرامة وعزة النفس فإنها تفرض على نفسها كل التضحيات الممكنة على أن تطلب نقودًا من عشيقها وتعطي حبها صبغة

تجارية أنت تحبني، وأنا على يقين من ذلك، ولكنك لا تعرف مدى ضعف الخيط الذي يربط في قلب الرجل الحب الذي يكنه لفتاة مثلى، ومن بدري. ربما يأتي يوم تجد فيه نفسك في عسر مالي أو تشعر بالملل والضجر وتتوهم أن في علاقتنا خطة مالية أحكمت أنا تدبيرها. أن برودنس ثرثارة. ما حاجتي إلى الجياد. أنني اقتصدت إذ بعتهما، وف مقدوري الاستغناء عنهما تمامًا، لم أنين لا أنفق عليهما شيئا منذ وقت طويل. ليتك تستمر على حبي، فهذا كل ما أريد، ولن يقل حبك لي وأنا بدون جياد ومعاطف ومجوهرات.

قالت كل ذلك بلهجة طبيعية بحيث أغرورقت عيني بالدموع وأنا أصغى إليها، وقلت وأنا أضغط على يديها في حدة.

- ولكن كنت تعرفين يا عزيزتي مرجريت أنني كنت سأعلم ذات يوم بهذه التضحية؟ وأنني لن أطبق الأمر عندئذ.

- ولماذا؟

- لأنني لا أريد يا عزيزتي أن يحرمك حبك لي حتى ولو من جوهرة واحدة، فأنا الآخر لا أريد أن تمر بك لحظة عوز أو ملل ويخطر لك أنك لو كنت تعيشين مع رجل آ خر لما حدث كل هذا، وأن تندمي ولو دقيقة واحدة على معيشتك معي. بعد بضعة أيام سيرد إليك جواداك معطفك ومجوهراتك فهي ضرورية لك ضرورة الهواء للحياة، وقد يكون الأمر مضحكًا ولكنني أحبك في بذخك وترفك أكثر مما أ؛بك في بساطتك.

- أذن فأنت لم تعد تحبني.

- يا لك من مجنونة!

- لو أنك تحبني لتركتني أحبك على طريقتي. ولكنك ما زالت ترى في فتاة لا تستطيع العيش إلا في مظاهر الترف والبذخ، وتظن أنم مضطر أن تدفع لها. يخجلك أن تقبل دلائل حبي وأنت تفكر رغما عنك في أن تهجرني ذات يوم وتصر على أن تضع رقة شعورك في أمان من كل شيء. أنك على صواب يا صديقي، ولكنني كنت انتظر منك أفضل من هذا.

وأتت مرجريت بحركة لكي تنهض ولكنني أمسكتها وأنا أقول:

- أريد أن تكوني سعيدة وألا تلوميني على أي شيء.

- وهل سنفترق؟

صحت: ولماذا نفترق يا مرجريت؟ ... ومن الذي يستطيع أن يفر بيننا؟

- أنت، لأنك لا تريد أن تسمح لي بأن أفهمك مركزك، ولأنك من الغرور بحيث تريد منى الاحتفاظ بمركزي ... أنت، لأنك إذ تريد الإبقاء على الترف الذي عشت فيه تريد الاحتفاظ بالفارق الأدبي الذي يفصل بيننا. وأخيرًا، أنت، لأنك لا تريد أن تصدق أنني أحبك حبا خالصا منزها عن كل غرض وتأبى أن تشاطرني دخلك الذي نستطيع أن نعيش به سعيدين معا وتفضل أن تستدين وأن تورد نفسك موارد الهلاك والدمار. أنم مضحك في تعصبك. هل تظن أنني أقارن حبك بمركبة ومجوهرات، هل تظن أن سعادتي تكمن في التفاهات التي نرضى بها حين لا نحب أحدا والتي تغدو حقيرة إذا ما أحببنا؟ ستسدد ديوني وتقتطع من ثروتك وتنفق علي؟ كم من الوقت يدوم هذا؟ شهرا أو ثلاثة شهور، وعندئذ يكون الوقت قد فات لكي تسترد الحياة التي أقترحها عليك لأنك ستقبل عندئذ كل شيء مني، وهذا ما يأباه الرجل الشريف في حين أنك تملك الآن دخلا ما بين ثمانية وعشرة آلاف، فرنك نستطيع أن نعيش به. وسوف أبيع ما لا حاجة لي به، وبهذا البيع وحده سأحقق دخلا قدره ألفي فرنك في السنة، وسنقضي الصيف في الريف لا في بيت كهذا وإنما في بيت يكفي لمعيشة شخصين.

- وأنت حر وأنا حرة، وكلانا في ريعان الشباب فبحق الله يا أرمان، لا تعيدني للحياة التي

اضطررت أن أحياها فيما مضى.

لم أستطع الرد، وامتلأت عيناي بدموع الامتنان والحب، وألقيت بنفسي بين ذراعي مرجريت. وعادت هذه تقول:

- أود أن أدبر كل شيء من غير أن أقول لك وأن أسدد كل ديوني وأعد مسكننا الجديد. وفي شهر أكتوبر نكون قد عدنا إلى باريس بعد أن ينتهي كل شيء. ولكن برودنس أطلعتك على كل شيء: ويجب الآن أن توافق مقدما بدلا من أن توافق مؤخرًا، فهل حبك لي من الكفاية بحيث تقبل ذلك؟

كان من المحال أن أقاوم كل هذا الإخلاص، وقبلت يدي مرجريت في شغف وقلت: سأمتثل إلى كل ما تريدين.

واتفقنا إذن على ما انتوت هي عليه. واستولى عليها فرح جنوني عندئذ، وراحت ترقص وتغني، وأطربها أن تتحدث عن بساطة مسكنها الجديد وراحت تستشيرني في كل شيء. ورأيتها سعيدة بهذا القرار الذي بدا انه يزيد كل منا قربا من الآخر، ولهذا لم أشأ أن أعكر عليها مرحها، ودبرت في لحظة وحدة طريقة حياتي، وحددت ثروتي وتنازلت عن الدخل الذي ورثته عن أمي والذي بدا لي أنه لا يكفي أن يكون مكافأة عن التضحية التي قبلتها، ويتبقى لي بعد ذلك الدخل الذي يأتيني من أبي وقدره خمسة آلاف فرنك، وهو مبلغ قررت أن يكفيني طوال العام مهما يحدث.

ولم أطلع مرجريت على شيء مما عزمت عليه اقتناعا مني أنها سترفض هذه الهبة، وكان هذا الدخل عبارة عن إيراد بيت تبلغ قيمته ستين ألف فرنك، وهو بيت أوقفته أمي بحيث لا أستطيع بيعه، ولم أره أبدا، وكل ما أعرفه أن موثق العقود الذي يهتم بأعمال أبي كان يعطيني كل ثلاثة أشهر 750 فرنكًا مقابل إيصال.

وفي اليوم الذي أتيت فيه إلى باريس أنا ومرجريت لكي نبحث عن مسكن مضيت إلى هذا الموثق واستفسرت منه عن الطريقة التي يجب أن أتنازل فيها عن هذا الربع لصالح ربع آخر.

وحسب الرجل الشهم أنني أفلست وسألني عن سبب هذا القرار، ولماذا كان لابد لي من أن أخبره باسم الشخص الذي يجب أن أتنازل له عن هذا الربع فقد أثرت أن أذكر له كل الحقيقة.

ولم يبد أي اعتراض كما كان يجب أن يفعل بصفته وكيل أعمال أبي وصديقه، وأكد لي بأنه سيتكفل بكل شيء. وقد أوصيته بطبيعة الحال أن يتكتم الأمر وألا يذكر عنه شيئًا لأبي. ثم مضيت للانضمام إلى مرجريت، وكانت تنتظرني في منزل جوليا دوبرا حيث آثرت أن تنزل بدلا من أن تمضي وتصغي إلى نصائح برودنس.

ورحنا نبحث عن المسكن بعد ذلك، ووجدت مرجريت كل المساكن التي رأيناها مرتفعة الإيجار في حين أنني كنت أجدها مناسبة، ومع ذلك فقد تم الاتفاق أخيرًا واخترنا منها منزلا صغيرًا منعزلا عن باقي المنازل في أحد أحياء باريس الهادئة.

وكانت تمتد خلف هذا المنزل حديقة صغيرة جميلة. تحيط بها أسوار عالية تعزلنا عن جيراننا ولكن ارتفاعها لم يكن يمنعنا من رؤية المناظر الخارجية.

ومضيت بد ذلك إلى مسكني لكي أخلي التزامي به في حين ذهبت مرجريت إلى رجل أعمال قالت لي أنه سبق أن فعل لإحدى صديقاتها ما سوف تطلبه منه.

وجاءتني بعد ذلك إلى شارع بروفانس فرحة مسرورة فغن ذلك الرجل وعدها بأن يسدد لها كل ديونها وأن يعطيها الإيصالات الدالة على ذلك وأن يقدم لها علاوة على ذلك عشرين ألف فرنك نظير تنازلها عن كل مفروشاتها ورياشها.

وأنت ترى من الثمن الذي بيعت به المفروشات والرياش المذكورة أن هذا الرجل كان سيربح

من هذه الصفقة أكثر من ثلاثين ألف فرنك.

وعدنا إلى بوجيفال ونحن نكاد نطير من الفرح، وأخذنا نتحدث عن المستقبل، وكنا نراه، بفضل استهتارنا وبفضل حبنا على وجه الخصوص، مستقبلا زاهرًا باسمًا.

وبعد ثمانية أيام، وبينما كنا نتناول طعام الغداء أقبلت نانين وأخبرتنا أن خادمي يطلبني، وقال هذا الأخير عندما استقبلته:

- سيدي، أن أباك جاء إلى باريس ويرجوك أن تمضي لمقابلته على الفور. أنه ينتظرك في بيتك.

- كان هذا النبأ من أبسط الأشياء، ومع ذلك فما أن سمعناه حتى تبادلت أنا ومرجريت النظر وقد استشعرنا شرا، ولهذا ومن غير أن تطلعني على مشاعرها شاطرتها إياها بأن ضغطت على يدها وأنا أقول: لا تخشى شيئًا.

تمتمت تقول وهي تعانقني: عجل بالعودة بقدر ما تستطيع. سأنتظرك أمام النافذة.

وأرسلت جوزيف لك يقول لأبي أنني قادم، والواقع أنني بعد ساعتين اثنتين كنت في شارع بروفنانس.

(20)

كان أبي يجلس في غرفة الصالون، وكان يرتدي جلبابا ويكتب وأدركت على الفور عندما رفع عينيه إلى أن هناك أمرًا جللاً.

ومضيت إليه كما لو أنني لم أستشعر شيئا في عينيه وعانقته قائلاً: متى جئت يا أبي؟

- مساء أمس.

- وهل جئت إلى البيت كما هي عادتك؟

- نعم.

- يؤسفني أنني لم أكن موجودًا لاستقبالك.

وكنت أتوقع أن تتدفق عندئذ الموعظة التي رأيت تباشيرها على وجه أبي الصارم، ولكنه لم يرد علي وطوي الرسالة التي كان يكتبها ووضعها في مظروف أعطاه لجوزيف لكي يلقي به في صندوق البريد.

وعندما خرج الخادم نهض أبي وقال لي وهو يتكئ على الموقد:

- هناك أمر هام أريد أن نتحدث فيه يا عزيزي أرمان.

- كلي آذان صاغية يا أبت.

- هل تعدني بان تكون صريحًا معي.

- هذه عادتي.

- هل صحيح أنك تعيش مع امرأة تدعي مرجريت جوتييه؟

- نعم.

- هل تعرف حقيقة هذه المرأة؟

- أنها غانية.

- أمن أجلها نسيت أن نأتي هذه السنة لزيارتنا وأختك؟

- نعم يا أبي. أنني أعترف بذلك.

- أذن فأنت تحب هذه المرأة كثيرًا.

- أنت ترى هذا جيدا يا أبي، ما دامت قد جعلتني أقصر في واجب مقدس، وأسألك بكل خضوع أن تغفر لي.

ولاشك أن أبي لم يكن يتوقع مني مثل هذه الإجابات الصريحة لأنه بدأ أنه يفكر لحظة ثم قال: أظنك تفهم أنك لا تستطيع أن تستمر في هذه المعيشة طويلاً.

- أخشى ذلك يا أبي، ولكنني غي مستعد لذلك.

- أستطرد أبي يقول في لهجة جافة بعض الشيء؟ أفهم هذا، ولكني لا أستطيع احتمال ذلك؟

- قلت لنفسي أنني طالما لا افعل ما يسمى هذا الاحترام الذي أدين به لأسمك ولا للشرف التقليدي للعائلة فأنني أستطيع أن أعيش كما يحلو لي، وهذا ما جعلني اطمئن بعض الشيء إزاء المخاوف التي أحسست بها.

والحب يقوي المشاعر، وكننت مستعدا لكل نزال، حتى مع أبي للاحتفاظ بمرجريت.

- أذن حان الوقت لكي تغير حياتك هذه.

- آه، ولماذا يا أبت؟

- لأنك على وشك القيام بأمور تخدش الاحترام الذي تعتقد أنك تكنه لأسرتك.

- لست أفهم ما تقول.
- سأشرح لك ذلك .. لا بأس من أن تتخذ لك عشيقة، ولا بأس من أن تنقدها نقودًا كما يفعل أي عاشق نظير الحب الذي تبادله إياه أية غانية. أما أن ننسى أقدس الأمور بسببها، وأن تسمح بأن يصل صخب حياتك الفاضحة إلى قريتي وأن يدنس الاسم الشريف الذي أعطيتك إياه فهذا لا يمكن أن يكون ولن يكون.
- اسمح لي يا أبي أن أقول لك أن الذين أبلغوك عما تنعتني به لم بلغوك الحقيقة. صحيح أنني عشيق الآنسة جوتييه، وصحيح أنني أعيش معها ولكنني لم أعطها الاسم الذي تلقيته منك، ثم أنني أنفق عليها ما تسمح به مواردي ولم أقترض ولم أضع نفسي في أي من هذه المواقف التي تسمح لوالد أن يقول لبنه ما قلته لي.
- يجوز للأب دائما أن ينحي ابنه عن طريق السوء الذي يراه ينزلق إليه، وأنت لم تفعل سواء بعد ولكنك سوف تفعل.
- أبي!
- سيدي ... أنني أعرف الحياة أكثر منك. ليس هناك أية مشاعر طاهرة ألا عند الفتيات الطاهرات العفيفات. وفي استطاعة كل مانون أن تفعل من عشيقها دي جريو، وقد تغيرت الأوقات والتقاليد، وأنه لمن العبث أن تشيخ الدنيا إذا لم تنصلح. سوف تهجر عشيقتك.
- هذا مستحيل يا أبي ويؤسفني أن أعصى أمرك.
- سأرغمك على أن تفعل. افتح عينيك يا أرمان واصغ إلى أبيك الذي طالما أحبك والذي لا يريد ألا سعادتك. أيشرفك أن تعيش كزوج مع فتاة كانت ملكا للجميع.
- وفيم يهمني هذا يا أبي ما دام أحدا لن يملكها بعد ذلك؟... فيم يهمني هذا ما دامت تحبني، وما دام حبها لي سيطهرها من كل دنس، مع حبي لها، لا يهمني شيء من كل هذا ما دامت قد امتلاك إلى سواء السبيل.
- وهل تظن يا سيدي أن مهمة الرجل الشريف هي هداية الغانيات؟ هل تظن أن الله وهب هذه الغاية البشعة للحياة، وأن القلب لا يجب أن يكون له هوى آخر غير هذا؟ ماذا تكون خاتمة هذا العلاج العجيب، وماذا يكون رأيك فيما تقول الآن حين يبلغ الأربعين من عمرك. ستضحك من ماضيك، هذا إذا كان مسموحًا لك أن تضحك عندئذ، وإذا لم يترك آثارا عميقة في ماضيك؟ ... ماذا يكون أمرك في هذه الساعة لو أن أباك اعتنق مبادئك هذه وأسلم حياته لاعصارات الحب بدلا من أرسلها بكل ثبات مع مبادئ قوامها الشرف والصدق؟ فكر يا أرمان ولا تنطق بمثل هذه الحماقات. سوف تهجر هذه المرأة، وأبوك يتوسل إليك أن تفعل.
لم أجبه فاستطرد يقول: أرمان، باسم أمرك الطاهرة أرجوك أن تتخلى عن هذه الحياة التي سوف تنساها بأسرع مما تظن والتي تربطك بها نظرية مستحيلة. أنك في الرابعة والعشرين من عمرك ففكر في مستقبلك. لن يمكنك أن تحب إلى الأبد هذه المرأة التي لن يستمر حبها لك هي الأخرى إلى الأبد. أنكما غاليتما في حبكما معًا. أنك تضع عقبة كئودًا أمام مستقبلك، وإذا خطوت خطوة أخرى في طريقك هذا فلن تستطيع أن تتراجع أبدا وستقضي حياتك كلها نادما على شبابك. سافر، تعال واقض شهرا أو شهرا أو شهرين بجوار أختك، فغن الراحة والحب الورع سوف يشفيانك سريعا من هذه الحمى لأن ما تشعر به لي شيئا آخر غير الحمى.
«وفي أثناء ذلك، سوف تسلوك عشيقتك وتتخذ عشيقا آخر، وعندما ترى بسبب من كنت ستختلف مع أبيك وتفقد حبه ستقول لي أنني أحسنت بمجيء إليك، وسوف تباركني».
كنت أحس أن أبي محق فيما يقول عن جميع النساء، ولكنني كنت مقتنعا بأنه لم يكن على صواب فيما يتعلق بمرجريت، ومع ذلك فإن اللهجة التي نطق بها كلماته الأخيرة كانت حلوة

وكلها توسل بحيث لم أجرؤ أن أرد عليه.

وقال في صوت يتهدج من الانفعال: حسنا.

قلت أخيرًا: لا أستطيع أن أعدك بشيء يا أبي فإن ما تطلبه مني فوق طاقتي.

واستطردت أقول وأنا أراه بحركة تدل على فروغ صبره:

- صدقني يا أبي أنك تبالغ في نتائج هذه العلاقة. أن مرجريت ليست الفتاة التي تظنها، وهذا الحب بدلا من أن يلقي بي في طريق سوء جدير على العكس بأن ينمي في أنبل المشاعر. أن الحب الصادق يجعل الرجل أفضل مما هو مهما تكن المرأة التي توحى به. ولو أنك عرفت مرجريت لأدركت أنني لا أتعرض لشيء مما تقول فهي نبيلة كأنبل النساء ومنزهة عن كل الأغراض، وهذا ما لا تجده في غيرها من الأخريات.

- ولكن هذا لا يمنعها من قبول كل ثروتك، لأن الستين ألف فرنك التي أوقفتها عليك أمك هي ثروتك الوحيدة، لعلك لم تنس.

ولاشك أن أبي احتفظ بهذه النهاية وهذا التهديد لكي يوجه إلى ضربته الأخيرة، ولكنني كنت اشد قوة أمام تهديداته مما كنت أمام توسلاته، وقلت:

- من الذي أخبرك بأنني سأتنازل لها عن هذه الثروة؟

- موثق العقود، وهو رجل شريف ما كان ليقدم على عمل كهذا دون أن يطلعني عليه. حسنا، أنني أتيت إلى باريس لكي أمنعك من تدمير نفسك بسبب فتاة، لقد تركت لك أمك هذه الثروة لكي تعيش عيشة شريفة لا لكي تهبها لعشيقاتك.

- أقسم لك يا أبي أن مرجريت لا تعلم شيئًا عن هذه الهبة.

- ولما فعلت ذلك أذن؟

- لأن مرجريت، هذه المرأة التي تفتري عليها والتي تريد مني أن أهجرها ضحت بكل ما تملك لكي تعيش معي.

- وهل تقبل هذه التضحية؟ أي رجل أنت يا سيدي لكي تسمح للآنسة مرجريت بأن تضحى بشيء من أجلك؟ هذا يكفي. سوف تهجر هذه المرأة. كنت أتوسل إليك منذ لحظات بأن تفعل، أما الآن فأنني آمرك بذلك، لا أريد مثل هذه القذرات في أسرتي. أحزم حقائبك وأستعد لكي تأتي معي.

قلت عندئذ: أغفر لي يا أبي، ولكنني لي أرحل.

- ولماذا؟

- لأنني بلغت سنا تتيح لي ألا أطيع أمرًا.

امتقع وجه أبي لهذا الرد وقال: حسنا يا سيدي. أنني اعرف ماذا يجب أن أفعل الآن.

وقرع الجرس وقلا لجوزيف: انقل حقائبي إلى فندق باريس ثم مضي على الغرفة لكي يرتدي ثيابه، وعندما عاد أسرعت غليه وأنا أقول: عدني يا أبي أنك لن تفعل شيئا لمرجريت.

توقف والدي ونظر إلي في احتقار وقال: أظن أنك مجنون!

وخرج عقب ذلك وصفق الباب خلفه في عنف.

وهبطت بدوري، وركبت عربة مضت بي إلى بوجيفال.

وكانت مرجريت واقفة تنتظرني أمام النافذة.

(21)

صاحت وهي ترتمي في أحضاني، هانت أخيرًا، ولكن ما أشد شحوبك! رويت لها عندئذ ما حدث بيني وبين أبي فقالت: يا إلهي؟ كنت أشك في ذلك. عندما أقبل جوزيف ينبئك بقدوم أبيك ارتجفت واستشعرت شرا. مسكين! وأنا التي أتسبب لك في كل هذه الأحزان. لعل من الأوفق أن تهجرني بدلا من أن تختلف مع أبيك. ومع ذلك، فأنات لم أفعل شيئا. أننا نعيش في هدوء تام، وسوف نعيش في هدوء أكثر. أنه يعلم تمامًا أنه لابد لك من أن تتخذ عشيقة، وكان ينبغي أن يكون سعيدًا بحي بحيث أنني لا أطمع في أكثر مما تسمح به مواردك. هل قلت كيف خططنا لمستقبلنا؟

- نعم. وهذا هو ما آثاره أكثر من أي شيء آخر لأنه رأى فى هذا التخطيط البرهان على حبنا المشترك.
- ما العمل إذن؟
- أن نبقى معا يا عزيزتي مرجريت وأن نترك هذه العاصفة تمر.
- وهل تمر؟
- لابد من ذلك.
- ولكن أظن أن أباك لن يتوف عند هذا الحد.
- وماذا تريدين أن يفعل؟
- وما أدرائي؟ كل ما يستطيع أب أن يفعل لكي يطيعه أبنه.

سيذكر حياتي الماضية، وقد يشرفني ويبتكر قصة لكي تهجرني.

- أنت تعرفين جيدًا أنني أحبك.
- نعم. ولكنني أعلم أيضًا أنه يجب أن تطيع أباك أن عاجلا وأن آجلاً . وسوف ينتهي بك الأمر إلى أن تقتنع.
- كلا ما مرجريت. بل أنا الذي سأقنعه. أن وشايات بعض أصدقائه هي التي تسببت في هذا الغضب العنيف، ولكنه طيب القلب وعادل، وسيرجع عن انطباعه الأول.
- لا تقل هذا يا أرمان. أنني أفضل كل شيء على أن يعتقد أحد أنني سبب خلافك مع أسرتك. دع هذا اليوم يمر، وغدا تعود إلى باريس، سيكون أبوك قد فكر من ناحيته وتكون أنت قد فكرت من ناحيتك، وربما استطعنا التفاهم بصورة أفضل. لا تقاوم مبادئه وتظاهر بأنك تتنازل وأن تقبل بعض رغباته، وأنك لا تتمسك بي فيترك الأمور كما هي. نذرع بالصبر يا صديقي وتأكد من شيء واحد هو أنه مهما فسوف تبقى مرجريت لك.
- هل تقسمين على ذلك؟
- وهل أنا بحاجة إلى أن أقسم لك؟

ما أحلى أن يجعل الإنسان نفسه على أن يقتنع بصوت محبوبته قضينا أنا ومرجريت طوال اليوم في الحديث عن مشروعاتنا كما لو أننا أدركنا حاجتنا إلى تنفيذها بأسرع وقت ... كنا نتوقع في كل دقيقة حدثا ما،و ولكن مر اليوم دون أن يجد جديد.

وغادرت بوجيفال في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، وبلغت الفندق نحو الظهر، ولكن أبي كان قد خرج، ومضيت إلى مسكني معللا النفس بأنه ربما يكون قد ذهب هناك، ولكنني لم أره وذهبت إلى موثق العقود فلم أجده هناك.

ومضيت إلى الفندق، وانتظرته حتى الساعة السادسة ولكن مسيو دوفال لم يعد.

وعدت عندئذ إلى بوجيفال، ولم تكن مرجريت في انتظاري أمام النافذة كما كانت بالأمس، وإنما كانت جالسة بجوار النار، وكان الطقس قد اقتضى أشعالها.

كانت مستغرقة في التفكير بحيث اقتربت منها دون أن تسمعنى ودون أن تلفت إلي. وعندما طبعث قبلة على جبينها ارتجفت كما لو أن هذه القبلة قد أيقظتها. وقالت: أنك أخفتني ... وأبوك؟

- لم أره. لا أدري معنى هذا ولكنني لم أجده، لا في الفندق ولا في أي مكان من الأماكن التي اعتقاد الذهاب إليها.
- لابد من أن تسافر غدا مرة أخرى إذن.
- أود أن أنتظر حتى يبعث هو في طلبي، فقد فعلت حتى الآن كل ما كان يجب أن أفعل.
- كلا يا صديقي. أن هذا لا يكفي، يجب أن تعود إلى أبيك غدًا.
- ولماذا غدًا بالذات دون أي يوم آخر.

خيل لي أن وجهها اضطرم قليلاً لسؤالي هذا، وقالت: لأن الإصرار من جانبك سيبدو أشد حدة وقد يتسبب في صفحة ومغفرته بسرعة أكثر.

وبقيت مرجريت طوال اليوم بعد ذلك قلقة وشاردة الذهن وحزينة. واضطررت أن أعيد عليها كل ما أقول مرتين لكي أحصل منها على رد. وعللت هذا القلق على خوفها من المستقبل بسبب الأحداث التي وقعت في اليومين الأخيرين. وقضيت الليل في بث الطمأنينة إليها، وحملتني على الرحيل في صباح اليوم التالي في إصرار أقلقني ولم أستطع له تفسيرًا.

ووجدت أبي غائبًا بالأمس، ولكنه كان قد ترك لي رسالة قبل أن يخرج هذا نصفها: «إذا أتيت لزيارتي اليوم فانتظرني حتى الساعة الرابعة,إذا لم أعد حتى الساعة الرابعة فاحضر غدا لتناول العشاء معي، إذ يجب أن أتحدث معك».

وانتظرت حتى الساعة الرابعة ولكنه لم يأت فعدت إلى بوجيفال.

وكنت قد وجدت مرجريت بالأمس حزينة ولكنني وجدتها اليوم محمومة ومضطربة. وإذا رأتني أدخل ارتمت على عنقي، ولكنها بكت طويلا وهي بين ذراعي.

وسألتها عن سبب هذا الحزن الذي جاء فجأة والذي يخفيني تدرجه ولم تذكر لي سببا مقنعا متعللة بكل ما يمكن أن تتعلل به المرأة عندما لا تريد أن تذكر الحقيقة.

وعندما هدأت قليلا رويت لها نتائج رحلتي. وعرضت عليها رسالة أبي وقلت لها أنها لا تبشر بخير.

وعندما قرأت الرسالة وسمعت رأي فيها ازدادت دموعها إلى حد أنني استدعيت فانين، وخشينا أن تنتابها أزمة عصبية فأرقدناها وهي لا تزال تبكي دون أن تنطق بكلمة واحدة. ولكنها ظلت ممسكة بيدي وراحت ترفعها إلى شفتيها ما بني لحظة وأخرى.

وسألت نانين أن كانت قد جاءتها رسالة في غيابي أو أن كان قد أتي أحد لزيارتها وتسبب في حزنها بهذه الصورة فأجابتني بأنه لم يأت أحد ولم تتلق أية رسالة.

ومع ذلك فقد كان هناك ما يحدث منذ الأمس، ولا ريب أنه شيء أحزن مرجريت وآثرت أن تخفيه عني.

وبدت أكثر هدوءًا في المساء، وأجلستني على حافة فراشها وراحت تؤكد حبها لي ثم ابتسمت ولكنها بذلت جهدا في سبيل ذلك لأن عينيها أغرورقتا بالدموع رغما عنها.

واستنفذت كل الوسائل لكي أحملها على الاعتراف لي بالسبب الحقيقي لأساها ولكنها بقيت على إصرارها، ولم تذكر لي إلا نفس الأسباب المبهمة التي سبق أن ذكرتها لي.

وانتهى بها اليوم إلى أنها قامت بني ذراعي. ولكن نومها كان من هذا النوع يهد الجسد بدلا ن أن يربحه، فكانت تطلق صيحة ما بين وقت وآخر وتستيقظ مذعورة، وبعد أن تتأكد من وجودي بجانبها تحملني على أن أقسم بأنني سأبقى على حبها دائمًا.

ولم أفهم شيئا من الأحزان المتقطعة التي استمرت حتى صباح اليوم التالي، وعندئذ تغلب عليها النعاس، فلم تكن قد نامت نوما عميقا منذ ليلتين. ولكن نومها لم يطل فقد صحت في الساعة الحادية عشر، وإذا رأت أنني مستيقظ رددت البصر حولها وهي تصبح: أماض أنت الآن؟

قلت وأنا أمسك بيديها: كلا. ولكنني أردت أن أدعك تنامين، فما زال الوقت مبكرًا.

- متى ستذهب إلى باريس؟
- في الساعة الرابعة.
- هكذا سريعًا؟ سوف تبقى معي حتى ذلك الوقت؛ أليس كذلك؟
- دون شك. ألست أفعل هذا دائمًا.
- يا لسعادتي!

عادت تقول في شرود: هل نتناول طعام الغداء.

- إذا أردت.
- ثم تقلبني حتى وقت رحيلك؟
- نعم. وسأعود في أقرب وقت.

قالت وهي تنظر حولها في شرود: هل ستعود؟

- طبعا
- هذا صحيح. سوف تعد هذا المساء، وسأنتظرك أن كعادتي، وسوف تحبني. سنكون سعيدين كما نحن منذ أن تعرف كل منا بالآخر.

قالت كل ذلك بصوت متهدج يبدو أنه يخفى خلفه فكرة مؤلمة دائمة، وكنت أرتجف في كل لحظة خشية أن تأخذها نوبة من الهذيان. ولت لها: أصغى إلى؟ أنت مريضة ولا أستطيع أن أتركك هكذا. سأكتب إلى أبي لكي لا ينتظرني.

صاحت فجأة: كلا، كلا. لا تفعل هذا. سيتهمني أبوك مرة أخرى بأني أمنعك من المضي إليه عندما يريد أن يراك. كلا، كلا. يجب أن تمضي إليه. يجب ذلك، ثم أنني لست مريضة. أنني على ما يرام. والحقيقة أنني رأيت حلما مزعجا لم أتخص منه بعد.

وحاولت مرجريت بعد ذلك أن تبدو أكثر مرحا، ولم تبك.

ولما أزفت ساعة الرحيل قبلتها وسألتها أن كانت تريد مرافقتي حتى المحطة. وكنت أرجو أن يصرفها السير عن أفكارها وأن يصيبها الهواء بالخير.

وكنت أريد على الخصوص أن أبقى معها أطول مدة ممكنة.

ووافقت، وارتدت معطفا ورافقتني، واصطبحت نانين معها حتى لا تعود بمفردها.

وترددت عشرين مرة في الرحيل، ولكن أمل التعجيل بالعودة والخوف من أن يعود أبي فيغضب مني من جديد جعلاني أتماسك حتى أنطلق القطار.

وقلت لمرجريت وأنا أفارقها: إلى اللقاء.

ولكنها لم ترد.

وقد حدث أنها لم ترد على نفس هاتين الكلمتين قبل ذلك، ولعلك تذكر أن الكونت دي ج ...

قضى الليلة معها وقتئذ. ولكني ذلك الوقت كان بعيدًا، وخيل لي أنه أمحى من ذاكرتي، وإذا كان يجب أن أخشى شيئا فلم يكن هذا الشيء هو أن تعود مرجريت وتخونني.

«وعندما وصلت إلى باريس أسرعت على برودنس ووجدتها أن تمضي إلى مرجريت، على أن تخفف وتسري عنها بوجودي».

ودخلت دون أن أعلن عن نفسي، ووجدت برودنس تتجمل أمام مرآتها. وقالت لي في قلق: آه، هل مرجريت معك؟

- كلا.
- وكيف هي؟
- أنها مريضة.
- ألت تأتي؟
- وهل كان يجب أن تأتي؟

أحمر وجه مدام دفرنوا وأجابتني في شء من الارتباك: أنما عنيت، وأنا أراك هنا في باريس، أن كانت ستأتي للانضمام إليك؟

- كلا.

ونظرت إلى برودنس فأطرقت برأسها، وخيل لي أنني أقرأ في عينيها الخوف من أن تطول زيارتي لها. وقلت:

- أنني إنما أتيت يا برودنس لأرجوك أن تذهبي إلى مرجريت والبقاء معها إذا لم يكن هناك ما يمنعك، وأن تقضي الليل معها إذا أمكن، فإنني لم أرها أبدا في مثل هذه الحالة التي أريها فيها اليوم، وأخشى أن تكون مريضة.

أجابت، يجب أن أتناول العشاء الليلة في المدينة، ولن أستطيع أن أمضي إلى مرجريت. ولكنني سأزورها غدا.

لم يسمعني ألا أن استئذنها في الانصراف وأنا أراها فريسة للقلق كمرجيت، ومضيت للقاء أبي، وكان أول ما فعله أن رماني بنظرة فاحصة ثم بسط لي يده قائلاً.

- أنني أحسست بسرور كبير لزيارتك يا أرمان، فقد استدللت منها على أنك فكرت من ناحيتك، كما فكرت أنا من ناحيتي.
- هل تأذن لي يا أبي أن أسالك عن نتيجة أفكارك؟
- رأيت يا صديقي أنني بالغت في أهمية العلاقات التي أنبئت بها عنك وعهدت نفسي أن أكون أقل قسوة معك.

صحت في ابتهاج، ماذا تقول يا أبي؟

- أقول يا أبني العزيز أنه ينبغي أن يكون لكل شاب عشيقة. وبناء على المعلومات التي وصلتني أفضل أن تكون هذه العشيقة الآنسة جوتييه بدلا من أية امرأة أخرى.
- أي أبي العزيز ... أي عدت إلى سعادتي.

وتحدثنا بضع لحظات ثم جلسنا لتناول العشاء، وكان أبي كريما طوال الوقت الذي قضيناه في تناوله.

وكنت أتلفه للعودة على بوجيفال لكي أطلع مرجريت على هذا التبديل السعيد ورحت أنظر إلى الساعة ما بين لحظة وأخرى.

وقال أبي: أنك تنظر إلى الساعة وتتلهف إلى مفارقتي. آه للشباب! ... أنه يضحي بالحب الصادق في سبيل الحب المريب.

- لا تقل هذا يا أبي. أن مرجريت تحبني، وأنا واثق من ذلك.
- لم يجب، ولم يبد عليه أن كان يصدقني أو يكذبني.

وأصر كثيرًا لكي أقضي الليل معه، وإلا أرحل إلا في اليوم التالي. ولكنني كنت قد تركت مرجريت في حالة يرثى لها، وقلت له ذلك واستأذنت في الإسراع إليها وأعدا أن أعود إليه في اليوم التالي.

وكان الجو معتدلاً، وأراد أن يرافقني حتى المحطة، وأحسست بأنني لم أكن سعيدًا في حياتي كذلك اليوم فقد بدا لي المستقبل كما كانت أريد أن أراه منذ وقت طويل.

وأزداد حبي لأبي كما لم أحبه قط.

وعندما هممت بالانصراف أصر مرة أخرى على أن أبقى ولكنني رفضت فسألني. إذن فا،ت تحبها حقًا؟

- حب جنون.
- اذهب إذن.

ومر بيده على جبينه كما لو أراد أن يطرد عنه فكرة ثم فتح فمه كأنما يريد أن يقول لي شيئًا، ولكنه اكتفى بان ضغط على يدي وفارقني فجأة وهو يصيح: على اللقاء غدًا إذن.

(22)

خيل إلى القطار لا يتحرك، وبلغت بوجيفال في الساعة الحادية عشرة، لوم يكن النور ينبعث من أية نافذة بالبيت. ورحت أطرق الباب دون أن يرد على أحد.

كانت هذه أول مرة يقع فيها مثل هذا الأمر، وأخيرًا جاء البستاني، ودخلت.

ولحقت بي نانين ومعها مصباح، ولم تكن مرجريت في غرفتها فسألتها: أين سيدتك.

أجابتني: أنها سافرت إلى باريس.

- إلى باريس.
- نعم يا سيدي.
- بعد رحيلك بساعة واحدة.
- ألم تترك لي رسالة معك؟
- كلا.

وتركتني نانين، وقلت أحدث نفسي: لا ريب أنه انتابتها بعض المخاوف وذهبت إلى باريس لتتأكد أن كنت ذاهبًا لزيارة أبي حقا وأن لم أكن قد اتخذت هذه الحجة لكي أتحر منها يومًا.

وربما اتصلت بها برودنس لداع هام.

ولكنني رأيت برودنس عند وصولي إلى باريس، ولم تذكر لي ما قدا أفهم منه أنها اتصلت بمرجريت.

وتذكرت فجأة هذا السؤال الغريب الذي ألقته دوفرنوا على: ألن تأتي أذن اليوم؟ وتذكرت في نفس الوقت ارتباكها عندما نظرت إليها بعد أن ألقت سؤالها هذا الذي يبدو أنه كان ينم عن وجود موعد بينهما للقاء. وتذكرت إلى جانب كل هذا دموع مرجريت طوال النهار وقد إنسانيها بعض الشيء لقاء أبي الحار وترحيبه بي.

ومنذ تلك اللحظة تجمعت كل أحداث اليوم حول ريبتي الأولى، وأكدتها لي في ذهني، فقد أصرت مرجريت على أن أمضي إلى باريس وتظاهرت بالهدوء عندما عرضت عليها البقاء بجوارها، فهل تراني وقعت في كمين،، وهل كانت مرجريت تخونني؟ وهل اعتمدت علي أن تعود في الوقت المناسب حتى لا ألحظ غيابها ومنعتها الصدفة وحدها من ذلك؟ لماذا لم تقل شيئا لنانين، أو لماذا لم تكتب لي؟

ما معنى دموعها وغيابها؟ ... وما معنى هذا الغموض؟

رحت ألقي على نفسي كل هذه الأسئلة ي ذعر وفزع وأنا واقف في الغرفة الشاغرة أحدق بعيني في ساعة الجدار وهي تشير إلى منتصف الليل وتبدو كأنها تقول لي أن الوقت قد تأخر، وإنه لم يعد هناك أي أمل في أن أرى عشيقتي تعود.

ومع ذلك، هل يعقل أن تقدم عل خيانتي بعد كل التدبيرات التي اتخذناها معا وبعد التضحية التي بذلتها وقبلتها؟ كلا. حاولت أن أمضي عني كل هذه الافتراضات ورحت أقول لنفسي أن الفتاة المسكينة لابد قد عثرت على مشتر لأثاثها ومضت إلى باريس لإنهاء الصفقة ولم تشأ أن تطلعني لأنها تعرف أن مثل هذا البيع، وأن كان ضروريًا إلا أنه سوف يشق علي، وخشيت أن تخدش كرامتي وعزة نفسي إذا ما قالت لي ذلك. ولا ريب أنها تفضل أن تصارحني بكل شيء بدع عودتها وبعد أن تفرغ من كل شيء، ولا ريب أن برودنس كان تنتظرها لهذا السبب ونمت عن نفسها أمامي رغما منها، ولا ريب أن مرجريت لم تفرغ من الصفقة اليوم وقررت أن تقضي الليلة معها، وربما تعود بعد قليل لأنها لا ريب تعلم مدى قلقي ولا تريد أن تتركني أعاني منه الكثير.

ولكني لماذا هذه الدموع إذن؟ لا ريب أن الفتاة المسكينة، رغم دموعها لي لم تستطع الاستجابة لهذا القرار من غير أن تتحسر على الترف الذي كانت تعيش فيه حتى اليوم وأسعدها وغبطتها صديقاتها عليه.

وغفرت لهذا هذا الإحساس الطبيعي، وانتظرتها في فروغ صبر لكي أقول لها وأنا أغطيها بقبلاتي أنين خمنت سبب غيابها.

ومع ذلك فقد مر بي الوقت من غير أن تعود.

وضيق القلق حلقته شيئا فشيئا وأطبق على رأسي وقلبي. ربما وقع لها مكروه، ولعلها جريحة الآن أو مريضة. أو لعلها ماتت، وتوقعت أن يأتيني رسول ويبلغني بأن حادثا مؤلمًا وقع لها، ولعل النهار يطلع وأنا ما أزال أعاني من نفس القلق ونفس المخاوف.

ولم تعد تلح علي، وأنا في وسط مخاوفي هذه، فكرة أنها تخونني في هذه الساعة ... لابد أن شيئا خارجا عن أرادتها قد منعها بعيدًا عني. وكلما فكرت في ذلك كلما ازددت اقتناعا بأنه لا يمكن أن يكون منعها عن ذك إلا مصيبة ما ... ويا لغرور الرجال! أنهم ليفكرون في كل شيء ولا يواجهون الحقيقية أبدًا.

ودقت الساعة تشير إلى الواحدة، وقررت أن أنتظر ساعة فإذا لم تأت حتى الساعة الثانية أمضي إلى باريس للبحث عنها.

وفي انتظار ذلك بحثت عن كتابي لأنني لم أجرؤ على التفكير بعد.

كانت رواية مانون ليسكو مفتوحة فوق المائدة. وخيل لي أن بعض الصفحات مبتلة كما لو أن دموعها سالت فوقها. وبعد أن تصفحتها أطبقتها لأن كلماتها بدت خالية من كل معنى خلال دموعي.

وراحت الساعة تتحرك ببطء، وكانت السماء ملبدة، ومطر الخريف يتساقط فوق الألواح الزجاجية، وبدا الفراش الخالي يتخذ في بعض الأوقات شكل القبر، وأحسست بالخوف.

وفتحت الباب وأصغيت، ولم شيئًا غير صوت الريح بين الأشجار، ولم تمر عربة واحدة بالشارع. ودقت ساعة الكنيسة النصف بعد الواحدة، وبلغ بي الأمر إلى حدي أنني أصبحت أخشى أن يدخل أحد فقد خيل لي أن ما من شيء يمكن أن يأتيني في هذه الساعة وفي هذا الوقت المعتم إلا وفيه شر.

ودقت الساعة الثانية، وانتظرت بعض الوقت، وكان بندول الساعة وحده هو الذي يقطع الصمت بصوته الرتيب المتزن.

وغادرت أخيراً هذه الغرفة التي اكتسى كل ما فيها بتلك السمة الحزينة التي تضيفها وحدة القلب على كل شيء يحيط به.

وفي الغرفة المجاورة وجدت نانين، وكانت قد نامت وبين يديها الصوف الذي تغزله، واستيقظت عند دخولي وسألتني أن كانت سيدتها قد عادت فأجابتها: كلا. إذا عادت فقولي لها أن القلق استبد بي وأنني مضيت إلى باريس.

- في هذه الساعة؟
- نعم.
- ولكن كيف؟ .. لن تجد أي عربة.
- سأمضي سيرًا على الأقدام.
- ولكن المطر يهطل.
- لا يهمني ذلك.

- أن سيدتي ستعود، أو إذا لم تعد فسوف يطلع النهار، ويمكنك أن تمضي عندئذ وترى ما الذي منعها. أنك ستلقي حتفك في الطريق.
- ليس هناك أي خطر يا عزيزتي نانين. إلى الملتقى.

مضيت الفتاة الباسلة فأتتني بمعطفي وألقته فوق كتفي، وعرضت على أن تذهب إلى مدام أرنو وتسألها أن كان من الممكن الحصول على عربة. ولكنني اعترضت على ذلك مقتنعا بأنني سأفقد في هذه العملية التي قد لا يكون لها أية فائدة وقتا أستطيع أن استغله في قطع نصف المسافة.

ثم أنني كنت بحاجة إلى الهواء وإلى تعب طبيعي ينسيني ما أعانيه من انفعال.

وأخذت مفتاح مسكن شارع انتان، وانصرفت بعد أن شيعتني نانين حتى الباب الخارجي.

أخذت أجري في البداية، ولكن الأرض كانت رطبة ومبتلة، فكان تعني مزدوجًا، وبدع نصف ساعة من الجري اضطررت إلى الوقوف وأنا أتصبب عرقًا. واستعدت أنفاسي ثم تابعت طريقي. وكان الظلام حالكا بحيث كنت أخشى في كل لحظة أن اصدم بإحدى أشجار الطريق، وكانت تظهر لي فجأة في الظلام وتبدو كأنها شبح هائل يجري معي.

ورأيت مركبة تنطلق بأقصى سرعتها في طريقها إلى بوجيفال، وراودني الأمل لحظة في أن تكون مرجريت بها فتوقفت وصحت:

- مرجريت .. مرجريت.

ولكن لم يرد على أحد، وتابعت المركبة طريقها ورأيتها تبتعد فواصلت سيري.

وقضيت ساعتين لكي أبلغ باب النجمة.

وأعاد منظر باريس قواي، وهبطت، وأنا أعدو، الممر الطويل الذي طالما سلكته قبل ذلك. ولم يكن به أحد في هذه الليلة، وبدأ لي كأنه شارع في مدينة من الموتى.

وبدأت خيوط الليل تتقهقر أمام خيوط النهار.

وعندما وصلت إلى شارع انتان، كانت المدينة الكبيرة قد بدأت تستيقظ. ودقت ساعة الكنيسة تعلن الخامسة في نفس اللحظة التي دخلت فيها مسكن مرجريت.

وكان البواب يعرفيني، وكنت قد نفحته الكثير من القطع النقدية بحيث أصبح يعلم أن يحق لي الذهاب إلى مسكن الآنسة جونييه في الساعة الخامسة صباحًا. وكان في مقدوري أن أساله أن كانت مرجريت في بيتها، ولكن كان في مقدوره هو الآخر أن يرد علي بالنفي، وآثرت أن أشك دقيقتين أخرتين لأن الشك يحيى الأمل.

وأرهفت السمع عند الباب محاولاً أن أسمع أية حركة. ولكن بدأ لي أن صمت الريف قد انتقل إلى بيت باريس.

وفتحت الباب ودخلت. كانت الستائر محكمة الإسدال، ومضيت إلى غرفة النوم ورفعت الستائر فتسلل الضوء إلى الداخل، ولكن الغرفة كانت خالية.

وفتحت الأبواب، الواحد بعد الآخر، ولكنني لم أجد أحدًا.

وكدت أن أصب بالجنون.

ومضيت إلى غرفة الزينة وفتحت نافذتها وناديت برودنس مرارًا، لكن نافذتها ظلت مغلقة.

ونزلت عندئذ ومضيت إلى البواب وسألته أن كانت الآنسة مرجريت قد أقبلت إلى البيت أثناء النهار فأجابني:

- نعم. أقبلت مع مدام دوفرنوا.
- ألم تترك لك رسالة لي؟

- كلا.
- هل تعرف ماذا فعلنا بعد ذلك؟
- استقلتا مركبة.
- أي نوع من المركبات.
- مركبة خاصة.

ما معنى هذا؟ ... وطرقت الباب المجاور فسألني البواب بعد أن فتح لي: أي تذهب يا سيدي؟

- إلى مسكن مدام دوفرنوا.
- أنها ما زالت في الخارج.
- هل أنت واثق؟
- نعم يا سيدي. وهذه رسالة جيء لها بها أمس ولم أسلمها بها بعد.

وأراني رسالة ألقيت نظرة عابرة، فعرفت خط مرجريت، فأخذتها منه. وكان المظروف عليها هذه الكلمات: إلى مدام دوفرنوا ومنها إلى مسيو دوفال.

قلت للبواب وأنا أريه العنوان: هذه الرسالة لي.

وسألني الرجل: وهل أنت مسيو دوفال؟

- نعم.
- آه، أنني أعرفك الآن، فأنك جئت مرارًا لمدام دوفرنوا.

وإذا خرجت إلى الشارع أسرعت بفض الرسالة، ولو أن صاعقة نزلت عند قدمي في هذه الساعة لما ذعرت مثلما ذعرت وأنا أقرأها.

«وفي الساعة التي تقرأ فيها خطابي هذا يا أرمان أكون قد أصبحت عشيقة رجل آخر، ويكون كل شيء قد انتهى بيننا إذن».

«عد إلى جار أبيك يا صديقي، عد إلى جوار أختك، تلك الفتاة الطاهرة العفيفة التي لا تعرف شيئا عن كل ما نعانيه من تعاسة وشقاء، وسوف تنسى بجوارها سريعا ما ستسببه لك فتاة ضائعة يدعونها مرجريت جوتييه شئت أن تحبها لحظة وتدين لك بأسعد لحظات حياة ترجو ألا تطور بعد ذلك».

وعندما فرغت من قراءة آخر كلمة خيل لي أنني سأجن، ومرت بي لحظة خفت فيها أن أقع على الأرض، ومرت سحابة أمام عيني، وتصاعد الدم إلى صدغي.

وأخيرًا تمالكت نفسي قليلاً وأخذت أردد البصر حولي وقد أدهشني أن أرى حياة الغير مستمرة دون أن تحفل بمصيبتي.

لم أكن من القوة بحيث احتمل وحدي الضربة التي أصابتني بها مرجريت. وتذكرت عندئذ أن أبي ما زال موجودًا في تلك المدينة وأنني أستطيع أن أكون بجواره في عشر دقائق، وأنه مهما يكن من سبب مصابي فسوف يشاركني اياه.

ورحت أعدو كالمجنون، بل كاللص حتى فندق باريس. ووجدت المفتاح في باب الغرفة التي ينزل بها فدخلت.

كان جالسًا يقرأ.

وإزاء الدهشة القليلة التي أبداها وهو يراني أدخل خيل لي أنه كان ينتظرني.

وأرتميت بين ذراعيه دون أن أنطق بكلمة، وأعطيته رسالة مرجريت ثم تهالكت فوق الفراش ورحت أبكي بكاء مرًا.

(23)

عندما أخذت الحياة تجري مجراها لم أستطع أن أصدق أن اليوم الذي يبزغ لن يكون مشابها للأيام التي سبقته، فقد كانت هناك لحظات كنت أتخيل فيها أن حدثا لا أذكره جعلني أقضي الليلة بعيدًا عن بيت مرجريت، وأنني إذا عدت إلى بوجيفال فسوف أجدها نهبة للقلق، كما كانت أنا بالذات، وأنها سوف تسألني ما الذي احتجزني هكذا بعيدًا عنها.

فعندما يدمن المرء عادة كعادة الحب يبدو له أن من المستحيل أن تتحطم هذه العادة من غير أن تحطم معها كل نبضات الحياة.

ولهذا رحت أقرأ رسالة مرجريت وأعيد قراءتها لكي أقنع نفسي بأنني لا أحلم.

وناء جسمي تحت الهزة المعنوية التي أصابته وعجز عن الإتيان باية حركة، فإن القلق والسير أثناء الليل والنبأ الذي تلقيته في الصباح، كل ذلك أرهقني، وانتهز أبي ما أعانيه من ضعف ووهن لكي يأخذ مني وعدا قاطعا بأن أرحل معه.

ووعدته بكل ما أراد، فقد عجزت عن الصمود أمام أية منافسة، وكنت بحاجة إلى عطف حقيقي لكي يساعدني على الحياة بعد كل ما حدث.

وكنت سعيدًا لأن أبي أراد أن يواسيني في مثل هذه المحنة، وكل ما أذكره أنه أركبني في نحو الساعة الخامسة من ذلك اليوم في القطار وأنه أعد حقائبي من غير أن يستشيرني، ووضعها مع حقائبه في القطار الذي أنطلق بنا.

ولم أشعر بشيء من كل ذلك إلا بعد أن اختفت المدينة، وبعد أن ذكرتني وحدة الطريق بفراغ قلبي.

وعندئذ عادت الدموع وانهمرت من عيني.

وأدرك أبى أن أية كلمات، حتى منه هو، لن تواسني فتركني أبي دون أن ينطق بكلمة مكتفيا في بعض الأوقات بالضغط على يدي لكي يذكرني بأن هناك صديقًا بجواري.

ونمت لماما في الليل، ورأيت مرجريت في المنام.

واستيقظت مفزوعًا غير مدرك سبب وجودي في قطار ثم لم تلبث الحقيقة أن عادت إلى ذهني فتركت رأسي تتهاوى فوق صدري.

ولم أجرؤ على محادثة أبي فقد كنت أخشى دائما أن أسمعه يقول:

- أرأيت أنني كنت على حق عندما لم أصدق حب هذه المرأة.

ولكنه لم يستغل ميزته هذه وبلغنا مدينة س ... دون أن ينطق بكلمة تتصل بالأحداث التي أرغمتني على الرحيل.

وعندما عانقت أختي تذكرت الكلمات التي ذكرتها مرجريت عنها في رسالتها ولكنني أدركت على الفور أنه رغم طيبتها وكرمها فإنها لن تكفي كي تنسيني عشيقتي.

وكان موسم الصيد قد بدأ وخطر لأبي أنه يكون فيه تسلية لي وملهاة فنظم بضع رحلات مع جيرانه وأصدقائه، واشتركت فيها بغير حماس وبغير نفور، بذلك الإحساس الذي أصبح ميزة لكل تصرفاتي منذ رحيلي، ولكنني كنت أجلس في الموضع المحدد لي وأضع بندقيتي بجواري واستغرق في التفكير.

كنت أرى السحب تمر وأترك ذهني يهيم في السهول الممتدة وأسمع من وقت لآخر صيادا يناديني ويلفت نظري إلى أن أرنبا يعدو على بعد خطوات مني.

ولم يفت كل ذلك عن أبي، ولم ينخدع بهدوئي الخارجي.وقد أدرك تماما أن قلبي على الرغم مما يعانيه سيكون له رد فعل عنيف وشديد الخطورة ذات يوم، وبذل جهد للترفيه عني وهو

يتحاشى أن يواسيني.

وبطبيعة الحال، لم تكن على علم بكل ما سبق من أحداث فلم تفهم سبب حزني مع أنني كنت شديد المرح فيما سبق، وأصبحت فجا' مستغرقا في الأفكار والأحزان.

وكنت أفاجئ أبي أحيانا في وسط أحزاني وهو ينظر إلى في قلق فكنت أبسط له يد وأضغط على يده كما لو أطلب منه الصفح عما أسببه له من ألم رغما غني.

وانقضى شهر على هذه الحال، وكان هذا أقصى ما استطعت احتماله، فقد كانت ذكرى مرجريت تلاحقني باستمرار ... كان حبي عظيما وقد أحببت هذه المرأة كثيرا بحيث لم أكن أستطيع أن أنساها بسهولة. كان لابد لي أن أراها مهما يكن إحساسي نحوها، وأن أراها على الفور.

وتغلغلت هذه الرغبة في ذهني واستقرت بكل عنف الإرادة التي تظهر أخيرًا في جسد جامد منذ وقت طويل.

ولم تكن مرجريت لازمة لي لا في المستقبل، ولا بعد شهر، وبعد بعد ثمانية أيام، وإنما عداه نفس اليوم الذي أردت فيه ذلك، وقلت لأبي أنني سأفارقه لأعمال تدعوني في باريس، وأنني سأعود سريعًا.

ولا ريب أنه ضمن السبب الذي يحملني على الرحيل لأنه أصر على أن أبقى، ولكنه اذ رأى أنه أصر على أبقائي بجواره في حالتي فإن عواقب هذا الإصرار قد تكون وخيمة على ... عانقني وتوسل إلي وفي عينه الدموع أن أعجل بالعودة.

ولم يغمض لي جفن قبل أن أصل إلى باريس.

ولم أكن أدري ماذا أفعل حين أصل، ولكن كان أول شاغل لي هو أن أرى مرجريت.

ومضيت إلى مسكني واستبدلت ثيابي، وإذا رأيت الجو معتدلاً ذهبت إلى الشانزليزيه.

وبعد نصف ساعة رأيت مركبة مرجريت تأتي من ميدان الكونكورد، وكانت قد استعادت جواديها ثانيًا لأن المركبة كانت كما هي، ولكن مرجريت لم تكن بداخلها.

وأدركت البصر حولي، وما كدت أفعل حتى رأيت مرجريت آتية من الغابة وبرفقتها امرأة لم يسبق لي أن رأيتها قبل ذلك.

وإذ مرت بي أمتقع وجهها وتقلصت شفتاها في ابتسامة عصبية. أما أنا فقد ركض قلبي بني ضلوعي ولكنني استطعت أن الظاهر بالجمود وحييت عشيقتي السابقة ببرود، فمضت إلى مركتبتها سرعة وركبتها هي وصديقتها.

وكنت أعرف مرجريت، ولا ريب أن هذه المقابلة المفاجئة قد أهاجتها، ولا شك أنها كانت قد علمت برحيلي واطمأنت لنتيجة قطيعتها لي ولكن لعلها أدركت، وهي تراني أمامها فجأة، شاحب اللون كما كنت، أن لعودتي هدفا وراحت تتساءل عما سوف يقع.

لو أنني وجدتها تعسة، ولو أنني استطعت أن أهب لنجدتها فربما غفرت لها، ولما فكرت بالطبع في إلحاق الأذى بها. ولكنني وجدتها سعيدة، في الظاهر على الأقل، وإذ رأيت أن رجلاً آخر قد استطاع أن يرد لها البذخ الذي لم أستطع أن أقدمه لها، وأن قطيعتها لي بناء على ذلك اتسمت بأحقر المنافع فقد شعرت بأنني أهنت في كرامتي كما أهنت في حبي، وكان يجب أن تدفع حتما ما سببته لي من ألم.

لم أكن أستطيع أن أقف باردًا أمام ما تفعله هذه المرأة، وعلى هذا فإن ما كان ينبغي أن يصيبها بأكبر الأذى هو عدم الاكتراث، فكان يجب إذن أن أتظاهر بعدم الاكتراث، ليس في عينيها فقط وإنما في عيني الآخرين.

ومضيت إلى بيت برودنس وأنا أتظاهر بالابتسام، وذهبت الخادمة لتعلن سيدتها بقدومي، بعد أن أدخلتني غرفة الصالون.

وجاءت مدام دوفرنوا أخيرًا واصطحبتني إلى مخدعها، وفي نفس اللحظة التي جلست فيها سمعت باب غرفة الصالون يفتح وخشب الأرضية يصر تحت وقعد أقدام خفيفة ثم بابا يغلق في عنف.

وسألت برودنس: هل سبت لك إزعاجًا.

أجابت: أبدًا. كانت مرجريت هنا، وعندما سمعت الخادمة تذكر أسمك بارد بالخروج.

- **إذن فأنا أخفيها الآن؟**
- **كلا. ولكنها تخشى أن تزعجك رؤيتها.**

قلت وأنا أبذل جهدًا لكي أتنفس لأن الانفعال كان يطبق علي:

- **لماذا؟ ... أن المسكينة قد هجرتني لكي تستعدي مركبتها وأثاثها ومجوهراتها. وقد أحسنت صنعا وأنا لست حاقدًا عليها.**

واستطردت أقول بلا مبالاة. وقد قابلتها اليوم.

قالت برودنس: أين؟

وكانت تنظر إلى ويبدو أنها تتساءل إذا كان هذا الرجل الواقف أمامها هو حقا ذلك الذي عرفته عاشقًا. وأجبت:

- **في الشانزليزيه. وكانت برفقة امرأة أخرى جميلة، فمن هي:**
- **صفها لي.**
- **شقراء ... هيفاء .. تجمع شعرها في جدائل، ولها عينان زراقاوان، ثم أنها أنيقة جدًا.**
- **آه ... أنها أوليمب ... وهي فتاة جميلة جدًا حقًا.**
- **ومع من تعيش؟**
- **لا احد بالذات .. وإنما مع كل الرجال.**
- **وأين تقيم؟**
- **شارع ترونشيه رقم ... آه، ولكن هل تريد أن تغازلها؟**
- **لا يمكن أن يعلم المرء ما قد يقع.**
- **ومرجريت؟**
- **أكذب عليك لو أقول لك أنني لم أعد أفكر فيها على الإطلاق، ولكنني من هؤلاء الرجال الذين تؤثر فيهم القطعية أبلغ التأثير. ومرجريت هجرتني دون أية مبالاة بحيث وجدت أن من الغباء أن أحبها كما أحببت، لأنني أحببت هذه ا لفتاة حبا صادقًا حقًا.**

ولعلك تدرك بأية لهجة حاولت أن أنطلق بهذه الكلمات ... وكان العرق يتفصد من جبيني.

- **وقد أحبتك هي الأخرى حبا صادقًا، وما زالت تحبك، والدليل على ذلك أنها بعد أن قابلتك اليوم جاءتني على الفور لتنبئني بهذه المقابلة. وعندما جاءتني كانت شديدة الاضطراب.**
- **آه ... وماذا قالت لك؟**
- **قالت «لاشك أن سيأتي لكي يراك» .. ورجتني أن أسألك الصفح عنها.**
- **أنني صفحت عنها ويمكنك أن تقولي لها ذلك. أنها فتاة طيبة ولكنها عاهرة، وما فعلته معنى كان يجب على أتوقعه منها وأنا شاكر لها قرارها هذا. وإذ يخطر لي الآن أنني كنت**

أريد العيش معها بصفة دائمة فإنني لا أدري ماذا كان يمكن أن يقع لنا، فقد كان هذا هو الجنون بعينه.

- سوف يسرها أن تعلم أنك سلمت برأيها في الضرورة إلى هجرك، فقد كان يجب أن تفعل ذلك يا عزيزي، فإن رجل الأعمال الوغد الذي عرضت عليه أن تبيعه أثاثها ذهب إلى دائنيها وسألهم عن مقدار ديونهم فاستولى الخوف عليهم وقرروا البيع بعد يومين.

- هل سددت هذه الديون الآن.

- تقريبًا.

- ومن الذي دفعها.

- الكونت دي ف ... آه، يا عزيزي! أن الله قد خلق أناسا لهذا العمل بالذات .. أنه دفع عشرين ألف فرنك، ولكنه وصل إلى مبتغاه، ومرجريت لا تحبه، ولكن هذا لا يمنعه من أن يكون كريما معها، وهأنت قد رأيت، فقد رد إليها جواديها وفك رهن مجوهراتها ثم أنه يعطيها من النقود نفس المبلغ الذي كان الدوق يعطيها آياه، وإذا كان تستهدف أن تعيش في هدوء فإن ذلك الرجل سوف يبقى معها إلى أجل طويل.

- وماذا تفعل الآن؟ ... هل تقيم في باريس بصفة دائمة.

- لم تشأ العودة أبدأ إلى بوجيفال بعد رحيلك. وأنا التي ذهبت وحزمت أمتعتها، بل أنني حزمت أمتعتك في نفس الوقت، وقد جئت بها هنا كلها فيما عدا محفظة صغيرة عليها الحروف الأولى من أسمك أرادت مرجريت أن تأخذها، وهي معها الآن. وإذا كنت تريد فإنني أستطيع أن استردها منها.

أحسست بالدموع تتصاعد إلى عيني لمجرد ذكر القرية التي كنت فيها سعيدًا جدًا، ولعلي بأن مرجريت أرادت الاحتفاظ بشيء مني يذكرها بي، ولم يسعني ألا أن أقول: فلتحتفظ بها.

ولو أنها دخلت في هذه اللحظة لأمحت فكرتي عن الانتقام ولجثوث عند قدميها.

وعادت برودنس تقول: ثم أنني لم أراها أبدًا كما أراها الآن، فهي تكاد لا تنام وتختلف إلى الحفلات الراقصة وإلى حفلات العشاء، بل أنها تشرب الخمر ألآن حتى تسكر، وقد لزمت أخيرًا الفراش ثمانية أيام عقب إحدى هذه السهرات. وعندما سمح لها الطبيب بمغادرته بدأت من جديد، مجازفة بحياتها. هل تذهب لزيارتها.

- ما الفائدة؟ أنني أتيت لكي أراك أنت لأنك كنت دائما ظريفة معي، ولأنني عرفتك قبل أن أعرف مرجريت. وإليك يرجع الفضل في أنني أصبحت عشيقها كما يرجع الفضل في أنني لم أعد كذلك؟

- آه. أنني فعلت كل ما أستطيع لكل تهجرك، وأظن أنك لن تحقد على لهذا السبب فيما بعد؟

- أحسست بالنفور من هذه المرأة وأنا أراها تأخذ كلما أقول مأخذ الجد فنهضت وأنا أقولك بل أنني أشكرك كل الشكر.

- وهل تنصرف؟

- نعم.

- ذلك أنني عرفت ما فيه الكفاية.

- ومتى نراك؟

- قريبًا. إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

وشيعتني برودنس حتى الباب، وعدت إلى بتي وفي عيني دموع الغضب، وف قلبي رغبة شديدة في الانتقام.

وهكذا كانت مرجريت عاهرة كغيرها من العاهرات، وحبها العميق لي لم يستطيع مقاومة رغبتها في استعارة حياتها الماضية وحاجتها إلى أن تكون لها مركبة وأن تختلف إلى حفلات اللهو والمجون.

هذا ما كنت أقوله لنفسي أثناء أزمات الأرق التي كانت تنتابني في حين لو أنني كنت قد فكرت في برود كذلك البرود الذي كنت أتظاهر به لرأيت في حياة مرجريت الجديدة الصاخبة أملها في أن تسكت فكرة ملحة أشد إلحاحًا.

ولسوء الحظ أنبي حبي الخبيث كان مسيطرًا على ولم أكن أبحث إلا عن وسيلة لتعذيب هذه الفتاة المسكينة.

أوه، أن الرجل ليتضاءل حقا عندما يخدش في حب كبير.

وهذه الأوليمب التي رأيتها أن لم تكن صديقة لمرجريت فهي على الأقل كانت تكثر من مخالطتها ومعاشرتها منذ أن عادت إلى باريس، وكانت تنوي أن تقيم حفلة راقصة فى بيتها وإذا افترضت أن مرجريت لابد أن تحضر هذه الحفلة فقد جاهدت حتى حصلت على بطاقة دعوة.

وعندما وصلت إلى بيت أوليمب عصفت بي انفعالاتي المؤلمة كانت الحفلة في أشدها، وقد أخذ القوم يرقصون ويصيحون، ورأيت مرجريت ترقص بين الراقصين، مع الكونت دي ن ...، وكان هذه الأخير يبدو فخورًا بوجوده معها وكأنه يريد أن يقول للجميع: هذه المرأة لي.

ومضيت إلى الموقد واعتمدت عليه، أمام مرجريت بالذات، ورحت أنظر إليها وهي ترقص وما أن وقع بصرها على حتى اضطربت وتظاهر بأنني أراها لتوي وحييتها في شرود بيد وعيني.

وعندما خطر لي أنها لن تنصرف بعد هذه الحفلة معي أنا وإنما مع ذلك الثري الغبي، وعندما تصورت في ذهني ما سوف يقع حتما عندما يصلان إلى بيتها صعد الدم في وجهي واستبدت بي الرغبة إلى تعكير حبهما.

وانتهزت نهاية إحدى الرقصات ومضيت إلى صاحبة البيت وكانت تعرض لأنظار المدعوين كتفيها الجميلين وعنقها العاجي الساحر.

كانت تلك الفتاة جميلة، بل كانت أجمل من مرجريت من ناحية الشكل، وقد أدركت ذلك تماما من بعض النظرات التي كانت مرجريت ترميها بها وأنا أحادثها. ويمكن للرجل الذي يغدو عشيقا لهذه المرأة أن يفخر بها كما يخفر الكونت دي ن ... بمرجريت ثم إنها كانت من الجمال بحيث تلهم حبا معادلاً للحب الذي ألهمتني به مرجريت.

ولم يكن لها عشيق في ذلك الوقت، ولم يكن من العسر على أن أصبح عشيقًا لها. كان يكفي أن أبعثر الذهب ذات اليمين وذات الشمال.

واستقرت نيتي على الفور، سوف تكون هذه المرأة عشيقتي.

وبدأت خطتي على الفور بان دعوتها إلى الرقص.

وبعد نصف ساعة لبست. مرجريت معطفها وهي شاحبة شحوب الأموات ثم غادرت البيت.

(24)

هدأت نفسي بعضي الشيء وأنا أراها تغادر المكان وقد امتقع لونها، وأدركت سلطاني على هذه المرأة واستغللته بكل جبن ونذالة.

وحين يخطر لي الآن أنها ماتت أسأل نفسي أن كان الله سيغفر لي أبدا ما سببته لها من ألم.

وبعد عشاء صاخب بدأ المدعوون يلعبون، وقد جلست أنا بجوار أوليمب ورحت أقامر في جرأة بحيث أثرت اهتمامها. ولم تمض لحظات حتى كننت قد ربحت ثلاثة أو أربعة فرنك وضعتها أمامي على المائدة وراحت هي تنظر إليها بعينين ملتهبتين، وكنت أنا الوحيد من بني اللاعبين الذي لا يحصر كل اهتمامه في اللعب وإنما كنت مهتما بها هي؟ وظللت أكسب طوال الليل وكنت أعطيها مبالغ من النقود لكل تواصل اللعب لأنها كانت قد خسرت كل ما تملك.

وغادر القوم البيت في الساعة الخامسة صباحًا. وبلغت أرباحي ستة آلاف فرنك.

وكان جميع اللاعبين قد هبطوا وبقيت أنا وحدي في المؤخرة دون أن يهتم بي أحد لأنني لم أكن صديقًا لأي منهم.

وشيعتهم أوليمب حتى السلم بنفسها وهي تنير لهم الطريق، وهممت بالنزول كالآخرين ولكنني لم البث أن تحولت إليها وقلت لها: يجب أن أتحدث إليك.

قالت لي: غدًا.

- بل الآن.
- ماذا تريد أن تقول لي؟
- ستعرفين ذلك .. هل خسرت؟
- نعم.
- كل ما تملكين؟
- واستطردت أقول وأنا أراها مترددة: صارحيني.
- نعم.
- أني ربحت ستة آلاف فرنك، وهي لك إذا أردت أن تبقيني هنا.
- وألقيت الذهاب على المائدة فنظرت على وقالت: ولم ذلك؟
- لأنني أحبك طبعًا.
- كلا. وإنما لأنك تعشق مرجريت، وتريد أن تثار منها بأن تغدو عشيقي. أن امرأة مثلي لا يمكن خداعها بسهولة يا صديقي العزيز، ولكنني لسوء الحظ ما زلت شابة وجميلة جدًا لكي أقبل الاضطلاع بالدور الذي تعرضه على.
- معنى هذا أنك ترفضين؟
- نعم.
- أتفضلين أن تحبيني قليلاً؟ هذا ما لا أقبله. فكري قليلاً يا عزيزتي أوليمب. لو أنني أرسلت شخصًا ما يقدم لك هذه الآلاف الستة من قبلي بنفس هذه الشروط لقبلت. ولكنني فضلت أن أعرض عليك الأمر مباشرة فاقبلي من غير أن تبحثي عن الأسباب التي تدفعني إلى هذا التصرف. قولي لنفسك أنك جميلة وأنه ليس من المستغرب أن أحبك.

كانت مرجريت غانية كأوليمب، ومع ذلك فما كنت لأجرؤ أبدأ أن أعرض عليها في أول مرة رأيتها ما عرضته الآن على أوليمب. ذلك أنن حدست في مرجريت غرائز تفتقر إليها هذه المرأة وأنني في نفس اللحظة التي عرضت عليها هذه الصفقة. كنت أشعر نحوها باشمئزاز على

الرغم من جمالها.

وانتهى بها الآمر إلى أن قبلت طبعا، وخرجت من عندها ظهرا وأنا عشيقها، ولكني تركت فراشيها دون أن أحمل معي ذكري ملاطفاتها، وكلمات الحب التي اعتقدت أنها مضطرة إلى أن تسخو بها نظير الستة آلاف فرنك التي تركتها لها.

ومع ذلك فقد أفلس أناس كثيرون بسبب هذه المرأة.

ومنذ ذلك اليوم أنزلت بمرجريت شتى أنواع الاضطهاد فكففت عن زيارة أوليب لأسباب لاشك أنك تعرفها. وأهديت عشيقتي الجديدة مركبة ومجوهرات ورحت ألعب وقمت بكل الحماقات التي يقدم عليها رجل يعشق امرأة كأوليمب، وأنتشر نبأ غرامي الجديد على الفور.

ومضت أوليمب ذات يوم إلى مكان لا أدري ما هو، والتقت فيه بمرجريت، ولم ترحم هذه الأخيرة الفتاة التي تلحق بها كل هذه الإهانات فكانت لها الصاع صاعين بحيث اضطرت أوليمب إلى الانسحاب وهي ي اشد حالات الغضب في حين أغمي على مرجريت.

وردت لي أوليمب ما حدث عند عودتها وقالت لي أن مرجريت ما أن رأتها بمفردها حتى أرادت أن تثار منها لكونها عشيقتي، وأنني يجب أن أكتب لها لكي تحترم المرأة التي أحبها سواء كنت موجودًا معها أو غير موجود.

وغني عن البيان أن أقول لك أنني فعلت كل ما طلبته مني وضمنت رسالتي لمرجريت كل ما خطر لي من كلمات مريرة مخزية وقاسية وأرسلتها إليها في نفس اليوم.

وكانت الصدمة هذه المرة أكثر من أن تحتملها المسكينة، وتوقعت أن يأتيني منها رد، ولهذا أستقر مني العزم على البقاء في البيت طوال النهار.

وقرع الجرس في نحو الساعة الثانية، وكانت برودنس هي القادمة.

وحاولت أن أتظاهر بعدم الاكتراث وأنا أسألتها عن سبب قدومها.

ولكن مدام دوفرنوا لم تكن مرحة في ذلك اليوم. وحدثتني بلهجة حادة بأنني منذ عودتي أي منذ ثلاثة أسابيع وأنا لم أدع فرصة واحدة تفوتني لا يلام مرجريت وأن المسكينة قد أصيبت بالمرض وأنها لزمت الفرش بسبب ما حدث بالأمس وبسبب رسالتي التي بعثت بها إليها صباح اليوم.

صفوة القول أن مرجريت، دون أن تلومني، أرسلت إلى لكي تطلب مني أن أتركها وحالها، لأن قوتها لم تعد تسمح لها باحتمال المزيد مما أفعله بها.

قلت لبرودنس: أن تهجرني مرجريت وتطردني من بيتها فهذا حق لها ولكن أن تهين امرأة أحبها بحجة أن هذه المرأة هي عشيقتي فهذا ما لن أسمح به.

قالت برودنس: أي صديقي العزيز ... أنك تخضع لتأثير فتاة لا قلب لها ولا عقل. وصحيح أنك تعشقها ولكن ليس هذا بسبب لكي تعذب المرأة لا تستطيع الدفاع عن نفسها.

- فلترسل لي الآنسة جوتييه الكونت دي ن ... وبهذا تكون متعادلين.

- أنت تعلم جيدًا أنها لم تفعل ذلك، ولهذا دعها وشأنها يا عزيزي أرمان. لو أنك رأيتها لخلجت مما تفعله بها. أنها شاحبة وتسعل ... ولن تعمر طويلاً.

- وأردفت برودنس تقول وهي تبسط لي يدها: تعالى لزيارتها ... أن زيارتك سوف تسعدها كثيرًا.

- ليست بي رغبة في أن ألتقي بالكونت دي ن ...

- أن الكونت دي ن ... لا يذهب إلى بيتها أبدًا .. أنها لا تطيقه.

- إذا كانت مرجريت تريد أن تراني فهي تعرفي مكاني، فلتأت أما أنا فلن أضع قدمي في

بيت شارع انتان.
- وهل تحسن استقبالها؟
- طبعًا.
- أذن فأنا واثقة أنها سوف تأتي.
- فلتأت أذن.
- أتخرج اليوم؟
- سأبقى بالبيت طوال الليل.
- سأقول لها ذلك.

وخرجت برودنس.

ثم أتجشم حتى الكتابة إلى أوليمب لكي أقول لها أنني لن ألتقي بها الليلة، فلم أكن أحفل بهذه الفتاة ولم أكن أقضي معها أكثر من ليلة في الأسبوع، وكنت أعرف أنها ستجد السلوى مع أحد الممثلين.

وخرجت لتناول العشاء ثم عدت في أسرع وقت، وأشعلت النار في كل مكان، ثم أعطيت أجازة لخادمي جوزيف.

لا أستطيع أن أصف ذلك مختلف المشاعر التي أهاجتني أثناء الساعة التي قضيتها في الانتظار، ولكن عندما سمعت الجرس يدق في نحو الساعة التاسعة تحولت مشاعري هذه إلى انفعال شديد بحيث اضطرت أن اعتمد على الجدار وأنا أفتح الباب لكي لا أقع.

ولحسن الحظ أن الطرقة كانت شبه مظلمة بحيث لم تر مرجريت التغيير الذي طرأ على عندما دخلت.

كانت ترتدي ثوبًا أسود وتضع على وجهها نقابًا أسود من الدانتللا. ومضت إلى الغرفة الصالون ورفعت نقابها، وكانت شاحبة كالموتى، وقالت: هأنذا يا أرمان! أنك أردت أن تراني وهأنذا.

ودفنت رأسها بين يديها وأجهشت بالبكاء.

واقتربت منها وقلت في انفعال: ماذا بك؟

شدت على يدي دون أن ترد على لأن الدموع غطت على صوتها ولكن بعد بضع لحظات كان تقد استردت هدوءها، فقالت:

- أنك آذيتني كل الأذى يا أرمان، وأن لم أفعل بك شيئًا.

سألتها في ابتسامة مريرة: لم تفعلي بي شيئًا.

- لا شيء إلا ما أجبرتني عليه الظروف.

عندما جاءتني أول مرة جلست على نفس المقعد الذي جلست عليه الآن، ولكنها كانت قد غدت خلال هذه المدة عشيقة لرجل آخر، وقبلات أخرى انطبعت على شفتيها التي اشتهتها شفتاي اليوم على الرغم مني، ومع ذلك فقد أحسست بأنني ما زلت أحب هذه المرأة كماه كانت أحبها من قبل، وربما أكثر.

ومع ذلك، فقد كان من العسير على أن أبدأ الحديث في الموضوع الذي جاء بها. وأدركت مرجريت ذلك بدون شك لأنها قالت لي:

- جئت أزعجك يا أرمان لأنني أريد أن أطلب منك شيئين. أن تغف لي ما قلت لأوليمب بالأمس، وأن تعفيني مما قد تريد أن تلحقه بي بعد. أنك آذيتني منذ عودتك. سواء عن قصد أو عن غير قصد، بحيث أنني أصبحت عاجزة عن احتمال ربع الآلام التي احتملتها

حتى الآن، فأرجوك أن ترحمني. ولاشك أن تعلم أن كل رجل شهم لا يفكر في أن يثأر من امرأة مريضة حزينة مثلي خدي يدي في يدك. أني محمومة وقد غادرت الفراش لكي أتي وأطلب، لا صداقتك، وإنما عدم اكتراثك.

أخذت يدها ... وألحق أنها كانت ملتهبة، وكانت المرأة المسكينة ترتعش تحت معطفها الفرو.

حركت مقعدها وقربته من النار وقلت: وهل تحسين أنني لم أتألم في الليلة التي انتظرت عودتك فيها إلى بوجيفال، وجئت إلى باريس لكي أبحث عنك فوجدت تلك الرسالة التي أوشكت أن تصيبني بالجنون:.

«كيف أمكنك أن تخونيني يا مرجريت وأنا الذي أحببتك كل الحب؟

- دعنا من الحديث عن هذا يا أرمان، فأنا لم آت لكي أتحدث عنه. أنني أردت أن أراك كصديق لا كعدو، وهذا كل شيء. وقد أردت أن أصافحك مرة أخرى. أن لك عشيقة شابة تحبها كما سمعت فكن سعيدًا معها وأنسني.

- وأنت؟ ... لاشك أنك سعيدة؟

- وهل يبدو من وجهي أنني امرأة سعيدة يا أرمان؟ لا تسخر من حزني فان تعرف خيرا من أي أحد آخر سببه ومداه.

- لم يكن ألأمر يتوقف إلا عليك أنت لكي لا تكون تعيسة، إذا كنت تعيسة حقا كما تقولين.

- كلا يا صديقي. كانت الظروف أقوى من إرادتي، أنني أذعنت لا لغرائزي كعاهرة كما تعتقد، وإنما لضرورة لها شأنها ولأسباب ستعرفها ذات يوم، وستحملك على أن تغفر لي عندئذ.

- ولمذا لا تذكرين لي هذه الأسباب الآن؟

- لأن من المستحيل إعادة التقارب بيننا، وهذه الأسباب قد تبعد عنك أناسا لا يجب أن تبتعد عنهم.

- ومن هم هؤلاء الناس؟

- لا أستطيع أن أذكر لك ذلك.

- أذن فأنت تكذبين.

نهضت مرجريت ومضت نحو الباب ... لم يكن في مقدوري أن أشد هذا الألم الصامت ا لبليغ دون أن أتأثر وأنا أقارن بين هذه المرأة الشاحبة الباكية وبني تلك الفتاة المجنونة التي سخرت مني في الأوبرا كوليك.

قلت وأنا أقف بالباب: لن تخرجي.

- لماذا؟

- لأنني رغم ما فعلت بي ما زالت أحبك، وأريد أن أبقيك معي.

- لكي تطردني غدًا، أليس كذلك؟ كلا. هذا مستحيل. أن مصيرينا قد اختلفا فلا تحاول أن تجمعهما من جديد فربما تحتقرني من حين أنه لا يمكنك الآن إلا أن تكرهني.

صحت وأنا اشعر بحبي وبكل رغباتي تستيقظ عند ملامسة هذه المرأة: كلا. سأنسى كل شيء، وسنكون سعيدين كما كنا نريد.

هزت مرجريت رأسها الدليل الشك وقالت: الست جاريتك؟... أو لست عبدتك؟ ... أفعل بي ما تريد .. خذني فأنا لك.

وطلع النهار علينا دون أن يغمض لنا جفن.

وعندما انصرفت أفزعتني الوحدة التي تركتني فيها فقررت أن أذهب إليها.

وفي الساعة الخامسة مضيت إلى شارع انتان دون أن أدري إذا أريد. وفتحت لي نانين وقالت في ارتباك: لا يمكن لسيدتي أن تستقبلك الآن.

- لماذا؟

- لأن الكونت دي ن ... هنا، وقد أمرني إلا أدع أحدا يدخل.

تمتمت: هذا صحيح. أنني نسيت.

وعدت إلى بيتي كما لو كنت مخمورًا. ولكن هل تدري ماذا فعلت أثناء لحظة هذيان الغيرة التي كانت تكفي للعمل المخجل الذي سأقدم عليه؟ هل تعرف ماذا فعلت؟ قلت لنفسي أن هذه المرأة تسخر مني، وتصورتها في خلوتها مع الكونت تعيد على مسامعه نفس الكلمات التي قالتها لي بالأمس فأخذت ورقة مالية من فئة الخمسمائة فرنك وأرسلتها إليها ومعها هذه الكلمات.

«أنك انصرفت على عجل هذا الصباح بحيث لم أتمكن من أن انقدك أجرك. خذي هذا ثمن الليلة التي قضيتها معي».

ثم خرجت بعد ذلك لكي أهرب من توبيخ ضميري إزاء هذه العمل.

ومضيت إلى أوليمب ووجدتها تجرب ثيابا جديداً. وعندما خلونا ببعضنا راحت تغني لي أغنية خليعة لكي ترفه عني.

كانت هذه المرأة من نوع العاهرة التي لا يخجلها أي شيء .. .من يغر قلب ومن غير عقل، بالنسبة لي على الأقل، فربما بني أحد الأشخاص معها نفس الحلم الذي بنيته مع مرجريت.

وطلبت مني نقودًا، فأعطيتها ما تريد ثم عدت إلى بيتي.

ولم أجد ردًا من مرجريت.

وغني عن البيان أن أصف لك ما عنيت من اضطراب طوال النهار.

وفي الساعة السادسة جاءني رسول أعاد إلى خطابي لمرجريت والورقة المالية ذات الخمسمائة فرنك، ولا شيء آخر.

وسألت الرسول: من الذي أعطاك هذا؟

- سيدة ركبت قطار بولونيا هي وخادمتها وأوصتني ألا أتيك إلا بعد أن يتحرك القطار.

- وأسرعت إلى مرجريت. وقال لي البواب: رحلت السيدة إلى إنجلترا في الساعة السادسة.

- ولم يعد هناك ما يحتجزني في باريس، لا حقد ولا حب، وكانت كل هذه الصدمات قد أرهقتني. وكان أحد أصدقائي يتأهب للسفر إلى الشرق، فمضيت إلى أبي وأبديت له رغبتي في مرافقة هذا الصديق، فأعطاني بعض النقود وزودني ببعض التوصيات، وبعد ثمانية أو عشرة أيام كنت أغادر ميناء مرسيليا.

- وعلمت، وأن في الإسكندرية، من ملحق بالسفارة سبق أن رأيته مرارًا في مسكن مرجريت بأن الفتاة المسكينة مريضة.

وكتبت لها تلك الرسالة عندئذ.

ورحلت عقب ذلك، وأنت تعرف الباقي.

والآن، لم يبق إ أن تقرأ هذه الوريقات التي أعطيتني جوليا دوبرا أياها، فهي التكملة الحتمية لكل ما رويت لك.

(25)

تعب أرمان من هذه القصة الطويلة التي كانت تتخللها دموعه أحيانًا، وألقي يديه على جبينه وأطبق عينيه، أما لكي يفكر وأنا لكي يحاول أن ينام بعد أن أعطاني الأوراق التي كتبتها مرجريت بخط يدها.

وبعض بضع لحظات تسارعت أنفساه قليلاً فأدركت أنه ينام، ذلك النوم الخفيف الذي توقظه أقل حركة.

وإليكم فيما يلي ما قرأت، وأنا أنقله إليكم دون إضافة أو حذف كلمة واحدة.

«اليوم هو الخامس عشر من شهر ديسمبر، وأنا مريضة منذ ثلاثة أو أربعة أيام، وقد لزمت الفراش اليوم، والجو مكفهر، وأنا حزينة، ولا أحد بجواري وأفكر فيك يا أرمان. وأنت؟ ... أين أنت، في هذه الساعة التي أكتب فيها هذه السطور؟ قيل لي أنك بعيد عن باريس، وبعيد جدًا، وربما تكون قد نسيت مرجريت، ولكن كن سعيدًا فأنني أدين لك باللحظات الوحيدة في حياتي التي أحسست فيها بالسعادة.

«لم أستطع مقاومة الرغبة في أن أقدم لك تفسيرًا لتصرفي، وقد كتبت لك رسالة تكتبها فتاة مثلي يمكن اعتبارها أكذوبة ما لم يطهرها الموت بسلطاته، وبدلا من أن تكون رسالة تغدو اعترافًا.

«أنا اليوم مريضة، وقد أموت بسبب هذا المرض لأنني استشعرت دائما أنني سأموت وأنا في شرخ الشباب. ماتت أمي بداء الصدر، والطريقة التي عشت بها حتى الآن من شأنها أن تتفاقم معها هذه العلة، وهي الميراث الوحيد الذي تركته لي أمي. ولكنني لا أريد أن أموت دون أن تعرف حقيقة أمري، هذا إذا كنت بعد عودتك، لا تزال تهتم بالفتاة المسكينة التي أحببتها قبل رحيلك.

«وإليك ما تتضمنه هذا لرسالة التي يسعدني أن أعيد كتابتها لكي تمنحني دليلاً جديدًا لتبرير ما حدث مني.

«أنت تذكر يا أرمان أن مجيء أبيك قد فأجأنا في بوجيفال، وتذكر الفزع غير الإرادي الذي سببه لي قدومه، وما حدث بينك وبينه ورويته أنت لي في المساء.

«في اليوم التالي، وبينما كنت أنت في باريس، تنتظر أباك الذي لم يعد جاءني رسول وأعطاني رسالة من مسيو دوفال.

«في هذه الرسالة، المرفقة بخاطبي هذا، طلب مني أبوك في كلمات حارة أن أقصيك في يوم اليوم التالي بأية حجة لكي استقبله هو لأنه يريد أن يحدثني وأوصاني على الخصوص إلا أذكر لك أي شيء عن ذلك.

«وأنت تذكر كيف الححت عليك لكي ترحل ثانية إلى باريس، في اليوم التالي

«جاء أبوك بعد رحيلك بساعة، وأعفيك من وصف المشاعر التي سبها لي وجهه الصارم، فقد كان أبوك متعصبًا للآراء القديمة التي تقول أن كل غانية أنما هي مخلوقة لا قلب ولا عقل لها، وآلة لا هم لها إلى الحصول على الذهب وعلى استعداد دائمًا، كالآلات الحديدية، لكي تستحق اليد التي تعطيها شيئا ولكي تمزق دون رحمة ودون روية اليد التي تجعلها تعيش وتعمل.

«وكان أبوك قد كتبت لي رسالة لائقة جدًا لكي أرضي أن استقبله، ولكنه لم يتصرف تمامًا طبقًا لما كتب. كان متعاليًا ووقحا بل ومتوعدًا في كلماته الأولى بحيث اضطررت أن أقول له أنه في بتي وأنه ليس هناك ما يدفعني إلى أنت أقدم له حسابا عن حياتي إلا حبي الصادق الذي أكنه

لأبنه.

«وهذا مسيو دوفال قليلاً عندئذ، ولكنه قال لي أنه لم يعد يطبق أن يتعرض ابنه للإفلاس، وصحيح أنني جميلة، ولكن مهما يكن جمالي فلا يصح أن أستغله لكي أضيع مستقبل شاب بإرغامه على النفقات التي يبذلها من أجلي.

«وعلى قوله هذا لم يكن يسعني إلا أن أراد عليه بشيء واحد أليس كذلك؟ ... أبرزت له الأدلة التي تثبت أني منذ أن أصبحت عشيقتك ضحيت بكل شيء لكي أظل على أخلاصي لك دون أن أطلب منك نقودًا أكثر من طاقتك. أطلعته على مستندات الرهن وعلى إيصالات البيع وأنبأته بعزمي على التخلص من أثاثي ومفروشاتي لكي أسدس ديوني ولكي أعيش معك دون أن أكلفك ما لا طاقة لك به. وحدثه عن سعادتنا وعن عزمك على أن تمنحني حياة أكثر هدوءًا وأكثر سعادة. وانتهى به الأمر إلى الرضوخ للواقع وبسط لي يده وهو يطلب أن أغفر له الطريقة التي استخدمها معي في البداية. ثم قال لي «سيدتي، لن ألجأ أذن إلى العتاب أو إلى التهديد، وإنما أتوسل إليك الآن أن تبذلي تضحية أكبر من كل التضحيات التي أقدمت عليها الآن.

«وارتجفت أوصالي عند سماعي كلماته هذه. وأقترب أبوك مني وأمسك أبوك بيدي الاثنتين وقال في رفق:

«لا تسيئي فهم ما سأقوله لك الآن يا ابنتي، وأعلمي فقد أن للحياة أ؛يانا ضروريات قاسية على القلب ولكن لابد من الرضوخ لهاز أنت فتاة طيبة، وروحك تزخر بمآثر قد لا تعرفها أكثر النساء اللاتي يزدرين بك، ولكن فكري في أن بجانب العشيقة هناك الأسرة، وغلى جانب الحب هناك الواجبات، وأنه بعد نزوات الشباب يبلغ الرجل سنا لابد من أن يكتسب فهي احترام الجميع، وأن تكون له مكانته الممتازة في المجتمع، وليس لأبني ثروة، ومع ذلك فهو يعزم أن يتخلى لك عن الميراث الذي ورثه عن أمه، لأنه إذا أقل منك التضحية التي توشك على إتمامها فسيضطره شرفه وكرامته إلى أن يتخلى لك عن هذا الميراث لكي تكوني في المستقبل وكرامته إلى أن يتخلى لك عن هذا الميراث لكي تكوني في المستقبل في أمان من العوز، ولكنه لم يستطيع أن يقبل هذه التضحية لأن المجتمع الذي لا يعرفك سينسب إلى هذا القبول سببا جسيما لا يجب أن يمس الاسم الذي يحمله، فإنه لم يهمه أن كان أرمان يحبك أو أن كنت تحبيه، أو كان هذا الحب المزدوج سعادة له ورد اعتبار لك لأنه لن يرى الا شيئا واحداً وهو أن أرمان دوفال قد سمحت له نفسه أن تبيع غانيه، واغفري لي هذا التعبير يا أبنتي ولكنني مضطر إلى استخدامه، ثم يأتي بعد ذلك يوم العتاب والحسرات، وثقي في ذلك، وسيحمل كل منكما عندئذ قيدا لا يستطيع منه فكاكا، فماذا تفعلين وقتئذ؟ ... ستكونين قد فقدت شبابك، وسيكون مستقبل ابني قد تحطم، وأكون، أنا أبوه، قد هدتني الشيخوخة وبدلا من أن أجد عنا من ولدي الاثنين أجده من ولد وحد.

«أنت في ميعة الصبا، وأنت جميلة، وستجدين عزاءك وسلواك في الدنيا. وأنت نبيلة، وذكري العمل الطيب الذي ستقدمين عليه ستكفر عن كثير من أعمالك الماضية .. منذ أن عرفك أرمان، منذ ستة شهور وهو قد نسيني، وقد كتبت إليه أربع مرات ولكنه لم يفكر ولو مرة واحدة في الرد علي. ومن يدري، لعلني كنت أموت دون أن يعلم.

«فكرت في كل هذا يا سيدتي، أنك تحبين أرمان فبرهني على ذلك بالطريقة الوحيدة التي ما زالت باقية أمامك، وهي بأن تضحي بحبك في سبيل مستقبله. لم يقع أي مصاب بعد، ولكن سوف تقع المصائب، وقد تكون أفدح مما أتوقع.

«وأخيرًا، أعلمي يا ابنتي، لأنني لم أذكر لك شيء، أعلمي السبب الذء جاء بي إلى باريس،

أن لي ابنة، وقد قلت لك ذلك، وهي شابة وجميلة وطاهرة كالملاك، وهي تحب، وهي أيضًا قد جعلت من هذا الحب حلم حياتها. وقد كتبت كل هذا لأرمان، ولكنه في انشغاله بك لم يرد علي حسنا. أن أبنتي هذه على وشك الزواج، وستتزوج الرجل الذي تحبه، وستنضم إلى أسرة شريفة تريد أن يكون كل شيء شريفا في أسرتي. وقد علمت أسرة الرجل الذي يحب أن يصاهرني كيف يعيش أرمان في باريس وأنذرني بسحب كلمته إذا ما استمر أرمان في حياته هذه.

«بكيت في صمت يا صديقي إزاء كل هذه المشاعر، وكنت قد فكرت فهيا أنا نفسي مرارًا قبل ذلك، وقلت لنفسي ما لم يجرؤ أبوك على قوله لي وجاء على شفتي عشرين مرة وهو أنني لم أكن غير غانية، وأنني مهما أضفيت على علاقتنا فستبدو للناس دائما كأنما دبرت الأمر لكي أوقعك في حبائلي، وأن حياتي السابقة لن تترك لي أي حق في أن أصبح بمستقبل كهذا، وأنني أقبل مسئوليات لا يمكن أن تضمنها عاداتي وسمعتي. وأخيرًا، كنت أحبك يا أرمان، والطريقة الأبوية التي حدثني بها مسيو دوفال، والمشاعر الطاهرة التي أيقظتها في، واحترام هذا الشيخ الصادق الذي سأحظى به، واحترامك الذي كنت موقنة أنك ستوليني به فيما بعد، كل هذا أيقظ في نفس مشاعر نبيلة رفعتني في عيني أنا بالذات، وأثارت في نفسي زهوا لم أكن أعرفه من قبل، وعندما خطر لي أن ذلك الشيخ الذي يتوسل إلى من أجل مستقبل ابني سيطلب من ابنته ذات يوم أن تذكر أسمي في صلواتها كما لو كنت صديقة مجهولة تغيرت وأصبحت فخورة بنفسي.

قلت لأبيك وأنا أجفف دموعي: حسن يا سيدي. هل تعتقد أنني أحب أبنك؟ وأن حبي صادق لا تشويه شائبة؟

- نعم.
- وهل تعتقد أنني جعل من هذا الحب أمل وحلم وكفارة حياتي؟
- كل الاعتقاد.
- حسن يا سيدي. قبلني أذن مرة أخرى كما تقبل ابنتك وأقسم لك أن هذه القبلة الوحيدة الطاهرة التي أتلقاها ستزودني بالقوة ضد حبي وأن ابنك سيعود إليك قبل ثمانية أيام، وقد يكون تعيسًا شقيًا وقتامًا، ولكنه سيبرًا من حبي إلى الأبد.

أجابني أبوك وهو يطبع قبلة على جبيني: أنت فتاة نبيلة وتقومين بعم سيجازيك الله عليك خير جزاء، ولكنني أخشى إلا ينوبك شيء من ابني.

- اطمئن يا سيدي. أنه سوف يكرهني.

وكتبت إلى برودنس أنني موافقة على ما يعرضه على الكونت دي ن ... وطلبت منها أن تمضي إليه وتخبره بأنني سأتناول طعام العشاء معهما، وختمت المظروف وأعطيت الرسالة لأبيك من غير أن أخبره بمحتواها ورجوته أن يسلمها لصاحبتها عند وصوله إلى باريس.

ولكنه سألني مع ذلك عن مضمونها فأجبته: أن فيها سعادة ابنك.

وقبلني أبوك مرة أخرى، وأحسست على جبيني بدمعتي امتنان خيل لي أنهما كفرتا عن خطاياي السابقة، وفي اللحظة التي قبلت فيها أن أسلم نفسي لرجل آخر تألقت فخرا وأنا أفكر فيما أكفر به عن خطيئتي المقبلة.

وعاد مسيو دوفال إلى مركبته ورحل.

ومع ذلك فقد كنت امرأة، وعندما رأيتك لم يسعني إلا أن أبكي ولكنني لم أضعف.

وهل أصبت؟ هذا هو ما أسأل نفسي عليه اليوم وقد أثقل على المرض ولزمت فراشا قد لا

أغادر إلا بعد أن يطويني الموت.

وأنت قد شهدت ما عانيت كلما كان وقت فراقنا يقترب. ولم يكن أبوك بجواري لكي يشد من أزري، وجاءت لحظة أوشكت فيها أن اعترف لك بكل شيء لفطر ذعري لمجرد أنك ستمقتني وتحتقرني.

شيء واحد قد لا تصدقه يا أرمان، وهو أنني توسلت إلى الله أن يمنحني القوة، والدليل على أنه قبل تضحيتي هو أنه زودني بهذه القوة التي طلبتها منه.

وفي تلك الليلة أثناء تناول العشاء، كنت بحاجة إلى عون آخر لأنني لم أشأ أن أعرف ما أنا مقدمة عليه لفرط ما كنت أخشى أن تخونني شجاعتي. وشربت لكي أنسى، وعندما استيقظت في اليوم التالي كنت في فراش الكونت.

هذه هي الحقيقة الكاملة يا صديقي، فأصدر حكمك وأغفر لي، كما غفرت لك ما ألحقته بي من أذى منذ ذلك اليوم.

وما تلى هذه الليلة المشئومة فأنت تعرفه تمامًا كما أعرفه أنا. ولكن الذي لا يمكن أن تعرفه ولا يمكن أن تشك فيه هو العذاب الذي تعرضت له منذ افتراقنا.

وكنت قد علمت أن أباك اصطحبك معه، ولكنني شككت ف أنك لن تستطيع أن تعي مدة طويلة بعيدًا عني، واليوم الذي التقيت بك فيه في الشانزليزيه تأثرت كل التأثر ولكنني لم أدهش إطلاقًا.

وبدأت عندئذ سلسلة الأيام التي حمل لي كل منها إهانة جديدة منك، أهانة كنت أتلقاها بسرور تقريبًا، ففوق أنها كانت الدليل على أنك ما زالت تحبني فقد خيل لي أنه كلما ازداد اضطهادك لي كلما كبرت في عينيك في اليوم الذي ستعرف فيه الحقيقة.

ولا تأخذك الدهشة لهذا الاستشهاد والمرح يا أرمان، فإن الحب الذي منحني أياه فتح قلبي لآفاق نبيلة.

ومع ذلك فلم اشعر بمثل هذه القوة على الفور، فبين تنفيذ تضحيتي لك وبين عودتي كان قد انقضى وقت طويل أحسست أثناءه بحاجتي إلى أن ألجأ إلى وسائل طبيعية لكي لا يصيبني الجنون، ولكن تأخذني مشاغل الحياة التي ألتقي بنفسي فيها، ولعل برودنس قالت لك أنني كنت أختلف إلى الحفلات الراقصة والماجنة.

كان لدي نوع من الأمل تقريبًا في أن أقتل نفسي سريعًا لفوط الإسراف، وأظن أن هذا الأمر لم يلبث أن يتحقق، فإن صحتي اعتلت بالضرورة وزادت بي العلة، واليوم الذي أرسلت فيه إليك مدام دوفرنوا تطلب منك أن ترحمني كنت مرهقة جسدًا وروحا.

ولا تنس يا أرمان بأية طريقة كافأتني على آخر دليل على حبي قدمته إليك وبأية إهانة طردت من باريس المرأة التي على الغرم من إشرافها على الموت لم تستطع أن تقاوم صوتك عندما طلبت منها ليلة حب والتي اعتقدت، كبلهاء أنها قد تستطيع أن تلحم الماضي بالمستقبل، وكنت على حق فيما فعلت يا أرمان، ولكن لم يدفع لي أي أ؛د ليالي بمثل هذا الثمن الباهظ.

«وأصبحت جسدًا بلا روح، وشيئا لا عقل له. وقضيت بعض الوقت وأنا أعيش أوتوماتيكية، ثم عدت إلى باريس وسألت هناك، وعلمت عندئذ أنك تقوم برحلة طويلة، ولم يعد هناك ما يشد أزري وأصبحت حياتي كما كانت قبل سنتين، أي قبل أن أعرفك. وحاولت أن أسترد الدوق، ولكنني كنت قد أهنت هذا الرجل كثيرًا، والشيوخ لا يعرفون الصبر ولا ريب لأنهم يعملون أنهم ليسوا مخلدين. وازدادت علني عن ذي قبل، والرجال الذين يشترون الحب يفصحون البضاعة قبل الحصول عليها، ثم أنه كانت في باريس نساء أصح مني وأسمن، فلم البث أن طواني النسيان شيئًا ما. وهذا هو الماضي حتى الأمس.

«أما الآن فأنا مريضة جدًا. وقد كتبت إلى الدوق لكي أطلب منه نقودًا لأنني لا أملك شيئًا منها، وقد عاد الدائنون، وهم يأتوني بمستنداتهم في إصرار وبدون رحمة. فهل يرد الدوق؟ ليتك في باريس الآن يا أرمان .. لكنت تأتي لتراني وتواسيني بزيارتك.

«20 ديسمبر.

«إن الطقس فظيع، والجليد يتساقط وأنا وحدي في البيت. أصباني الحمى منذ ثلاثة أيام بحيث لم أستطيع أن أكتب كلمة واحدة. ل يس هناك جديد يا صديقي. يراودني الألم كل يوم في أن تأتيني رسالة منك، ولكنها لا تأتي، وأظن أنها لن تأتي أبدًا. أن للرجال وحدهم القوة في عدم الصفح. والدوق لم يرد علي.

«وعادت برودنس وعاودت رحلاتها إلى محلات الرهون.

«إنني أنفث الدن بدون انقطاع. وأن منظري ليحزنك أذا رأيتني وأنك لسعيد الحظ فأنت تحت سماء دافئة ليس فيها شتاء جليدي ينقل على صدرك. أنني نهضت اليوم قليلاً ووقفت خلف ستائر نافذتي، ورأيت هذه الحياة الباريسية التي أظنت أن أسبابها تقطعت بي تماما. ومر بالشارع بعض المعارف وهم ينطلقون مسرعين مرحين لا يبالون بشيء. ولم يرفع أي منهم عينية إلى نوافذي. ولكن جاء بعض الشباب وسجلوا أسماءهم. وكنت قد مرضت قبل ذلك، ولم تكن أنت تعرفيني، ولم ينلك مني إلا بذاءة لسان عندما رأيتك أول مرة، وع ذلك فقد أتيت تسأل عني كل صباح. وهأنذا مريضة من جديد، وقد قضينا معًا ستة شهور، وأحبتك حبا لم تشعر به أية امرأة لرج قط، ولكنك بعيد، وتلعنني ولا تأتيني منك كلمة عزاء. ولكنه القدر وحده الذي تسبب في هذه الهجران، وأنا واثقة من ذلك لأنك لو كنت في باريس لما فارقت فراش مرضي.

«25 ديسمبر.

«يمنعني طبيبي من الكتابة كل يوم. والواقع أن ذكرياتي تهيج الحمى، ولكنني تلقيت رسالة أصابتني بخير، فقد أتتنى إلى جانب ما فيها من مشاعر نبيلة بعون مادي، وأستطيع إذن أن أكتب إليك اليوم. هذه الرسالة جاءتني من أبيك وإليك نصها:

«سيدي.

«علمت الآن فحسب بأنك مريضة، ولو أنني في باريس لأتيتك بنفسي لأستقي أنباءك، ولو أن أبني بجواري لقلت له أن يمضي ليأتيني بها بنفسه. ولكنني لا أستطيع مغادرة س ... وأرمان على مبعدة ستمائة أو سبعمائة فرسخ من هنا، فاسمحي لي أن أكتب إليك. أنني حزين جدًا لمرضك وأتمنى مخلصًا الشفاء السريع.

«أحد أصدقائي، مسيو هـ ... سيأتي إليك فتفضلي باستقباله أنه مكلف مني بمهمة أنتظر نتيجتها بفارغ الصبر.

وتفضلي يا سيدتي بقبول أسمى عواطفي ...

«هذه هي الرسالة التي تلقيتها من أبيك، وهو رجل نبيل القلب فأحببه كثيرا لأن قليلاً من الرجال من هم جديرون بالحب، وقد أصابتني رسالته بخير كبير لم ألقه من أي طبيب.

«وقد أقبل مسيو هـ ... هذا الصباح. وكان يبدو شديد الارتباك إزاء المهمة الدقيقة التي كلفه بها مسيو دوفال، فقد جاء يسلمني ألف فرنك من قبل أبيك. وقد أردت أن أرفض في البداية ولكن مسيو هـ ... قال لي أن رفضي هذا سيكون إهانة لمسيو دوفال الذي كلفه أن يعطيني هذا المبلغ أولا وأن يعطيني بعد ذلك كل ما أحتاج إليه. وقد قبلت هذا العون فهو لا يمكن أن يكون من قبل أبيك أحسانا. وإذا مت قبل أن تعود فأطلعه على خطابي هذا وقل له أن الفتاة المسكينة التي أكرمها وكتب لها يواسيها قد كتبت هذه السطور وهي تذرف دموع الامتنان وتصلي من أجله.

«4 يناير.

«قضيت بضعة أيام مؤلمة جدًا. ولم أكن أدرِي أن الجسد يمكن أن يحتمل كل هذا الألم. أواه!... أنني أدفع الآن ثمن حياتي السابقة مضاعفًا.

« كنت محل رعاية وعناية طوال الليل. ثم أكن أستطيع أن أتنفس فإن الهذيان والسعال تقاسمًا بقيمة حياتي التعسة.

«وغرفة نومي مملوءة بالحلوى والهدايا من كل نوع، أحضرها لي أصدقائي، ولا ريب أن بينهم من يتعشم أن أكون عشيقته فيما بعد، ولو، ولو أنهم رأوا ماذا فعل المرضى بي لولوا الأدبار مذعورين.

«وبرودنس تقدم هديا رأس السنة بما أتلقاه أنا منها.

«أن الطقس قارس البرودة، وقال لي الطبيب أنني قد أستطيع الخروج بعد أيام قلائل إذا تحسن الجو.

«8 يناير.

«خرجت أمس في مركبتي. كان الوقت صحوا، وكانت الشانزليزيه تعج بالناس. وبدأ اليوم كأنه أول بسمة للربيع، وكان كل شيء حولي كأنه عيد، ولم أر في أي يوم شمس ما رأيته أمس من مرح وأعتدال وعزاء.

«وألتقيت تقريبًا بكل من عرفتهم، وهم مرحون دائما لا يهمهم غير اللهو، ما أكثر أئناس الذين لا يعرفون أنهم سعداء. وقد مرت بي أوليمب في عربة أنيقة أهداها لها مسيو دى ن، وحاولت أن تسبني بعينيها وهي لا تعرف كم أصبحت أنا بعيدة عن كل هذه الأباطيل. وألتقيت بشاب شهم عرفته منذ وقت طويل، وسألني أن كنت أريد تناول العشاء معه، وقال أن له صديقًا يود أن يتعرف بي.

«وقد ابتسمت في حزن وبسطت له يدي الملتهبة بالحمى. ولم أر وجها تعلو الدهشة كما رأيت وجهة عندئذ.

«وعدت في الساعة الرابعة وتناولت غذائي بشهية لا بأس بها.

«لقد أصابتني هذه النزهة بخير كبير.

«أتراني قد أشفي من مرضي هذا؟

«أن جمال الحياة وسعادة الناس تجعل المرضى الذين عزلتهم علتهم عن الآخرين وأصبحوا يتمنون الموت سريعًا، يتشبثون بالموت من جديد.

«10 يناير.

«كان هذا الأمل الذي راودني في الشفاء مجرد حلم من الأحلام، فهأنذا الازم فراشي من جديد، وجسدي تكسوه لزقات تحرقني ... هذا الجسد الذي كانوا يدفعون فهي الكثير، ترى، ماذا يقدمون له اليوم.

«لا ريب أننا قد أتينا الكثير من الشرور قبل أن نولد، أو أننا سنلقي سعادة كبيرة بعد موتنا ما دام الله قد أراد لنا كل هذا العذاب، كفارة لكل ما نصاب به من محن وعذاب في الحياة.

«12 يناير.

«أنني أتألم دائمًا.

«أرسل الكونت دي ن ... مبلغًا من المال أمس، ولكنني رفضته، فلا أريد شيئا هذا الرجل فهو السبب من أنك لست بجواري.

«أواه! ... يا لأيامنا الجميلة في بوجيفال؟ ... أين أنت؟

«إذا خرجت من هذه الغرفة على قيد الحياة فسوف يكون ذلك لكي أحج إلى البيت الذي أقمنا فيه معا، ولكنني لن أخرج منها إلا وأنا ميتة.

«من يدري أن كنت سأكتب لك غدًا؟

«25 يناير.

«منذ إحدى عشر ليلة وأنا لا يغمض لي جفن. أنني أختنق. وأظن في كل لحظة أنني سأموت. وقد أصدر الطبيب أوامر بألا يسمحوا لي أن ألمس قلما، ولكن جوليا دوبرا التي تعني بي تسمح لي – وقت لآخر أن أكتب إليك بضعة سطور. أفلا تعود أذن قبل أن أموت؟ هل أنتهى الأمر بيننا إلى الأبد أذن؟ يخيل لي أنك إذا أتيت فسوف أشفى. ولكن ما الفائدة من الشفاء؟

«28 يناير.

«انتهيت اليوم من نومي على صخب كبير. واسرعت جوليا. وهي ترقد معي في غرفتي إلى غرفة الطعام، وسمعت أصوات رجال راحت تجادلهم عبثا، وعادت وهي تبكي.

«لقد أتى بعض الرجال لتوقيع الحجز. وقلت لها أن تتركهم يفعلون ما يعتبرون عدلاً. ودخل المحضر غرفتي وقبعته فوق رأسه، وفتح الأدراج وسجل كل ما رآه ولم يبد عليه أنه لحظ أن هناك امرأة تحتضر في الفراش الذي شاءت رحمة القانون أن تتركه لي لحسن الحظ.

«وقد رضي أن يقول لي قبل انصرافه أنني أستطيع أن أقدم معارضة قبل مضي تسعة أيام، ولكنه ترك وراءه حارسًا. ماذا سيكون من أمري يا إلهي؟ أن هذا لذي حدث الآن قد زادني مرضًا. وقد أرادت برودنس أن تطلب نقودًا من صديق أبيك ولكنني أبيت.

«تلقيت رسالتك صباح اليوم، وكنت بحاجة إليها، فهل تتلقى ردي في الوقت المناسب؟ وهل تراني بعد؟ إن هذا اليوم ليوم سعيد أنساني كل الأيام التي قضيتها منذ ستة شهور، ويخيل لي أنني تحسنت كثيرًا رغم شعور الأسى الذي أحس به وأنا أكتب إليك.

«ومهما يكن فلا يجب أن يكون الأمر محزنًا إلى الأبد.

«وحين يخطر ببالي أنني قد لا أموت، وأنك قد تعود، وأنني قد أرى الربيع، وأنك قد تحبني ثانية، وأننا قد نستأنف حياتنا التي عشناها في العام الماضي!.

«ولكنني مجنونة ولا ريب، فأنني أكاد لا أستطيع الإمساك بالقلم الذي أكتب لك به هذا الحلم الذي لا أظن أنه سيتحقق.

«ومهما يكن فقد أحببتك كثيرًا يا أرمان. ولولا أنني أشد أزري بذكري هذا الحب، ويأمل مبهم في أن أراك بجواري لمت منذ وقت طويل.

«4 فبراير.

«عاد الكونت دي ج ... وهو حزين لأن عشيقته خائنة وكان يحبها كثيرًا. وقد جاء يقص على ذلك. وقد ساءت حواله المالية، ولكن هذا لم يمنعه من أن يدفع للمحضر وأن يصرف الحارس.

«وقد حدثته عنك، ووعدني أن يحدثن عني، وقد نسيت في حديثنا هذا أ نني كنت عشيقته، وحاول هو من ناحيته أن ينسى ذلك أيضًا. أنه رجل له قلب نبيل.

«وقد أرسل الدوق يسأل عن أنبائي أمس، وجاء هذا الصباح. ولا أدري ما الذي يجعل هذا الشيخ يعيش حتى اليوم. وقد مكث بجواري ثلاثة سعات لم يقل لي فيها عشرين كلمة، وانحدرت من عينيه دمعتان كبيرتان عندما رآني شاحبة، ولاشك أن ذكري ابنته قد أبكته.

«سيكون قد رآها تموت مرتين. أنه محنى الظهر ورأسه تميل نحو الأرض وشفته مدلاة ونظرته باهتة .. الشيخوخة والألم يثقلان على جسده المضني بعبئهما المزدوج، لم يوجه إلى كلمة عتاب، وكان يخيل لمن يراه أنه يستمتع خفية وه ويرى المرض بفتك بي سريعًا. وكان يبدو أنه فخور يقف على قدميه في حين أنني أرزح تحت وطأة الألم والعذاب على الرغم من شبابي.

«عاد الجو المكفهر، ولا أحد يأتي إلي، وجوليا ترعاني وتعني بي بقدر ما تستطيع. أما برودنس فعندما رأت أنه لم يعد بمقدوري أن أعطيها نقودًا كما كنت أفعل بدأت تتحجج بأعمالها لكي لا تأتي.

«والآن، وقد أصبحت على شوك الموت على الغرم من قول الأطباء، لأن أطباء كثيرين يتولون علاجي، وهذا دليل على أن الداء يتفاقم، فأنني أكاد أكون آسفة لأنني أصفيت إلى أبيك، ولو أنني كنت أدري أني لم آخذ في مستقبلك غير سنة واحدة لما استطعت مقاومة الرغبة في

قضاء هذه السنة معك. وكنت على الأقل أموت وأنا ممسكة بيد صديق. وصحيح أننا لو أقمنا معا هذه السنة لما مت بمثل هذه السرعة.

«ولكن فلتكن أرادة الله.

«أوه، تعال يا أرمان. أنني أتعذب عذابًا فظيعًا. يا إلهي! أنني سأموت. كنت شديدة الحزن أمس بحيث أردت أن أمضي في مكان آخر غير بيتي سهرة الأمس التي خيل لي أنها ستطول. كان الدوق قد أقبل في الصباح. ويبدو لي أن رؤية هذا الشيخ الهرم الذي نسيه الموت يعجل بموتي.

«وعلى الرغم من الحمى الملتهبة التي تحرقني فقد حملت جوليا على أن تلبسني ثيابي وأن تمضي بي إلى الفودفيل. وقد صبغت شفتي ووجنتي بالأحمر، ولولا ذلك لبدوت كالجثة. ومضيت إلى تلك المقصورة التي وأعدتك فيها على اللقاء لأول مرة، وبقيت طوال الوقت محدقة في الصالة حيث كنت تجلس في ذلك اليوم، وحيث كان يجلس بالأمس جلف كان يقهقه بكل قواه لكل الحماقات التي ينطق بها الممثلون. وقد عادوا بي إلى بيتي وأنا شبه ميتة. ورحت أسعل وأنفث دما طوال الليل .. واليوم لا أستطيع أن أتكلم ولا أكاد أستطيع تحريك ذراعي .. يا إلهي .. يا إلهي .. أنني سأموت. كنت أتوقع ذلك ولكنني لا أطيق أن أتعذب أكثر مما تعذبت وإذا ...».

وبعد هذه الكلمة كانت كل الكلمات التي حاولت مرجريت كتابتها يتعذر قراءتها، وكانت جوليا دوبرا هي التي واصلت الكتابة ...

«18 فبراير.

«مسيو أرمان.

«منذ اليوم الذي ذهبت فيه مرجريت إلى المسرح وهي مريضة جدًا. فقدت صوتها تمامًا .. ومن المستحيل أن أصف لك مدى عذاب هذه الصديقة المسكينة، فلم أعتد أبدًا مثل هذه الانفعالات ويتملكني الذعر باستمرار.

كم كنت أود أن تكون بجوارها. أنها تهذي دائمًا، ولكن سواء في أوقات هذيانها أو صحوها فإن أسمك هو الذي تنطق به دائمًا عندما تتمكن من النطق.

قال لي الطبيب أن منبتها أزفت، ومنذ أن استبد بها المرض هكذا والدوق العجوز لا يأتي، فقد قال للطبيب أن هذا المنظر يضنيه جدًا.

ومدام دوفرنوا أساءت التصرف هي الأخرى، فإن هذه المرأة التي كانت تظن أن في استطاعتها الحصول على نقود من مرجريت والتي كانت تعيش على حسابها تقريبًا تعهدت بالتزامات لم تستطع القيام باه وانقطعت زياراتها حين رأت أنها لم تعد تفيد شيئًا من جارتها., والجميع يهجرونها. وقد أضطر الكونت دي ج ... إزاء مطاردة الدائنين له إلى الرحيل إلى لندن، وقد أرسل ألينا بعض النقود قبل رحيله، وبذل كل ما يمكن ولكن الدائنين عادوا ووقعوا الحجز وهم لا ينتظرون إلا موت الفتاة المسكينة لبدء البيع.

وقد أردت أن أستغل آخر مواردي لإيقاف الحجوزات ولكن المحضر قال لي أن هذا لن يفيد وأن لديه أحكاما أخرى لابد من تنفيذها، وما دامت ستموت فمن الأوفق أن أتركهم ينفذون البيع ويسددون ديونها بدلا من أن يعود كل شيء فيما بعد إلى أسرتها التي رفضت أن تزورها والتي لم تحبها قط. ولا يمكن أن تتصور مدى البؤس المذهب الذي تحتضر فيه هذه التعسة. لم نكن نملك بالأمس نقودًا على الإطلاق، فإن معاطفها ومجوهراتها ومفروشاتها كلها محجوز عليها. ومرجريت ما زالت واعية بما يدور حولها، وهي تتألم جسدًا وروحًا وقلبا وتنحدر دموع كبيرة على وجنيتها الهزيلتين الشاحبتين بحيث لا يمكنك أن تعرف وجه تلك التي أحببتها كل الحب إذا

رأيتها الآن. وقد استحلفتني أن أكتب إليك، عندما لا تستطيع الكتابة وهأنذا أكتب أمامها. وعيناها تنظراه إلى ولكنها لا تراني، فقد غشيتهما سحابة الموت القريب، ومع ذلك فهي تبتسم، وكل ذهنها وكل كيانها وكل قلبها معك أنت، وأنا واثقة من ذلك.

«وفي كل مرة يدخل أحد تتألق عيناها وتعتقد أنك أنت الذي تدخل، وعندما ترى أن الداخل شخص آخر يستعيد وجهها تعبيره الحزين الأسى، ويتصبب منه عرق بارد ويضطره صدغاها.

«12 فبراير في منتصف الليل.

«هذا يوم حزين يا مسيو أرمان، فقد اختنقت مرجريت هذا الصباح. عاد إليها صوتها شيئا ما، ونصحها الطبيب بأن ترى أحد القساوسة فلم تمانع ومضى هو نفسه وجاء بأحدهم.

«وفي أثناء ذلك نادتني مرجريت بجوار فراشها، وطلبت مني أن أفتح دولابها ثم أشارت إلى قلنسوة وقميص طويل من الدانتللا وقالت لي في صوت وأهن. سأموت بعد أن أعترف، فالبسيني عندئذ هذه الأشياء ... هذا دلال امرأة تشرف على الموت.

«ثم قبلتني وهي تبكي وأردفت تقول: أنني أستطيع أن أتكلم، ولكنني أختنق كثيرًا حين أتكلم ... أريد هواء.

«ولم يسعني ألا أن أبكي، وفتحت النافذة، وبعد بضع لحظات دخل القس.

«وأسرعت إليه.

«ولكنه عندما عرف في بيت من هو بدأ أنه يخشى ألا نحسن استقباله، فقلت له في جرأة أدخل يا أبي.

«ومكث مع المريضة بعض الوقت وعندما خرج قال لي: أنها عاشت في الخطيئة ولكنها ستموت مؤمنة.

«وبعد بضع لحظات عاد وبرفقته صبي المذبح، وكان هذا الأخير يحمل صليبًا ويتقدمها قندلفت الكنيسة وهو يدق جرسا ليعلن أن رحمة الله تأتي إلى الميتة.

«ودخل ثلاثتهم غرفة النوم التي طالما دوت فيها الضحكات من قبل والتي لم تعد في تلك اللحظة إلا مظلة موت.

«ومسح القس قدمي مرجريت ويديها وجبينها بالزيت المقدس، ثم تلا صلاة قصيرة، وألقت مرجريت نفسها على استعداد للانتقال إلى السماء، حيث ستمضي دون شك إذا كان الله قد رأى محنة حياتها وقداسة موتها.

«ومنذ ذلك الوقت لم تقل كلمة واحدة، ولم تأت بحركة واحدة. وحسبتها ماتت عشرين مرة ولكنني كنت لا ألبث أن أسمعها كل مرة تتنفس بكل مشقة.

«20 فبراير الساعة الخامسة مساء.

«انتهى كل شيء، ودخلت مرجريت النزع الأخير في الساعة الثانية، ولم يلق أحد من العذاب مثلما لقيت هي، إذا نظرنا إلى الصيحات التي كانت تنطلق منها، وهبت مرة أو مرتين واقفة في فراشها كما لو أنها أرادت أن تمسك بروحها وهي صاعدة إلى السماء.

«ونطقت باسمك مرتين أو ثلاثًا كذلك ثم سكتت، ووقعت على الفراش منهوكة، وانحدرت عبرات صامتة من عينيها ثم ماتت.

«واقتربت منها عندئذ وناديتها، وإذا رأيتها لا تجيب أطبقت عينيها وطبعت على جبينها قبلة.

«مسكينة أنت يا مرجريت. وددت لو أنني كنت قديسة لكي يشفع لها قبلتي عند الله.

«ثم ألبستها كما طلبت مني، ثم مضيت وأتيت بأحد القساوسة وأشعلت شمعتين كبيرتين من أجلها وصليت ساعة في الكنيسة.

«وأعطيت بعض الفقراء نقود كانت لا تزال باقية معها.

«وأنا لا أفهم في الدين جيدًا ولكنني أعتقد أن الله سيعرف أن دموعي كانت صادقة وأن صلاتي كانت ورعة وأن أحساني كان خالصًا فيترفق بها، هي التي ماتت في ميعة صباها وجمالها ولم تجد من يطبق عينيها ويدفعها غيري.

«22 فبراير.

«دفنت مرجريت اليوم. وكثيرات من صديقاتها أتين على الكنيسة، وبكي بعضهن في صدق وإخلاص، وعندما أنطلق الموكب على مونمارتر كان يمشي وراءه رجلان فقط: الكونت دي ج ... وقد أقبل خصيصًا من لندن والدوق، وكان يسنده رجلان من خدمه.

«وأكتب إليك كل هذه التفاصيل وأنا في بيتها، خلال دموعي، وأمام المصباح الذي يضيء في حزن بجوار طعام. العشاء الذي لا ألمسه كما تعلم والذي أعدته لي نانين لأنني لم أذق شيئا منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة.

«لن تستطيع حياتي لن تحتفظ بهذه المشاعر الحزينة طويلا لأنها ليست ملكي، تماما كما لم تكن حياة مرجريت ملكا لها، ولهذا.

أقدم إليك هذه التفاصيل في نفس الأماكن التي جرت فيها خشية من أن يمضي وقت طويل بينها وبين عودك ولا أستطيع أن أذكرها لك عندئذ بكل صحتها المحزنة.

(27)

قال لي أرمان بعد أن فرغت من قراءة هذا المخطوط: هل قرأت؟

- أنني أفهم كم تألمت يا صديقي لو أن كل ما قرأت صحيح.

- أكد لي أبي أكل ذلك في خطاب أرسله إلي.

وقضينا وقتا آخر في الحديث عن الفتاة المسكينة التي ماتت، ثم عدت إلى بيتي لاستجم قليلاً.

وكان أرمان لا يزال حزينا ولكنه أحسن بشيء من الهدوء بعد أن فرغ من قصته هذه، وتحسنت حالته سريعًا، ومضينا معا لزيارة برودنس وجوليا دوبرا.

كانت برودنس قد أفلست، وقالت لنا أن مرجريت هي السبب لأنها استدانت منها مبالغ طائلة أثناء مرضها، وماتت قبل أن تردها إليها. ولما لم يكن معها إيصالات بتوقيع مرجريت تثبت بها حقًا فقد اضطرت إلى إعلان إفلاسها.

وبفضل هذه القصة التي راحت ترويها في كل مكان لتعلل بها إفلاسها حصلت على ألف فرنك من أرمان. ولم يصدق هذا الأخير بالطبع ولكنه أراد أن يبدو كأنه صدقها لفرط احترامه لكل ما يمس عشيقته بصلة.

ثم مضينا بعد ذلك إلى جوليا دوبرا، وروت لنا هذه الخيرة الأحداث الأخيرة التي شهدتها وهي تذرف دموعا صادقة لذكرى صديقتها.

وأخيرًا ذهبنا إلى قبر مرجريت، وكانت أشعة الشمس أبريل الأولى قد فتحت الأوراق الأولى.

وبقي لأرمان واجب أخير وهو أن يمضي لزيارة أبيه، وقد أراد أن أرافقه أيضًا.

وبلغنا مدينة س ... حيث رأيت مسيو دوفال كما صورته تماما من الصورة التي رسمها لي أبنه. كان رجلاً عظيمًا ووقورًا وعطوفًا. وقد استقبل أرمان بدموع الفرح وشد على يدي في ود، ولم البث أن رأيت أن الإحساس الأبوي هو الذي يهيمن على كل الإحساسات الأخرى لديه.

وكان لأبنته، وتدعي بلانسن، هذه الشفافية في العيون وفي البصر ورقة الفم اللتان تدلان على أن الروح لا تستوعب ألا الأفكار المقدسة وأن الشفتين لا تنطقان ألا بأطهر الكلمات، وقد ابتسمت لعود أخيها وهي لا تدري أن غانية ضحت بسعادتها بعيدًا عنها لمجرد ذكر أسمها.

وقضيت بضعة أيام مع هذه الأسرة السعيدة التي لم تعد تهتم بأحد إلا بذلك الذي يأتيها ببرء قلبه.

وعدت إلى باريس حيث عكفت على كتابة هذه القصة كما رويت لي، وليس لها غير ميزة واحدة قد تجد من يعترض عليها وهو أنها حقيقية.

ولا استخلص من هذه القصة ذلك الاستنتاج القائم على أن كل الفتيات أمثال مرجريت جديرات بأن يفعلن ما فعلته، فهذا شيء بعيد عن ذهني ولكنني أعلم أن واحدة منهن قد اختبرت في حياتها حبا عنيفا تألمت منه وماتت. ورويت للقارئ ما عرفته، وكان هذا واجبًا.

وأنا لست رسولاً للرذيلة ولكنني سأكون صدى للشقاء النبيل في كل مكان اسمعه.

وأعود فأكرر أن قصة مرجريت استثناء ولو أنها قاعدة عامة لما تجشمت عناء كتابتها.

«تمت»